علم البديع

دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع

تأليف

د. بسيوني عبد الفتاح فيود

أستاذ البلاغة والنقد

كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر

دار المعالم الثقافية

الأحساء

للنشر والتوزيع

مؤسسة المختار

للنشر والتوزيع

عِلْمُ البَدِيع

دراسة تاريخيّة وفنيّة لأصول البلاغة ومسائل البديع

تأليف

د. بسيوني عبد الفتاح فيّود

أستاذ البلاغة والنقد

كليّة اللغة العربيّة - جامعة الأزهر

مؤسسة المختار للنشر والتوزيع

دار المعالم الثقافية
الأحساء
للنشر والتوزيع

مؤسسة المختار

للنشر والتوزيع - القاهرة

٦٥ شارع النزهة - مصر الجديدة

تليفون و فاكس : ٢٩٠١٥٨٣

الطبعة الثانية

١٤١٨هـ - ١٩٩٨م

رقم الإيداع : ٣٨٦٩ لسنة ١٩٩٨

الترقيم الدولى : 977-5283-24-8

دار

المعالم الثقافية

للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية

الأحساء - الهفوف

شارع الجامعة

ص.ب : ١٦١٣ الأحساء ٣١٩٨٢

هاتف : ٥٨٧٠٦٢٣ - ٥٨٦٢٠٦١

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين بديع السموات والأرض ، جعل الأرض قراراً والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ، فتبارك الله أحسن الخالقين ... والصلاة والسلام على خير خلقة المبعوث رحمة للعالمين الذى أوتى جوامع الكلم، صلوات ربى وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين ... أما بعد .

فكتاب علم البديع دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع كتاب له وجهتان .

الوجهة الأولى : دراسة أصول البلاغة دراسة تاريخية تبرز تلك الأصول منذ أن كانت إشارات وملاحظات بلاغية يلاحظها الشعراء والنقاد والكتاب فى مختلف عصور الأدب ، ثم دونت تلك الملاحظات وسجلت وكان التأثر والتأثير بين العلماء فنمت هذه المسائل البلاغية وتطورت .

والقسم الأول من الكتاب يجلى هذا الجانب ويبرز تاريخ البلاغة العربية ويظهر تطورها ويبين مدى التأثر والتأثير بين علمائها، ويحرص على إيضاح أصالتها مفندا آراء المشككين فى تلك الأصالة .

أما الوجهة الثانية فهى دراسة مسائل البديع دراسة فنية، وتضمن القسم الثانى من الكتاب دراسة تلك المسائل ، وقد حرصنا فى هذا الجانب على تجلية ألوان البديع وإبراز

أسرارها ودقائقها وإيضاح أن تلك الألوان ليست لمجرد الزينة والزخرفة الشكلية فحسب ، بل إنَّ التحسين الذى تضفيه على الكلام تحسين ذاتى يقتضيه المقام وتستدعيه الحال .

ولما نفدت الطبعة الأولى من هذا الكتاب ، وظهرت الحاجة إليه ، وكثر سؤال الدارس عنه لزم إعادة طبعه طبعة دقيقة واضحة يستفيد منها الدارس ، وتحقق الثمرة المرجوة والغاية المنشودة .

فالله عز وجل أسأل أن يكون عملنا خالصا لوجهه الكريم، وأن ينفع بهذا الكتاب ، ويجزينا خير الجزاء ، ويهدينا سواء السبيل ، إنه خير مسئول، وهو نعم المولى ونعم النصير ... وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المؤلف

د/ بسيونى عبد الفتاح فيود

أستاذ البلاغة والنقد فى كلية اللغة العربية

جامعة الأزهر بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الطبعـــــــة الأولى

الحمدلله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين نبينـــا محمـــد وعلى آلة وأصحابه أجمعين ...

أما بعد :

فيتكون هذا الكتاب من قسمين : تناولت فى القسم الأول - نشأة البديع وتطور البحث فى الدراسات البلاغية وقد اختتمته بحديث أوضحت فيه أصالة البلاغة العربية ... وتناولت فى القسم الثانى فنون البديع فدرستها دراسة تحليلية دقيقة ، جليت فيها تلـــك الفنون وأوضحت أنها ليبست لمجرد الزينة والتحسين - كما ذكـــر الخطيـــب القزوينـــى وأتباعه - بل لها مزاياها البلاغية التى يقتضيها المقام ويستدعها الكلام ، وقد وقفت مـــع كل فن من فنون البديع وأبرزت مزاياه البلاغية وأثره فى التعبير ... والله عز وجل أســـأل أن ينفع بهذا الكتاب طلبة العلم وأبناء الإسلام وأن يجزينا خير الجزاء ويهدينا إلى ســـواء السبيل إنه نعم المولى ونعم النصير؟

المؤلف

د/ بسيونى عبد الفتاح

القسم الأول

نشأة البديع وتطور البحث
فى الدراسات البلاغية

يطلق البديع فى اللغة على إيجاد الشئ واختراعه على غير مثال قال تعالى : ﴿بَديعُ السموَات وَالأرضِ وَإِذَا قَضَى أمراً فإنما يقُول لَهُ كُنْ فيكونُ﴾[1] فمعنى إبداع السموات والأرض : خلقهما وإيجادهما على غير مثال سابق . كما يطلق على الجديد المحدث ، وعلى الشئ العجيب الغريب ، يقول حسان بن ثابت رضى الله عنه:

سجية تلك فيهم غير محدثة — إن الخلائق فاعلم شرها البدع

ويقال : شئ : بديع أى . عجيب محدث ، وركى بديع أى : جديدة حديثة الحفر[2] .

والبلاغيون قد أطلقوا كلمة : (بديع) على فنون البلاغة ومسائلها ، كما أطلقوا على تلك الفنون والمسائل كلمات : البلاغة والفصاحة والبيان والبراعة ، وظلت كلمة : " البديع " ترد مرادفة تلك المعانى ، مرادا بها مسائل البلاغة وفنونها ، حتى جاء السكاكى : " ت ٦٢٦ هـ " فقسم البلاغة إلى علمى : " المعانى والبيان " ، وقال : هناك وجوه أخرى غير مسائل هذين العلمين ، يصار إليها لقصد تحسين الكلام وتزيينه ، وهى ما أطلق عليه بعده " علم البديع" .

وبهذا يتضح لك أن البلاغة لم تقسم إلى علوم ثلاثة إلا فى القرن السابع الهجرى، وكانت مسائلها قبل ذلك ، من طباق وجناس وتورية ومبالغة وتقسيم واستعارة وتشبيه وكناية ومشاكلة وتجريد ، إلى آخر تلك الفنون ، كان يطلق عليها جميعا اسم : البديع أو البيان أو الفصاحة أو البراعة ، دون تمييز بينها ، وكانت ترد فى الشعر القديم وما وصل إلينا من نثر ، عفو الخاطر وبلا تكلف ولا تصنع. فكان لها أثرها فى النفس وفى إبراز المعنى وإظهار جماله وحسنه .

من ذلك ما نشعر به فى قول امرئ القيس مجانساً على سبيل الاشتقاق.

---

(١) سورة البقرة : الآية ١١٧.

(٢) انظر لسان العرب : مادة " بدع ".

وإن كنت قد ساءتك منى خليقة | فسلى ثيابى من ثيابك تنسل

وقوله

لقد طمح الطماح من بعد أرضه | ليلبسنى من دائه ما تلبسا

وقوله مطابقا ومشبها ومبالغاً فى وصف فرسه :

مكر مفر مقبل مدبر معا | كجلمود صخر حطه السيل من عل

وقوله مبالغا فى وصف فرسه أيضاً :

فعادى عداء بين ثور ونعجة | دراكا و لم ينضح بماء فيغسل

وقوله رادا أعجاز الكلام على صدوره :

إذا المرء لم يخزن عليه لسانه | فليس فى على شئ سواه بخازن

وقوله مصرعا أول القصيدة :

ألاعم صباحا أيها الطلل البالى | وهل ينعمن من كان فى العصر الخالى

وقوله فى حسن الابتداء :

قفانبك من كرى حبيب ومنزل | بسقط اللوى بين الدخول فحومل

وفى قول زهير بن أبى سلمى مطابقاً :

ليث بعثر يصطاد الرجال إذا | ما الليث كذب عن أقرانه صدقا

وقوله فى حسن التقسيم وكان عمر رضى الله عنه يعجب منه ويردده:

فإن الحق مقطعه ثلاث | يمين أو نفار أو جلاء

وقوله فى حسن التسهيم:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش | ثمانين حولا لا أبالك يسأم

وقوله فى التذييل :

ولست بمستبق أخـــا لا تلمــه		على شعث أى الرجال المهذب

وفى قول طرفة بن العبد محترسا :

فسقى ديـــارك غــير مفســدها		صوب الغمام وديمـــة تهمـــى

وقول حسان مبالغا :

لنا الجفنات الغر يلمعن فى الضحى		وأسيافنا يقطرن من نجدة دمـــا

وقوله فى حسن الاستطراد

إن كنت كاذبة الذى حدثتنـــى		فنجوت منجى الحارث بن هشام

ترك الأحبة أن يقـــاتل دونهـــم		ونجـــا بـــرأس طمـــرة ولجـــام

وقوله فى حسن التخلص :

قولى لطيفك أن يكف عن الحشا		سطوات نيران الهوى ثم اهجرى

وانهى جمالك أن ينال مقـــاتلى		فينال قومك سطوة من معشرى

إنى من القوم الذيـــن جيـــادهم		طلعت علـــى كســرى بريـــح

وفى قول الأعشى موغلا:

كناطح صخرة يـــوم ليوهنهـــا		فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

وقوله مغالياً:

فتى لو ينادى الشمس ألقـــت قناعهـــا

أو القمر السسارى لألقـــى المقـــالدا

وفى قول النابغة الجعدى مغالياً:

بلغنا السماء مجدنـــا وســـناؤنا		وإنا لنرجو فوق ذلك مظهـــراً

وفى قول جرير مطابقاً :

وباسط خير فيكم بيمينه ... وقابض شرعنكم بشماله

وقوله رادا أعجاز على صدره :

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعاً ... أبشر بطول سلامة يا مربع

وقول الفرزدق فى اللف والنشر:

لقد جئت قوماً لو لجأت إليهم ... طريد دم أو حاملاً ثقل مغرم

لألقيت منهم معطيا أو مطاعنا ... وراءك شذراً بالوشيج المقوم

وفى المذهب الكلامى :

لكى امرئ نفسان نفس كريمة ... ونفس يعاصيها الفتى ويطيعها

ونفسك من نفسيك تشفع للندى ... إذا قل من أحرارهن شفيعها

والسؤال الذى يطرح نفسه الآن : هل كان هؤلاء القدماء فى تلك العصور : الجاهلى والإسلامى والأموى ، يعرفون هذه الفنون ، ويقفون على مسمياتها المذكورة؟.

والجواب : لا ، فتلك المصطلحات لم تكن قد وضعت بعد ، وهؤلاء إنما كانوا ينظمون على السليقة العربية وعلى طريقة العرب فى التعبير والقول ، وكانت تلك المسائل التى لا يعرفون مسمياتها ترد فى كلامهم عفو الخاطر وبلا تكلف .

فإذا انتقلنا إلى العصر العباسى وجدنا الإكثار والإسراف فى صور البديع ومسائله، إذ ظهر مجموعة من الشعراء أمثال بشار بن برد وأبى نواس ومسلم بن الوليد وأبى تمام وابن المعتز وغيرهم . وهؤلاء قد أسرفوا فى الصور البديعية وتكلفوا مسائل البيان . إذ نظروا فى الشعر القديم مقلدين ما فيه من فنون بديعية وصور بيانية ومسائل بلاغية ، وأسرفوا فى استخدام هذه الصور معتقدين أن الإبداع فى الإكثار من تلك الفنون ، ها هو ذا بشار يقول : " ما زلت أروى فى بيت امرئ القيس :

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا ... لدى وكرها العناب والحشف البالى

إذ شبه شيئين بشيئين ، حتى صنعت :

كأن مثار النقع فوق رءوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

ويستمع إلى قول كثير :

ألا إنما ليلى عصا خيزرانة إذا غمزوها بالأكف تلين

فيقول : " والله لو جعلها عصا مخ أو عصا زبد ما أحسن ، لقد جعلها جافية خشنة ، ألا قال كما قلت :

ودعجاء المحاجر من معد كأن حديثها ثمر الجنان

إذا قامت لحاجتها تثنت كأن عظامها من خيزران

وكأنه قد أدار المعنى فى نفسه وتأمله ثم صاغه هذه الصياغة الجديدة التى جلته من جفوته وخشونته[1].

ومن الواضح أن عصور الأدب ليست بينها حواجز قوية ، بل يتداخل بعضها فى بعض ، والفنون أو الظواهر الجديدة لا تبرز فى حالة تامة مستوية الجوانب واضحة المعالم، بل توجد موزعة فى أواخر العصر السابق وأوائل العصر اللاحق ، ولذا فإن هؤلاء الشعراء الذين أسرفوا فى البديع وأكثروا من صوره وتكلفوا مسائله فى العصر العباسى ، لم يكونوا على مستوى واحد ودرجة واحدة من حيث الإكثار والإسراف والتكلف والاصطناع ، بل هم متفاوتون ، ونستطيع تقسيمهم إلى أربع فئات أو مدارس ، لكل مدرسة منها طابعها الخاص ورجالها الذين يمثلونها ، فالمدرسة الأولى مدرسة بشار بن برد ومن تلامذتها ابن هرمة والعتابى ومنصور النميرى وأبو نواس : والمدرسة الثانية يمثلها مسلم بن الوليد الذى زاد فى الإسراف وبالغ فى التكلف والمدرسة الثالثة يمثلها أبو تمام الذى حلف لا يصلى حتى يحفظ ديوان مسلم بن الوليد، فبلغت الصور البديعية على يديه

---

(١) انظر الأغانى حـ ١ / ١٥٤ ، ١٩٦.

من التنميق والتأنق والتكلف والتعقيد والمزج بألوان الثقافات الواسعة و الخوض في بحار الفلسفة والمنطلق مبلغاً لم تبلغه على يد شاعر غيره . والمدرسة الرابعة عماداها : البحترى وابن المعتز ، وقد تحلل البديع على أيديهما من تلك الأعباء الثقال التى أرهقه بها أبو تمام وأخذ يرجع إلى عهد الفطرة السلسة العذبة والطبع القويم(١) .

ولن نخوض فى تلك المدارس ، فليس المقام مقام إفاضة وتفصيل ، بل سنكتفى بالنظر فى شعر شاعر من هؤلاء الشعراء لنرى مدى ازدياد وطغيان الصنعة البديعية عن ذى قبل ، وليكن هذا الشاعر بشاراً إذ يقول مطابقاً :

حتام قلبى مشغول بذكركم ... يهذى وقلبك مربوط بنسيانى

لهفى عليها ولهفى من تذكرها ... يدنو تذكرها منى وتنآنى

إنى لمنتظر أقضى الزمان بها ... إن كان أدناه لا يصفو لحران

فلا يخلو بيت من هذه الأبيات الثلاثة من طباق وتلك كثرة لم نشهدها فى الأدب القديم . ومن طباقه أيضاً قوله :

إذا أيقظتك حروب العدى ... فنبه لها عمراً ثم نم

وقوله :

وما نلقاهم إلا صدرنا ... برى منهم وهم حرار

ومن تقسيماته الرائعة :

فراحوا فريق فى الإسار ومثله ... قتيل ومثل لاذ بالبحر هاربه

ومن الرجوع قوله :

نبئت فاضح أمه يغتابنى ... عند الأمير وهل على أمير

ومن التوجيه قوله فى خياط أعور يدعى عمرا :

خاط لى عمرو قباء ... ليت عينيه سواء

(١) انظر الصيغ البديعى ٦٢ وما بعدها

قلــت شــعرا ليــس يــدرى   أمديــــح أم هجــــاء

ومن مبالغاته قوله :

سلبت عظامى لحمها فتركتهــا   عوارى فى أجلادهــا تتكســر
وأخليت منها مخهــا فجعلتهــا   أنابيب فى أجوافها الريح تصفر
خذى بيدى ثم أرفعى الثوب فــانظرى
ضنــى جســدى لكننــى أتســتر
وليس الذى يجرى من العــين ماؤهــا
ولكنهــا نفــس تــذوب فتقطــر

ومن جناسه قوله :

وقد كانت بتدمر خيــل قيــس   فكــان لتدمــر منهــا دمــار

وقوله وقد جمع فيه بين الجناس والمقابلة :

ربما ســرك البعيــد وأصــلاك   القريب النسيب نــاراً وعــاراً

ولا يخفى عليكم ازدياد الصور البديعية فيما عرضنا من شعره كما لا يخفى قصده إلى تلك الصور وعمده إليها ، وقد صرح هو بذلك إذا كان يروى نفسه فى كلام القدماء حتى يصنع نحوه ويأتى بمثل ما فيه من صور.

وما من ريب فى أن ظهور الثقافات الأجنبية كالهندية واليونانية والفارسية كان له أثر كبير فى إكثار الشعراء وإسرافهم وتكلفهم فنون البديع ومسائله ، إذا أقبل بعض الشعراء كأبى تمام على تلك الثقافات ونهلوا منها وأغرموا بما فيها من عمق الفلسفه والمنطق ، وقد أدى بهم هذا إلى الغموض والتعقيد ، والبعد فى صورهم وأخيلتهم على نحو ما نرى فى قول أبى تمام :

لآلىء كالنجوم الزهــر قــد ليســت
أبشارها صدف الإحصان لا الصدفــا

إذا جعل للطهر والعفاف صدفا ... وفى قوله معللا :

لا تنكـــرى منـــه تخديـــدا تجللـــــه

فالسيف لا يزرى إن كان ذا شـــطب .

فقد نزع إلى تحسين القبيح بقياسه على أمر مستحسن محمود إذ يقول لصاحبته لا تصدى عنه لما بوجهة من تحديد فالسيف يروق ويعجب إذا كان ذا شطب باديـــة علـــى صفحته .

وفى قوله مبالغا فى ضياء المحبوبة :

بيضاء تسرى فى الظلام فيكتسى نوراً وتسرب فى الضياء فيظلم

فاعجب لهذا الضياء الذى يبدد الظلام والضياء معاً . إلى آخر ما نجده فى شـــعره من تعقيد وغموض وبعد فى الخيال والصور مما جعل البحترى ينفر من أثر الفلسفة والمنطق على الشعر إذ يقول :

كلفتمونـــا حـــدود منطقكـــم والشعر يغنى عن صدقه كذبـــه

و لم يكن ذو القروح يلهج بالـــ منطق ما نوعـــه ومـــا ســـببه

والشعر لمـــح تكفـــى إشـــارته وليس بالهذر طولـــت خطبـــه

***

وقد نظر الجاحظ إلى كثرة صور البديع وفنونه فى هذا العصر فجعله مقصـــوراً على العرب ، إذ يقول " والبديع مقصور على العرب ومن أجله فاقت لغتهم كـــل لغـــة وأربت على كل لسان "(١) ، وهو لا يعنى أن اللغات الأخرى تخلو من البديع وإنما أراد أن

---

(١) البيان والتبيين ٤/٥٥.

البديع قد كثر فى عصره فى اللغة العربية كثرة جعلت ما عداه مما يوجد فى اللغات الأخرى لا يعد شيئاً[1].

كما نظر البعض إلى تلك الكثرة فعدوا البديع وليد هذا العصر ، مما جعل ابن المعتز يتصدى لهؤلاء مؤلفا كتابه : " البديع " ، مثبتاً فيه بالشواهد والبراهين أن البديع قديم وموجود فى القرآن والحديث وفى الشعر الجاهلى والإسلامى ، وليس وليد هذا العصر كما يزعمون[2].

***

متى بدأت الكتابة فى مسائل البلاغة ؟

البديع أو البلاغة أو البيان أو الفصاحة ، كلها مترادفات تعنى شيئاً واحداً ، إذا لم تقسم مسائل البلاغة إلى علومها الثلاثة - كما ذكرت - إلا فى عصر السكاكى: ت ٦٢٦ هـ ، وقد بدأت الكتابة فى تلك المسائل منذ بدأ التأليف فى علوم العربية ومسائلها ، ولكن الإشارة إليها والحديث عنها قد بدأ قبل ذلك بزمن طويل ، ولا نبعد إذا قلنا إن الحديث عن البلاغة والإشارة إلى فنونها ومسائلها قد بدأ منذ العصر الجاهلى ، وكانت آنذاك فى صورة ملاحظات نقدية أو توجيهات تعليمية إرشادية ، فنحن نعلم ما كان للعرب فى الجاهلية من أسواق أدبية كسوق عكاظ بجوار مكة ، وكانوا يجتمعون فى تلك الأسواق فيتناشدون الشعر ، ويتبارون بإبراز نتاجهم الأدبى ، ومما يروى أن النابغة الذبيانى كانت تضرب له قبة فى سوق عكاظ ويأتى الشعراء الناشئون فينشدون شعرهم ويحتكمون إليه ، فمن نوه به طارت شهرته فى الآفاق ، وكان فى أثناء ذلك يبدى ملاحظاته على معانى الشعراء وأساليبهم، ويقال إنه فضل الأعشى على حسان بن ثابت

(١) انظر البلاغة تطور وتاريخ ٥٦.

(٢) انظر البديع ١،٤ .

وفضل الخنساء على بنات ، جنسها ، فغضب حسان وثار عليه وقال له ، أنا والله أشعر منك ومنها ، فقال له النابغة حيث تقول ماذا ؟ قال : حيث أقول :

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما
ولدنا بنى العنقاء وَابْنَىْ مُحَرِّقٍ فأكرم بنا خالا وأكرم بنا إينما

فقال له النابغة : إنك لشاعر لولا أنك قللت عدد جفانك فقلت : الجفنات ولو قلت الجفان لكان أكثر وقلت : يلمعن بالضحى ولو قلت : يبرقن بالدجى لكان أبلغ فى المديح لآن الضيف أكثر طروقا بالليل ، وقلت يقطرن من نجدة دما فدللت على قلة القتل ولو قلت يجرين لكان أكثر لا نصباب الدم ، وفخرت بمن ولدت و لم تفخر بمن ولدك . فقام حسان منكسراً منقطعاً(١) .

فالنابغة قد لاحظ أن حسانا لم يراع مقتضى حال المديح والفخر فتلك الحال تقتضى المبالغة والفخر بمآثر الآباء قبل الأبناء وحسان قد تخلى عنهما . وعلى الرغم من أن البعض قد شكك فى هذه الرواية ، والبعض قد دفع ملاحظة النابغة دفاعا مقبولا(٢). إلا أنها توضح لنا أن الجاهليين كانوا يراجعون بعضهم بعضا ، وإن تنافسوا على السيادة والتقدم فالحكم هو النتاج الشعرى وليس أدل على ذلك من أن الشاعر منهم كان يعكف على قصيدته يهذب وينقح ويصقل ولا يخرجها للناس إلا بعد تثقيف طويل حتى سمى هذا بالمثقب وذا بالمنتخل وذلك بالمنخل والمهلهل والمرقش . ونحن نعلم مدرسة عبيد الشعر التى كان يتزعمها زهير بن أبى سلمى ، تلك المدرسة التى كان شعراؤها يطيلون الوقوف أمام قصائدهم ، إذ كان الواحد منهم يقف أمام قصيدته حولا كاملاً يهذب فيها وينقح

(١) انظر الأغانى ٩/٣٤٠.

(٢) انظر نقد الشعر والأغانى ٩/٣٤٠.

ولا يذيعها إلا بعد أن يكون قد رضى عنها وتأمل كل بيت من أبياتها ، وقد سميت تلك القصائد بالحوليات والمنقحات والمذهبات والمحكمات[1].

فإذا انتقلنا إلى العصر الإسلامى وجدنا أن القرآن الكريم كان له أثر كبير في تنمية الذوق وتهذيب النفوس، فها هو ذا النبى صلى الله عليه وسلم يوصى بأن يتخير السلم الكلمة الملائمة : " لا يقولن أحدكم خبثت نفسى ولكن ليقل : لقست نفسى". وذلك كراهية أن يضيف المسلم الخبث إلى نفسه . وهذا هو أبو بكر يمر على رجل معه ثوب فيقول له : أتبيع هذا الثوب؟ فأجابه : لا ، عافاك الله ، فيتأذى أبو بكر ويقول للرجل : " قل لا وعافاك الله " ، وتلك إشارة إلى باب من أهم أبواب البلاغة ، باب الفصل والوصل . وذاك هو عمر يعجب بشعر زهير ويقول : " زهير أشعر الناس " ثم يعلل هذا الحكم : " لأنه لا يتبع حوشى الكلام ، ولا يعاظل فى المنطق ولا يمدح الرجل إلا بما فيه ، ولا يقول مالا يعرف [2].

وتزداد هذه الملاحظات البلاغية فى العصر الأموى. إذا تراهم يحاولون تحديد مفهوم البلاغة ، فقد سأل معاوية صحار العبدى وقد راعه بخطابته : " ما تعدون البلاغة فيكم ؟ قال : البلاغة الإيجاز . فقال معاوية : وما الإيجاز ؟ قال صحار : أن تجيب فلا تبطىء وتقول فلا تخطىء "[3] . كما نراهم يشيرون إلى جودة الابتداء وجودة القطع ويفضلوا الشاعر أو الخطيب الذى يجيد الابتداء ويحسن التخلص والانتقال[4].

وقد قام سوق المربد فى البصرة وسوق الكناسة فى الكوفة مقام سوق عكاظ فى الجاهلية، ودعا الشعراء إلى الابتعاد عن الألفاظ الغريبة وإلى تخير الألفاظ الملائمة التى تتسق

(١) البيان والتبيين ١٣/٢.

(٢) انظر البيان والتبيين ١٥١/١.

(٣) انظر البيان والتبيين ٦٩/١.

(٤) انظر البيان والتبيين ١٢٢/١ .

مع السياق ، كما نبهوا إلى ضرورة مراعاة التناظر بين الكلمات وألا يباعد الشاعر في القول وإلى أن تكون الأبيات ملتحمة متقارنة .

هذا هو جرير يستمع إلى قول عمر بن لجأ في وصف إبله :

قد وَرَدتْ قبل إنى صحائها وتَفَرِس الحيات في خِرشَائها

جر العجوز الثِّنْيَ من ردائها[1]

فيقول له : كان أولى بك أن تقول : جر العروس ، لاجر العجوز التي تتساقط خوراً وضعفا[2] فقد لاحظ جرير أن كلمة " العجوز" نابية قلقة في سياقها . ويستمع أحد الشعراء إلى قول الأخطل في مدح أحد سادة بني ربيعة :

قد كنت أحسبه قَيْناً وأُخبِرُهُ فاليوم طُيِّرَ عن أثوابه الشَّرَرُ[3]

فيقول : " ظنه قيناً وهو سيد نابه "[4] فقد لاحظ هذا الشاعر وهو ضوء بن اللجلاج أن كلمة " قيناً " في بيت الأخطل : لا تلائم المقام ولا تناسب المدح بالكرم والسيادة . ويروى أن النصيب والكميت وذا الرمة قد اجتمعوا فأنشد الكميت قصيدته " هل أنت عن طلب الأيفاع منقلب ، حتى إذا بلغ منها قوله :

أم هل ظعائن بالعلياء يافعة وإن تكامل فيها الأنس والشنب[5]

عقد نصيب عقدة فقال له الكميت : ماذا تحصى ؟ قال : خطأك باعدت في القول ما الأنس من الشنب ألا قلت كما قال ذو الرمة :

لمياء في شفتيها حُوة لَعَسٌ وفي اللثات وفي أسنانها شنب[6]

---

(١) إنى: وقت. وضحاء الإبل: مرعاها في الضحى- وتفرس: تدق وتحطم والخرشاء: جلد الحيات .

(٢) انظر الأغاني ٨/٧٠.

(٣) القين : العبد

(٤) انظر الصناعتين ٨٦ .

(٥) الظعائن : مفردها ظعينة وتطلق على المرأة في الهودج . والشنب : ماء ورقة وعذوبة في الأسنان.

(٦) لمياء : اللمى سمرة في الشفة . والحوة : حمرة في الشفتين تضرب إلى السواد واللمس : سواد : سواد مستحب في الشفة .

فانكسر الكميت[1] وهذه الملاحظة التى لاحظها نصيب هى ما أطلق عليه البلاغيون فيما بعد اسم : مراعاة النظير .

وقال عمر بن لجأ لأحد الشعراء : أنا أشعر منك ، قال : وبم ذاك ؟

فأجاب : لأنى أقول البيت وأخاه وأنت تقول البيت وابن عمه ، وقال شخص لرؤبة بن العجاج: رأيت اليوم ابنك عقبة ينشد شعرا له أعجبنى قال رؤبة : نعم إنه يقول ولكن ليس لشعره قران[2] . فعمر ورؤبة ينبهان إلى ضرورة إتحاد أجزاء القصيدة وتلاحم أبياتها وهو ما عرف فيما بعد باسم وحدة السياق أو الوحدة العضوية للقصيدة .

وتكثر هذه الملاحظات فى العصر العباسى بين الكتاب والشعراء فهذا هو ابن المقفع " ت ١٤٢ هـ " أحد كتاب الدواوين وهو فارسى الأصل ترجم عن الفارسية إلى العربية كتبا كثيرة تاريخية وسياسية وأدبية منها كتاب " كليلة ودمنة " ، يقول وقد سئل عن البلاغة : " البلاغة اسم جامع لمعان تجرى فى وجوه كثيرة فمنها ما يكون فى السكوت ومنها ما يكون فى الاستماع ومنها ما يكون فى الإشارة ومنها ما يكون فى الاحتجاج ومنها ما يكون جوابا ومنها ما يكون شعراً ومنها ما يكون سجعا وخطبا ومنها ما يكون رسائل ؛ فعامة ما يكون من هذه الأبواب الوحى فيها والإشارة إلى المعنى والإيجاز هو البلاغة ، فأما الخطب بين السماطين وفى إصلاح ذات البين فالإكثار فى غير خطل والإطالة فى غير إملال . وليكن فى صدر كلامك دليل على حاجتك ، كما أن خير أبيات الشعر البيت الذى إذا سمعت صدره عرفت قافيته "[3].

---

(١) الأغانى ٣٤٨/١.

(٢) انظر البيان والتبيين ٢٠٥/١.

(٣) البيان والتبيين ١١٥/١.

ففى هذا القول تحديد واضح لمفهوم البلاغة ومنه استمد البلاغيــون المتــأخرون تعريفهم للبلاغة بأنها : " مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته[1]. فللإيجاز مواضــع وللإطناب مواضع وما يصلح لهذا لا يصلح لذاك ، لكل مقام مقال.

كما أن فيه إشارة إلى ما سمى فيما بعد " براعة الاستهلال " " ليكن فى صــدر كلامك دليل على حاجتك " . وإشارة أخرى إلى ما عرف باسم " رد الأعجــاز علــى الصدور " . " خير أبيات الشعر البيت الذى إذا سمعت صدره عرفت قافيته " .

وفى هذا العصر - كما نعلم - بدأ التأليف ونشط فى مختلف العلــوم العربيــة. وسجلت الملاحظات والمسائل البلاغية فى تلك المؤلفات . وهى إما لمؤلفيها وإما محكيــة ومنقولة عن غيرهم فتعالوا ننظر فى هذه المؤلفات لنرى كيف بدأت فيها أسس المســائل والفنون البلاغية ثم نمت وتطورت حتى صارت إلى ما هى عليه الآن .

سيبويه " ت ١٨٠هـــ " : تحدث سيبويه فى الكتاب عــن بعــض خصــائص التراكيب وأوجه الدقة فى استعمال الألفاظ مثل : التقديم والتأخير والتعريــف والتنكــير والحذف ، وعن معانى بعض الأدوات مثل أدوات الاستفهام وأدوات الشرط وذا ما تناوله البلاغيون فيما بعد فى علم المعانى . يقول مثلا عن سر بلاغة التقديم عند جواز تقديــم المفعول على الفاعل: " كأنهم إنما يقدمون الذى بيانه أهم لهم وهم ببيانه أعنى ، وإن كانا جميعا يهمانهم ويعنيانهم"[2].

ويتحدث عن همزة الاستفهام فيذكر أن قولك : أزيدا لقيت أم عمراً؟ تقديــم الإسم فيه أحسن وأفضل ، ولو قلت ألقيت زيداً أم عمراً؟ لكان جائزاً حسناً [3] . ومــا أجازه سيبويه وعده حسناً رفضه عبد القاهر والبلاغيون بعده حيث أوجبوا إيلاء المستفهم عنــه الهمزة إذا كانت للتصــور فلا يجوز عندهم فى المثــال المذكور إلا : " أزيداً لقيت

(١) الإيضاح ٢٦/١.
(٢) الكتاب ١٥/١.
(٣) انظر الكتاب ١٦٧/٣.

أم عمراً ؟ . وهو ما جعله سيبويه أحسن وأفضل[1]. وقد ذكر صاحب دلالات التراكيب وجهاً حسنا فى التوفيق بين الرأيين فارجع إليه[2].

ويشير إلى المجاز العقلى عند حديثه عن بيت الخنساء:

ترتع ما غفلت حتى إذا ادكرت   فإنما هى إقبال وإدبار

فيقول : " جعلتها الإقبال والإدبار مجازاً على سعة الكلام "[3] كما يتحدث عن التشبيه ويورد أمثلة له نحو قولك : مررت برجل مثل الأسد ، إذا كنت تشبهه[4]. إلى غير ذلك من الإشارات البلاغية التى تجدها متناثرة هنا وهنالك والتى تحتاج من دراسى البلاغة إلى تتبعها واستخلاصها.

الفراء " ت ٢٠٧ هـ" ويتحدث الفراء فى كتابه معانى القرآن عن مسائل بلاغية مختلفة كالتقديم والإيجاز والإطناب والمعانى التى تفيدها بعض الأدوات كأدوات الاستفهام ، والتشبيه والاستعارة والكناية ، وهى إشارات موجزة يدركها المتأمل فى كتابه معانى القرآن . نراه مثلا يشير إلى الكناية فى الآية الكريمة : ﴿وَلَكِن لاَّ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾[5] فيقول : " السر فى هذا الموضع : النكاح ثم يرويه عن ابن عباس رضى الله عنه وينشد لامرئ القيس :

ألا زعمت بسباسة اليوم أننى   كبرت وألا يشهد السر أمثالى[6]

ويتحدث عن الاستعارة فى قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾[7] فيقول : " بطريق لهم يمرون عليها فى أسفارهم فجعل الطريق إماماً لأنه يؤم ويتبع"[8].

---

(١) انظر دلائل الإعجاز ١٤١.

(٢) ارجع إلى دلالات التراكيب ٢١٩ للدكتور محمد أبو موسى.

(٣) الكتاب ١٦٩/١.

(٤) انظر الكتاب ٢٣١/١.

(٥) سورة البقرة أية ٢٣٥.

(٦) معانى القرآن ١٥٣/١.

(٧) سورة الحجر آية ٧٩.

(٨) معانى القرآن ٩١/٢.

ويتحدث عن إفادة الاستفهام لغير طلب الفهم فى الآية الكريمة : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ﴾(١) . فيقول : " وقوله " كيف تكفرون ..." على وجه التعجب والتوبيخ لا على الاستفهام المحض أى : ويحكم كيف تكفرون؟"(٢).

وهذه إشارة دقيقة لو تنبه لها البلاغيون المتأخرون ما تعبوا وأتعبوا ، فقد قالوا : إن إفادة الاستفهام لمعانية البلاغية عن طريق المجاز ثم راحوا يلتمسون العلاقات بين طلب الفهم وبين المعانى البلاغية كالإنكار والتعجب والتهكم والوعيد والتقرير . وقد تعبوا كثيراً فى الوصول إلى علاقات مناسبة لا تسمن ولا تغنى ، ولا تفيد الدارس شيئاً ، وكانوا فى غنى عن هذا التعب لو أنهم تنبهوا لإشارة الفراء إلى أن تلك المعانى دخلت الاستفهام وشابته فأفادها بالإضافة إلى إفادة طلب الفهم، وصار بإفادته إياها استفهاماً غير محض.

<u>أبو عبيدة " ت ٢٠٨هـ "</u> ألف أبو عبيدة كتابه " مجاز القرآن " بسبب مسألة تتعلق بالتشبيه إذ سأله سائل فى مجلس الفضل بن الربيع عن التشبيه فى قوله تعالى : ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينَ﴾(٣) ، فقال : إنما يقع الوعد والإيعاد بما قد عرف مثله وهذا لم يعرف ، فأجاب أبو عبيدة : إنما كلم الله تعالى العرب على قدر كلامهم ، أما سمعت قول امرىء القيس :

أيقتلنى والمشرفى مضاجعى ... ومسنونة زرق كأنياب أغوال

---

(١) سورة البقرة آية ٢٨.

(٢) معانى القرآن ١/٢٣.

(٣) سورة الصافات الآية ٦٥.

وهم لم يروا الغول قط ، ولكنهم لما كان أمر الغول يهولهم أوعدوا به[1]، والمجاز عند أبى عبيدة لا يراد به المجاز الاصطلاحى المقابل للحقيقة ، وإنما يراد به المعنى اللغوى لكلمة " مجاز " فهى مصدر ميمى أو اسم مكان من جاز يقال : جاز الطريق وجاز مجازا إذا عبر . فالمراد إذاً بمجاز القرآن : التفسير وبيان الطرق التى يسلكها القرآن فى التعبير عن المعانى . وقد أشار أبو عبيدة إلى هذا المراد حيث يقول فى الآية الكريمة : ﴿ إن علينا جَمْعَهُ وقُرْآنَهُ﴾[2] : مجازه تأليف بعضه إلى بعض ، ثم قال : ﴿ فإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ مجازه . فإذا ألفنا منه شيئاً فضممناه إليك فخذ به واعمل به وضمه إليك"[3]. وفى أثناء تفسيره للآيات الكريمة تحدث عما فيها من استعارة وتشبيه وكناية وتقديم وتأخير وحذف وتكرار ، كما أشار إلى الصورة العامة للالتفات وإن لم يسمه بهذه التسمية إذ يقول : " ومن مجاز ما جاءت مخاطبته مخاطبة الشاهد ثم تركت وحولت مخاطبته هذه إلى مخاطبة الغائب قوله تعالى : ﴿ حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم﴾[4] أى : بكم "[5]

الأصمعى " ت ٢١١ هـ " : لم يترك الأصمعى كتابا فى صيغ التعبير القرآنى كالفراء وأبى عبيدة ، ولكن من جاءوا بعده كابن المعتز وابن رشيق وأبى هلال وقدامة نقلوا آراءه وإشاراته البلاغية ، فقد تحدث عن الجناس ويقال إنه ألف فيه كتابا وتحدث عن المطابقة وعن صورة أخرى للالتفات غير الصورة التى ذكرها أبو عبيدة . كما تحدث عن الإيغال وعن المبالغة .

يقول ابن المعتز : التجنيس هو أن تجئ الكلمة تجانس أخرى فى بيت شعر وكلام ومجانستها لها أن تشبهها فى تأليف حروفها على السبيل التى ألف الأصمعى كتاب

---

(١) نزهة الألباء ٧٠.

(٢) سورة القيامة الآية ١٧.

(٣) مجاز القرآن ١١.

(٤) سورة يونس الآية ٢٢.

(٥) مجاز القرآن١١.

الأجناس عليها "[1] . ويقول ابن رشيق : " ذكر الأصمعى المطابقة فى الشعر فقال : أصلها وضع الرجل فى موضع اليد فى مشى ذوات الأربع ، ثم قال : أحسن بيت قيل لزهير فى ذلك :

ليث بعثر يصطاد الرجال إذا

ما الليث كذب عن أقرانه صدقا[2]

وتحدث الأصمعى عن الالتفات وهو أول من وضع له هذه التسمية وقد أضاف له صورة أخرى غير التى ذكرها أبو عبيدة وهى أن يفرغ المتكلم من المعنى ونظن أنه سيتجاوزه إلى غيره فإذا به يلتفت إليه فيذكره بغير ما تقدم ذكره .

يقول أبو هلال : " سأل الأصمعى بعض من كان يتحدث إليهم أتعرف التفاتات جرير ؟ فقال له . فما هى ؟ قال :

أتنسى إذا تودعنا سليمى   بعود بشامة سقى البشام

ألا تراه مقبلا على شعره ثم التفت إلى البشام فدعا له وقوله :

طرب الحمام بذى الأراك   لازلت فى غلل وأيك ناضر

فالتفت إلى الحمام فدعا له.. [3] كما أشار الأصمعى إلى الإيغال وعرفه بأنه : أن ينقضى كلام الشاعر قبل القافية فإذا احتاج إليها أفاد بها معنى

---

(١) كتاب البديع ٢٥. .

(٢) العدمة ٢/٧.

(٣) الصناعتين ٣٩٢ والبشام : شجر لاثمر له وذو الأراك : موضع والغلل : الماء على سطح الحدائق : والأيك : الشجرة الملتف .

كقول ذى الرمة :

قف العيس فى أطـــلال ميـــة فاســـأل

رسوما كأخلاق الـــرداء المسلســـل[1]

فتم كلامه بالرداء ثم أفاد بالمسلسل شيئاً جديداً.

وكقول الأعشى :

كناطح صخرة يومـــا ليفلقهـــا فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل[2]

فتم كلامه بيضرها فلما احتاج إلى القافية قال : وأوهى قرنه الوعل ، فزاد معنى[3].

صحيفة بشر بن المعتمر " ت ٢١٠ هـ " وصحيفة بشر من الأصول البلاغيـــة المهمة التى أفاد منها الدارسون كثيراً إذا ألهمتهم كثيرا من الأفكار والقضايا وقد رواهـــا الجاحظ فى كتابة " البيان والتبيين " وإليك خلاصة ما تضمنته هذه الصحيفة من أفكار.

١- يوصى بشر فى أول صحيفته الأديب أن يقبل على عمله فى وقت نشـــاطه وعندما يكون مستعدا لهذا العمل فارغ البال مما سواه وألا يخوض فى أدبه عندما يكـــون مجهداً متعباً .

٢- ينبغى للأديب سواء أكان خطيبا أم كاتباً أم شاعراً أن يبتعد عن التعقيد وعن الألفاظ الغريبة الوعرة وأن يتخير الألفاظ الملائمة للمعنى الذى ينشده .

٣- المعنى الشريف الكريم يلائمه اللفظ الشريف فينبغى للأديب أن يصون معانيه وألفاظه عما يفسدهما ويهجنهما.

---

(١) الرداء الأخلاق والخلق : اللبالى . والمسلسل : الردئ النسج .

(٢) أو هى : أضعف .

(٣) انظر الصناعتين ٢٨٠.

٤- ينبغى للأديب أن يلائم ويوازن ويراعى المقامات والأحوال ؛ مقامات الكلام وأقدار المعانى وأحوال المستمعين ، فإن كان من المتكلمين ويخاطب غيرهم تجنب ألفاظ المتكلمين ، وإن خاطب المتكلمين كان الأولى والأجدر استعمال ألفاظهم ومصطلحاتهم إذا هم على فهمها اقدر وإليها أميل وبها أشغف ، فعلى الأديب إذًا أن يلائم بين الألفاظ والمعانى وأحوال المستعمين الذين يوجه إليهم الحديث.

٥- ثم يضع بشر الأديب فى منزلة من منازل ثلاث :

أولاها : منزلة البليغ التام وهو الذى يقدر على أن يصوغ معانيه فى ألفاظ رشيقة عذبة وسهلة فخمة وأن تكون معانيه ظاهرة واضحة وقريبة معروفة ، وأن يمكنه إفهام العامة معانى الخاصة بأن يكسوها الألفاظ الواسطة التى لا تلطف عن الدهماء ولا تجفو عن الأكفاء فالمعنى لا يشرف بأن يكون من معانى الخاصة ، ولا يتضع بأن يكون من معانى العامة ، وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال.

ثانيتها : منزلة من لا تسعفهم طبائعهم بالألفاظ الملائمة والقوافى الجيدة المتمكنة بل يجدون فى ذلك عسرا وصعوبة ، ومثل هؤلاء يحسن أن يتأنوا، لأن طبائعهم لا تسمح لهم بالكلام الجيد لأول وهلة ؛ فعليهم أن يتركوا العمل إذا تأبى عليهم سواد الليل وبياض النهار ثم يعاودوه عند نشاطهم واستعدادهم واكتمال تهيؤهم ، فإن كان لهم فى الأدب طبيعة ومنزع فسيواتيهم عندئذ وإن لم يكن غزيرا.

ثالثتها : منزلة من شحت طبائعهم وقضبت ينابيع القول فى نفوسهم ، فهم مهما تأنوا وتهيأوا ونشطوا وخلصوا أنفسهم من أى شاغل آخر، لا يقعون من الأدب إلا على المستكره المرذول أو لعلهم لا يقعون على شئ منه أبدا وهؤلاء حرى بهم أن يهجروا صناعة الأدب إلى صناعة أخرى تشاكلهم وتناسبهم.

تلك خلاصة ما عرضه بشر في صحيفته من آراء وأفكار ونصائح وما من ريب في أن النقاد والبلاغيين قد أفادوا كثيرا مما جاء في هذه الصحيفة ... (١)

الجاحظ " ت ٢٥٥هـ " يعد الجاحظ من الأعلام الذين أسهموا بنصيب وافر في إرساء دعائم الفنون البلاغية ، فلقد أشار في كتاباته إلى كثير من الأسس البلاغية التي أثرت البحث البلاغي ، وألهمت الدارسين الكثير من الآراء والأفكار .

والناظر في كتابات الجاحظ في " البيان والتبيين " أو " الحيوان " أو "البخلاء" أو في " رسائله " . يقف على أسلوبه المتميز بكثرة الاستطراد والخروج من فكرة إلى أخرى ثم العود بعد زمن طويل إلى الفكرة الأولى ، ولعله يهدف بهذا إلى دفع الملل عن السامع أو القارئ ، كما أن الأسس البلاغية التي يعرض لها تراها متناثرة في كتاباته ، والفكرة الواحدة تراه يعرضها في عدة مواضع ، مما يتطلب من الدراس أن يبذل الكثير من الجهد في تتبعه واستقصاء كتاباته حتى يقف على هذه الأسس ويلم بتلك الفكر.

ما أهم الأسس البلاغية التي تحدث عنها الجاحظ؟

عرض الجاحظ لملاءمة اللفظ للمعنى ، وملاءمة الكلام للمقام ولأحوال المستمعين " وقد مرت بنا صحيفة بشر التي ذكرها ، كما عرض الجاحظ للنظم وأشار إلى كتاب له في " نظم القرآن " ولكنه لم يصل إلينا . وقد رجع الجاحظ إعجاز القرآن الكريم إلى نظمه البديع الذي لا يقدر على مثله العباد(٢) ويخطئ كثير من الدارسين عندما يقرون أن الجاحظ قدم اللفظ على المعنى مستندين إلى عبارته : "المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي ، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء وفي صحة الطبع وجودة السبك وإنما الشعر صياغة وضرب من

---

(١) ارجع إلى نص الصحيفة في البيان والتبيين ١/١٣٥.

(٢) انظر الحيوان ٤/٩٤.

التصوير ... [1] وبتأمل هذه العبارة لا نجد تقديماً للفظ على المعنى وإنما المقدم هو النظم : أى اللفظ المسبوك ، المقام فى وزن ، المصاغ فى شعر ، الذى صور به معنى ، " إقامة الوزن .. جودة السبك .. الشعر صياغة وضرب من التصوير " . أما اللفظ المجرد الذى لم يوضع فى نظم فلا مزية له ، ويقوى هذا الزعم قول الجاحظ فى موضع آخر : " ثم اعلم - حفظك الله - أن حكم المعانى خلاف حكم الألفاظ لأن المعانى مبسوطة إلى غير غاية وممتدة إلى غير نهاية وأسماء المعانى مقصورة معدودة ومحصلة محدودة[2] فهو هنا يقدم المعانى لأنها مبسوطة ممتدة ويؤخر الألفاظ لأنها معدودة محددة ولكن ما المعانى المقدمة هنا ؟ إنها المعانى المركبة . إنها الصياغة والتصوير والسبك ، وليس المراد بها المعانى العامة واللفظ المؤخر هنا هو اللفظ المجرد ، لأنه هو المحدود المعدود أما الألفاظ المنظومة المركبة فهى ممتدة لا نهاية لها . المزية إذا مرجعها عند الحاجظ إلى النظم ، وسوف نرى نمو نظرية النظم هذه عند القاضى عبد الجبار ثم ازدياد نموها عند الإمام عبد القاهر الذى فصلها وحلل شواهدها .

ومما عرض له الجاحظ أيضاً من أسس وقضايا بلاغية : الإيجاز والإطناب والمساواة ، فتحدث عن التكرار فى الوعظ والقصص القرآنى ، وبين أن لكل من الإيجاز والإطناب مقام يقتضيه وأن المعتد به فى الإيجاز ليس مجرد قصر الألفاظ وقلة كمياتها ، وإنما هو مساواتها الدقيقة للمعانى دون زيادة فقد يمتد الكلام صفحات ويسمى موجزاً[3] .

وتحدث عن التعقيد المخل بالفصاحة وعن تنافر الحروف وتنافر الكلمات وأطال الوقوف أمام بعض الشعر الذى اشتد فيه التنافر بين ألفاظه[4].

---

(١) الحيوان ٣/١٣١ .

(٢) البيان والتبيين ١/٧٦.

(٣) انظر البيان والتبيين ١/١٠٥.

(٤) انظر البيان والتبيين ١/٦٥.

وتكلم عن السجع وعقد له بابا سماه " باب من الأسجاع فى الكلام " ، وعن الازدواج والاقتباس من القرآن الكريم ونوه بالتقسيم وجودته وعلل به استحسان عمر رضى الله عنه لقول زهير :

وإن الحق مقطعه ثلاث ... يمين أو نفار أو جلاء

واستحسانه لقول عبدة بن الطبيب :

والمرء ساع لشئ ليس يدركه ... والعيش شح وإشفاق وتأميل

فقد ردد عمر رضى الله عنه البيتين عند سماعهما متعجبا من حسن ما قسم وفصل.. [1]

وتكلم عن حسن الابتداء وحسن التخلص والانتهاء فقال : " وحدثنى صالح ابن خاقان قال : قال شبيب بن شبيبة : الناس موكلون بتفضيل جودة الابتداء وبمدح صاحبه وأنا موكل بتفضيل جودة القطع وبمدح صاحبة "[2].

وتحدث عن الإرصاد وهو ما يعرف بالتسهيم أو التوشيح وإن لم يسمه بهذا الاسم بل جعله من صفات البلاغة التى تكسب الكلام حسنا وجمالا ، حيث يقول : " لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ، ولفظة معناه فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك "[3].

وتكلم عن أسلوب الحكيم وسماه باسم اللغز فى الجواب وعرض له عدة شواهد [4] . كما تحدث عن المذهب الكلامى ويذكر ابن المعتز أن الجاحظ هو الذى سماه بهذا الاسم ، والمراد به عند الجاحظ وكذلك عند ابن المعتز: طريقة المتكلمين العقلية فى

---

(١) انظر البيان والتبيين ١/٢٤٠.

(٢) البيان والتبيين ١/١١٢.

(٣) البيان والتبيين ٢/١١٥.

(٤) انظر البيان والتبيين ٢/١٤٧.

إقامة الحجج وإبراز الأدلة والجدل .. يقول الجاحظ " لولا استعمال المعرفة لما كان للمعرفة معنى ، كما أنه لولا الاستدلال بالأدلة لما كان لوضع الدلالة معنى ... وللعقل فى خلال ذلك مجال ، وللرأى تقلب ، وتنشأ للخواطر أسباب ، ويتهيأ لصواب الرأى أبواب "(١) .

ويعد الجاحظ أول من أشار إلى مسألة السرقات الشعرية التى شغل بها كثير من النقاد والبلاغيين – على أن المسألة فى رأيى لا تعدو أن تكون تأثرا وتأثيرا(٢).

يقول الجاحظ . " لا يعلم فى الأرض شاعر تقدم فى تشبيه مصيب تام وفى معنى غريب عجيب أو فى معنى شريف كريم أو فى بديع مخترع إلا وكل من جاء بعده من الشعراء أو معه إن هو لم يعد على لفظه فيسرق بعضه أو يدعيه بأسره فإنه لا يدع أن يستعين بالمعنى ويجعل نفسه شريكا فيه كالمعنى الذى تتنازعه الشعراء فتختلف فيه ألفاظهم وأعاريض أشعارهم ولا يكون أحدمنهم أحق بذلك المعنى من صاحبه أو لعله أن يجحد أنه سمع بذلك المعنى قط وقال إنه : خطر على بالى من غير سماع كما خطر على بال الأول "(٣) .

وأشار إلى الاحتراس فى بيت طرفة بن العبد.

فسقى ديارك – غير مفسدها-   صوب الغمام وديمة تهمى

وسماه : إصابة المقدار ، حيث طلب الغيث على قدر الحاجة لأن الفاضل ضار ... " (٤)

وتحدث عن الاستعارة فى قول الشاعر :

يا دار قد غيرها بلاها   كأنما بقلم محاها

---

(١) الحيوان ١/١١٥.

(٢) ارجع إلى السرقات الشعرية فى القسم الثانى.

(٣) الحيوان ٣/٣١١.

(٤) انظر البيان والتبيين ١/٢٢٨.

أخربهـا عمـران مـن بناهـا وكر ممسـاها علـى مغناهـا

وطفقـت سـحابة تغشـاها تبكي على عراصهـا عيناهـا

إذ يقول : " ممساها يعنى مساءها " ومغناها : موضعها الذى أقيم فيه ، والمغانى المنازل التى كان بها أهلوها ، وطفقت : ظلت تبكى ، على عراصها عيناها، وعيناهـا ههنا للسحاب وجعل المطر بكاء من السحاب على طريق الاستعارة وتسمية الشئ باسم غيره إذا قام مقامه .. "[1].

ونراه فى أكثر من موضع يتحدث عن التشبيه وعن الكناية والتعريض وعن المجاز بمعناه الاصطلاحى المقابل للحقيقة ولكنه لم يحدد أنواعه فقد أطلقـه علـى الاسـتعارة بأنواعها وعلى المجاز المرسل .

فمن حديثه عن الكناية قوله : " إذا قالوا فلان مقتصد فتلك كناية عن البخـل، وإذا قيل للعامل مستقص فذلك كناية عن الجور"[2] : وقوله . " رب كناية تربـى علـى إفصاح ولحظ يدل على ضمير ، وإن كان ذلك الضمير بعيد الغاية قائماً على النهاية.."[3] ومـن حديثـه عـن التشـبيه مقارنتـه بـين قـول النبـى صلـى الله عليـه وسلم : " الناس كلهم سواء كأسنان المشط " وبين قول كثير عزة :

سواء كأسنان الحمار فلا تـرى لذى شيبة منهم على ناشئ فضلا

إذ يقول " وإذا حصلت تشبيه الشاعر وحقيقته ، وتشبيه النبى وحقيقته عرفـت فضل ما بين الكلامين"[4] . وقد ساق كثيرا من الآيات والأشعار معلقا على ما فيها مـن تشبيهات ذاكرا التشبيه بنفس معناه الاصطلاحى[5] ، ومن حديثه عن المجاز تعليقه علـى الآية الكريمة : ﴿ إنَّ الذينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ اليَتَامَى ظُلماً إنَّما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهـمْ نـاَراً

(١) البيان والتبيين ١/١٥٢.

(٢) البيان والتبيين ٢/٧.

(٣) البيان والتبيين ٢/٧.

(٤) البيان والتبيين ٢/١٩.

(٥) ارجع إلى الجزء السابع من الحيوان.

وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً﴾[1] حيث جعلها من باب المجاز ثم قال : " وقد يقال لهم ذلك وإن شربوا بتلك الأموال الأنبذة ولبسوا الحلل وركبوا الدواب و لم ينفقوا منها درهما واحداً في سبيل الأكل ... قد قال الله عز وجل في تمام الآية: ﴿ إِنَّما يَأْكُلُون فِي بُطُونِهِم نَاراً﴾ وهذا مجاز آخر ... ونار تأتي على طريق المثل لا على طريق الحقيقة نحو قول ابن ميادة :

ونار اه نار نار كل مدفع وأخرى يصيب المجرمين سعيرها[2]

ولما رأى الجاحظ إكثار الشعراء المعاصرين له من ألوان البديع المختلفة لم يعتد بما في اللغات الأخرى منه وجعله مقصوراً على العرب ، وذلك حيث يقول : "والبديع مقصور على العرب ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة وأربت على كل لسان، والراعي كثير البديع في شعره ، وبشار حسن البديع والعتابي يذهب شعره في البديع"[3].

فلا عجب إذا قلنا بعد ذلك كله ، إن ما ذكره الجاحظ في كتبه من أسس بلاغية، قد أثرى البلاغة العربية ، وقد انتفع بهذه الأسس كثير من الدارسين بعده...

ابن قتيبة " ت ٢٧٦ هـ " يعد ابن قتيبة من أعلام أهل السنة كما أن الجاحظ من أعلام المعتزلة ، يقول ابن تيمية : " هو لأهل السنة مثل الجاحظ للمعتزلة ، كان خطيب أهل السنة كما كان الجاحظ خطيب المعتزلة "[4] . وقد ألف ابن قتيبة كتابه : " تأويل مشكل القرآن " للرد على الملاحدة الذين يطعنون في أساليب القرآن الكريم ويشككون في نظمه وإعرابه ، وقد عرض في كتابه للكثير من آي الذكر الحكيم مستشهدا لها بنصوص الشعر القديم ليبطل دعوى الطاعنين، ويذهب ريب المشككين..

(١) سورة النساء آية ١٠.

(٢) انظر الحيوان ١٣٣/٥.

(٣) البيان والتبيين ٥٥/٤.

(٤) تفسير سورة الإخلاص ص ٨٦.

كما أن له كتاب " الشعر والشعراء" ، و " تأويل مختلف الحديث " ، وفى هذه الكتب نثر ابن قتيبة ملاحظاته البلاغية ، فتحدث عن المجاز بمعناه الواسع وتحدث عن الحذف والتقديم والتأخير والتكرار فى القصص القرآنى ، وعن مخالفة ظاهر اللفظ معناه وهو ما عرف فيما بعد باسم المشاكلة كقوله تعالى : ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمكُرُ اللهُ﴾[1] . كما تحدث عن الكناية والمبالغة وعن المقلوب كتسميتهم اللديغ سليما والفلاة مفازة وتحدث عن الاستعارة وعن الاستفهام وإفادته لمعانيه البلاغية وعن الأمر وإفادته لغير طلب الفعل ... إلى غير ذلك من الملاحظات التى أثارها وتحدث عنها ... انظر إلى قوله : " وللعرب المجازات فى الكلام ومعناها طرق القول ومآخذه ، ففيها الاستعارة والتمثيل والقلب والتقديم والتأخير والحذف والتكرار والإخفاء والإظهار والتعريض والإفصاح والكناية والإيضاح ومخاطبة الواحد مخاطبة الجمع والجمع خطاب الواحد ، والواحد والجمع خطاب الإثنين ، والقصد بلفظ الخصوص إلى العموم وبلفظ العموم لمعنى الخصوص ، مع أشياء كثيرة ستراها فى باب المجاز[2]

ونلاحظ أنه يستعمل المجاز بمعناه الواسع على الرغم من أن الجاحظ قد استعمله فى معناه الاصطلاحى المقابل للحقيقة .

وإذا كان ابن قتيبة قد استعمل المجاز بمعناه الواسع ، فإنا نراه يستعمل الكناية فى معناها الاصطلاحى الذى حدد فيما بعد وذلك حيث يقول فى قول العرب: فلان طويل النجاد : " والنجاد حمائل السيف وإنما يريدون أنه طويل القامة ، فيدلون بطول نجاده على طوله ، ويقولون : فلان عظيم الرماد ، ولا رماد فى بيته ولا على بابه ، وإنما يريدون أنه

(١) سورة الأنفال آية ٣٠.

(٢) تأويل مشكل القرآن ١٥.

كثير الضيافة "[1] ونجد ابن قتيبة فى مقدمة كتابه "الشعر والشعراء" يسوى بين اللفظ والمعنى فى البلاغة ، ويقسم الكلام على هذا الأساس إلى أربعة أقسام : ما حسن لفظه ومعناه معاً ، وما حسن معناه دون لفظه ، وما حسن لفظه دون معناه ، وما ساء وقبح فى لفظه ومعناه معا[2] وكأنه قد نظر فى قول الجاحظ " المعانى مطروحة فى الطريق " واعتقد أنه يقدم اللفظ على المعنى ، فأراد أن يجعل للمعنى مزية فى البلاغة كما للفظ... وقد أوضحنا أن الجاحظ لم يقدم اللفظ ولا المعنى؛ وإنما رجع البلاغة إلى النظم وجودة السبك فارجع إلى ما قلناه هناك...

المبرد " ت ٢٨٥ هـ " ونلتقى بالمرد صاحب المؤلفات والمصنفات التى أربت على الأربعين مصنفاً ، وأشهرها كتاب " الكامل " فى اللغة والأدب الذى يقول عنه :" هذا كتاب ألفناه ، يجمع ضرورياً من الآداب ما بين كلام منثور وشعر مرصوف ومثل سائر وموعظة بالغة واختيار من خطبة شريفة ورسالة بليغة "[3] . وقد اشتهر المبرد بالنحو فعرفه أكثر القدماء بمحمد بن يزيد النحوى وكان فصيحا بليغا مليح الاختيار ثقة فيما يرويه ، وقد ضمن كتابه " الكامل " كثيراً من أنواع البديع وألوان البلاغة ، من أهمها حديثه عنه التشبيه حيث أفرد له بابا وذكر أن العرب تشبه على أربعة أضرب تشبيه مفرط وتشبيه مصيب وتشبيه مقلوب وتشبيه بعيد وقد ساق كثيراً من الشواهد منها قول امرئ القيس :

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا ... لدى وكرها العناب والحشف اللبالى

ذا كرا أنه أحسن تشبيه أجمعت الرواة عليه حيث شبه شيئاً واحدا فى حالتين بشيئين مختلفين ، ثم يقول : " فإن اعترض معترض فقال ، فهلا فصل التشبيهين فقال: كأنه رطبا العناب وكأنه يابسا الحشف البالى"، ويجيب عن هذا الاعتراض بأن العربى

---

(١) تأويل مختلف الحديث ٦٣.

(٢) ارجع إلى مقدمة الشعر والشعراء

(٣) الكامل ١/٢

الفصيح الفطن يرمى بالقول مفهوما ويرى ما بعد ذلك من التكرير عياً ... ونجد المبرد يطلق التشبيه على التمثيل ، فلا فرق عنده بين التشبيه والتمثيل ، إذا يذكر أن من تمثيل امرئ القيس الحسن العجيب قوله :

كأن عيون الوحش حول خبائنا   وأرحلنا الجزع الذى لم يثقب

ومن التشبيه المصبب فى رأى المبرد قول ذى الرمة :

بيضاء فى دعج صفراء فى نعج   كأنها فضة قد مسها ذهب

ومن أعجب التشبيهات عنده قول النابغة :

فإنك كالليل الذى هو مدركى   وإن خلت أن المنتأى عنك واسع[١]

كما تحدث المبرد عن الاستعارة حيث يقول معلقا على قول الراعى :

يا نعمها ليلة حتى تخونها   داع دعا فى فروع الصبح شحاج

و"شحاج إنما هو استعارة فى شدة الصوت وأصله للبغل والعرب تستعير من بعض لبعض"[٢] ، فقد جعل " شحاج " استعارة على أنه صوت للبغل استعير للغراب، والحقيقة أنه صوت للبغل والجمل والحمار والغراب ، قال ابن سيدة : "والشحاج والتشحيج صوت البغل والحمار والغراب إذا أسن"[٣] .

وتحدث عن الكناية حيث قسم الكلام إلى ثلاثة أقسام : حقيقة وكناية ومثل، ثم جعل الكناية على ثلاثة أوجه ، فهى إما للتعمية والتغطية ، وإما للرغبة عن اللفظ والخسيس المفحش إلى ما يدل على معناه من غيره ، وإما للتعظيم والتفخيم ، ومن أمثلتها عنده قول أبى قيس بن الأسلت الأنصارى :

تنام عن كبر شأنها فإذا   قامت رويدا تكاد تنصرف

تمشى الهوينا إذا مشت فضلا   كأنها عود بانة قصف[٤]

---

(١) الكامل ٣/٣٢.

(٢) الكامل ١/٢٨١ .

(٣) انظر لسان العرب مادة شحج.

(٤) انظر الكامل ٢/٢٨٩.

وتحدث عن الالتفات إذا يقول : " والعرب تترك مخاطبة الغائب إلى مخاطبة الشاهد إلى المتكلم ، ومخاطبة الشاهد إلى مخاطبة الغائب، قال الله عز وجل ﴿ حَتَّى إِذَا كُنتُم فِي الفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾[1] كانت المخاطبة للأمة ثم انصرفت إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - إخبارا عنهم ، وقال عنترة :

شطت مزار العاشقين فأصبحت   عَسِراً على طلابك ابنة مَخرَمِ

فكان يتحدث عنها ثم خاطبها..

ومثل ذلك قول جرير :

وترى العواذل تبتدرن ملامتى

فإذا أردن سوى هواك عصينا [2]

ونلاحظ أنه تحدث عن صورة واحدة من صورتى الالتفات وهى الانتقال من إحدى طرق التكلم إلى الأخرى ، وتلك هى الصورة التى ذكرها أبو عبيدة ، أما الصورة الأخرى التى ذكرها الأصمعى فلم يشر إليها .

والمبرد هو أول من أشار إلى أضرب الخبر، فقد قال له الفيلسوف الكندى ذات يوم : " إنى أجد فى كلام العرب حشوا ، يقولون عبد الله قائم ، وإن عبد الله قائم ، وإن عبد الله لقائم ، والمعنى واحد فأجابه المبرد : " بل المعانى مختلفة . " فعبد الله قائم ، إخبار عن قيامه و " إن عبد الله قائم " جواب عن سؤال سائل ، و " إن عبد الله لقائم " جواب عن إنكار منكر "[3] وقد ألهمت هذه الإجابة البلاغيين الحديث عن أضرب الخبر ، وسموا الخبر الأول ابتدائيا ويخاطب به خالى الذهن والثانى طلبيا ويخاطب به المتردد السائل والثالث إنكاريا ويخاطب به المنكر .

كما تحدث عن التعقيد اللفظى فى بيت الفرزدق :

وما مثله فى الناس إلا مملكا   أبو أمه حى أبوه يقاربه

---

(١) سورة يونس آية ٢٢ .

(٢) الكامل ٢٢/٣.

(٣) انظر دلائل الإعجاز ٢٢٦.

وعن التعقيد المعنوى فى قول العباس بن الأحنف:

سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا وتسكب عيناى الدموع لتجمدا[1]

وتحدث عن الإفراط فى الصفة أو الغلو إذ يقول معلقا على بيت الأعشى :

فلو أن ما أبقـــين منـــى معلـــق بعود ثمام مـــا تـــأود عودهـــا

" إن هذا تجاوز، وأحسن الشعر ما قارب فيه القائل إذ شبه وأحسن منه ما أصاب الحقيقة فيه "[2]

كما تحدث عن اللف والنشـــر وسماه هذه التســـمية إذ يذكر قول عبيد الله بن عبد الله بن عتبة : " ما أحسن الحسنات فى آثار السيئات وأقبح الســـيئات فـــى آثـــار الحسنات وأقبح من ذا وأحسن من ذاك السيئات فى آثار السيئات ، والحسنات فى آثـــار الحسنات ، ثم يقول معلقاً عليه : " والعرب تلف الخبرين المختلفين ، ثم ترمى بتفسيرهما جملة ثقة بأن السامع يرد إلى كل خبره" [3]

وتحدث عن التجريد إذ يقول فى بيت أعشى باهلة :

أخو رغائب يعطيهـــا ويســـألها بأبى الظلامة منه النوفل الزفر[4]

"وإنما يريده بعينه كقولك : لئن لقيت فلاناً ليلقينك منه الأسد " .

ثم يسوق بيت الأعشى :

ياخير من يركـــب المطـــى ولا يشرب كأساً بكف من بخـــلا

ويقول : " قال إنما تشرب بكفك ولست ببخيل " [5]

---

(١) انظر الكامل ١/١٨.

(٢) انظر رغبة الآمل ١/٣٩٣.

(٣) الكامل ١/١٢٧.

(٤) النوفل . من قولهم : فلان ذو فضل ونوافل والزفر: يطلق على الأسد والبحر .

(٥) الكامل ١/٥٧ .

إلى غير ذلك من المسائل البلاغية التى تجدها مبعثرة فى كتاب " الكامل " وغيره من كتب المبرد.

ابن المعتز " ت ٢٩٦هـ " هو العباس عبد الله بن المعتز بن المتوكل بن المعتصم ابن هارون الرشيد ، ولى الخلافة يوما وليلة ثم مات مقتولا وقيل مخنوقا سنة ٢٩٦هـ، وكان شاعراً مطبوعاً ، حسن الإبداع ، سهل اللفظ جيد القريحة بديع التشبيه ، انظر إلى تشبيهاته التى أعجب بها عبد القاهر وعدها من التشبيهات الحسنة البديعة:

كأن عيون النرجس الغض حولنا ... مداهن در حشوهن عقيق

* * *

سقيا لروضات لنا ... من كل نور حاليه

عيون آذريونها ... للشمس فيها كاليه

مداهن من ذهب ... فيها بقايا غاليه

* * *

وكأن البرق مصحف قار ... فانطباقا مرة وانفتاحا

* * *

وأرى الثريا فى السماء كأنها ... قدم تبدت من ثياب حداد

تأمل مدى قدرة الشاعر على التصوير والإبداع ، وغير خاف عليك الترف والنعيم وحياة القصور التى كان يحياها الشاعر والتى تبدو من خلال الأبيات .

كما كان ابن المعتز محباً للعلماء والأدباء مخالطا لهم معدوداً فى جملتهم ، وله بضعة عشر مؤلفاً فى فنون شتى ، وصل إلينا منها : ديوانه وطبقات الشعراء وكتاب البديع .

ويعد " كتاب البديع " أول كتاب يقوم بدراسة مسائل البلاغة وفنون البديع دراسة منهجية دقيقة منظمة ، فقد كانت تلك الفنون مبعثرة فى كتب السابقين ، فقام ابن المعتز يجمعها ذاكراً أنه لم يسبقه إلى هذا الجمع أحد ثم قسمها إلى قسمين :

١- فنون البديع وحصرها فى خمسة : الاستعارة والجناس والطباق ورد الأعجاز على ما تقدمها والمذهب الكلامى .

٢- محاسن الكلام : وقد ذكر منها ثلاثة عشر فنا ثم قال إنها أكثر من أن يحاط بها . ولعل سبب حصره فنون البديع فى تلك الفنون الخمسة يرجع إلى شهرتها فى عصره وإلى أنها كانت موضع الأخذ والرد بين البلاغيين والمتفلسفة ومن ينزعون نحو التجديد المسرف. وكانت غاية ابن المعتز وغرضه من تأليف كتابه أن يثبت أن ما أكثر منه المحدثون وسموه بديعاً موجود من قديم فى القرآن الكريم والحديث الشريف وكلام الجاهليين والإسلاميين. وليس وليد العصر الحديث. يقول : " قد قدمنا فى أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدنا فى القرآن واللغة وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم وأشعار المتقدمين من الكلام الذى سماه المحدثون " البديع " ليعلم أن بشارا ومسلما وأبا نواس ومن تقيلهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن ولكن كثر فى أشعارهم فعرف في زمانهم حتى سمي بهذا الاسم فأعرب عنه ودل عليه"(١) ويقول فى موضع آخر: " وإنما غرضنا فى هذا الكتاب تعريفة الناس أن المحدثين لم يسبقوا المتقدمين إلى شئ من أبواب البديع" (٢) .

ولذا كان منهجه الذى سلكه أن يبدأ بتعريف الفن ثم يسوق له الشواهد الكثيرة من القرآن والحديث وكلام الصحابة وأشعار الجاهليين والإسلاميين وكلام المحدثين المنظوم

---

(١) البديع ١.

(٢) البديع ٣.

والمنثور ، وهو منهج دقيق محقق للغرض الذى من أجله ألف الكتاب ، وقد بدأ بالاستعارة فعرفها بأنها " استعارة الكلمة لشئ لم يعرف بها من شئ قد عرف بها "[1] ثم ساق شواهدها من مختلف الكلام ، معقبا بذكر طائفة من الاستعارات الردئية ، وبهذا سن للبلاغيين بعده أن يتحدثوا عن عيوب الفنون البلاغية ، وكان ابن المعتز معتدلا فى حكمه، فهو يستحسن حين ينبغى الاستحسان ويستهجن حين ينبغى الاستهجان ، بغض النظر عن القدم والحداثة ، فلم يتعصب للقدماء ضد المحدثين . وبعد أن يفرغ من الاستعارة ينتقل إلى الجناس فالطباق فرد الأعجاز على الصدور ثم المذهب الكلامى ، وقد أراد به – كما أراد الجاحظ – طريقة المتكلمين العقلية فى دقة الاستنباط والتعليل والكشف عن المعانى الخفية . وبعد أن ينتهى من فنون البديع الخمسة يقول : " قد قدمنا أبواب البديع الخمسة وكمل عندنا وكأنى بالمعاند المغرم بالاعتراض على الفضائل قد قال: البديع أكثر من هذا أو قال : البديع باب أو بابان من الفنون الخمسة التى قدمناها . والبديع اسم موضوع لفنون من الشعر يذكرها الشعراء ونقاد المتأدبين منهم ، فأما العلماء باللغة والشعر القديم فلا يعرفون هذا الاسم ولا يدرون ما هو ، وما جمع فنون البديع ولا سبقنى إليه أحد " ونحن الآن نذكر بعض محاسن الكلام والشعر ، ومحاسنها كثيرة،
ولا ينبغى للعالم أن يدعى الإحاطة بها حتى يتبرأ من شذوذ بعضها عن علمه وذكره ، وأحببنا لذلك أن تكثر فوائد كتابنا للمتأدبين ، ويعلم الناظر أنا اقتصرنا بالبديع على الفنون الخمسة اختياراً من غير جهل بمحاسن الكلام ولا ضيق فى المعرفة ، فمن أحب أن يقتدى بنا ويقتصر بالبديع على تلك الخمسة فليفعل ، ومن أضاف من هذه المحاسن أو غيرها شيئاً إلى البديع ، فله اختيار "[2] وكأنه كان يدرك أن البديع أكثر من هذه الفنون الخمسة فأضاف ما ذكره من محاسن الكلام وأباح لمن يأتى بعده أن يضيف منها أو من غيرها إلى فنون البديع ما يريد إضافته .

---

(١) البديع ٥٧.

(٢) البديع ٥٧.

ويبدأ بعد ذلك حديثه عن محاسن الكلام فيذكر " الالتفات " ويشير إلى صورتيه التى عرضنا لهما عند أبى عبيدة والأصمعى والمبرد وينتقل إلى الاعتراض وهو اعتراض كلام فى كلام لم يتم معناه كقول كثير :

لو ان الباخلين – وأنت منهم – رأوك تعلموا منك المطالا

ويستمر فى عرض هذه المحاسن الثلاثة عشر وهى :

الرجوع ، والخروج من معنى إلى معنى وعرف فيما بعد بالاستطراد وتأكيد المدح بما يشبه الذم وتجاهل العارف والهزل يراد به الجد وحسن التضمين والتعريض والكناية والإفراط فى الصفة وسماه قدامة " المبالغة " وفرع منها الغلو وقد تبعه البلاغيون فى ذلك ، وحسن التشبيه و " إعنات الشاعر نفسه فى القوافى وتكلفه من ذلك ما ليس له "، وقد سمى فيما بعد بلزوم ما لا يلزم نحو قول الشاعر :

يقولون فى البستان للعين لذة وفى الخمر والماء الذى غير آسن

فإن شئت أن تلقى المحاسن كلها ففى وجه من تهوى جميع المحاسن

فقد التزم السين قبل النون، والحسن الثالث عشر هو " حسن الابتداءات " وقد استشهد ابن المعتز لهذه المحاسن – كما ذكرت – من القديم والحديث ليثبت أنها ليست من اختراع المحدثين ، ويلاحظ أن ابن المعتز لم يجمع فى كتابه كل ما قيل قبله من مسائل البديع بل ترك كثيراً منها كالسجع والازدواج وحسن التقسيم والاحتراس وأسلوب الحكيم والإرصاد والتجريد واللف والنشر[1] " وقد أقر هو ذلك حيث ذكر أنه لا يمكن الإحاطة بتلك الفنون .

بقى أن تعلم أن ابن المعتز لم يكن راضيا عن الإكثار من البديع والإسراف فى استخدام صوره ، فقد عارض فى شدة هؤلاء الذين أسرفوا فى التجديد واستخدام البديع وذكر منهم أبا تمام وصالح بن عبد القدوس ، حيث أسرف الأول فى استخدام البديع وأسرف الثانى فى بناء شعره جميعه على الحكم والأمثال .

---

(١) انظر الصبغ البديعى ١٤١ ، وارجع إلى هذه الفنون فيما ذكرناه عند الجاحظ والمبرد.

يقول ابن المعتز : " لو أن صالحاً نثر أمثاله فى شعره وجعل بينها فصـــولا مـــن كلامه لسبق أهل زمانه وغلب على مد ميدانه "[1] ويقول : " إن بشاراً ومســلما وأبـا نواس ومن تقيلهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن ولكنه كثر فى أشعارهم فعرف فى زمانهم حتى سمى بهذا الاسم فأعرب عنه ودل عليه ، ثم إن حبيب بن أوس الطـائى من بعدهم شغف به حتى غلب عليه وتفرع فيه وأكثر منه ، فأحسن فى بعـض ذلـك وأساء فى بعض ، وتلك عقبى الإفراط وثمرة الإسراف"[2].

قدامة بن جعفر " ت ٣٣٧" : يعد قدامة بن جعفر من أغزر أهل عصره علمـا وأوسعهم ثقافة ، فقد أخذ بحظ وافر من علوم متنوعة ، وبرز فى اللغة والأدب والفقـه والكلام والفلسفة والمنطق ، كان نصرانيا ثم أسلم فى أواخر القرن الثالث الهجرى على يد المكتفى بالله ، وقد درس قدامة الفلسفة والمنطق وتأثر بهما تفكيرا ومنهجا فى مؤلفاته التى بلغت أربعة عشر مؤلفا فى موضوعات مختلفة[3].

والذى يهمنا من مؤلفاته . كتابه " نقد الشعر " فقد أسهم به بنصيب وافر فى نمو البلاغة وتطور مسائلها وتأثر بمن سبقه وأثر فيمن بعده . ويخطئ كثير من الباحثين عندما يتحدثون عن تأثر قدامة بالفلسفة ومنطق أرسطو ، فنراهم يسرفون ويغالون فـى هـذا التأثير، إذا يتعقبون ما تحدث عنه قدامة من فنون ومسائل بلاغية محاولين رجوعه إلى منطق أرسطو وفلسفته[4] . وهذا تعسف لا نرتضيه ولا نقبله ، فقدامة شأنه شأن سلفه وخلفـه من العلماء تأثر وأثر وهذا واضح عندما ننظر فيما عرض له من مسائل البلاغة ، إذ نجد أن ما تحدث عنه قد سبقه به كثير من العلماء ، ثم نرى له إضافات معينة تأثر بها من خلفه ، وهذا هو شأن البحث والدراسة ، نحن لا ننكر تأثر قدامة بالفلسفة والمنطق ، فقد تـأثر

(١) البديع ١.

(٢) البديع ٣.

(٣) انظر فى ترجمته معجم الأدباء ١٢/١٧ والفهرست ١٣٠.

(٤) انظر البلاغة تطور وتاريخ ٧٨ وما بعدها .

بهما فى منهجه العام الذى سلكه ، وفى طريقة بحثه وتفكيره ، ثم فى مواضع معينة ومحددة مثل حديثه عن تعريف الشعر إذ يقول : " الشعر قول موزون مقفى يدل على معنى " ثم يأخذ فى ذكر محترزات التعريف بطريقة منطقية فلسفية[1] . ومثل حديثة عن الفضائل عندما تناول نعوت الجودة لأغراض الشعر، إذ قسمها إلى أربعة أصول كبرى هى العقل والشجاعة والعدل والعفة وفرع منها مفردة أو مركبة بعضها مع بعض فضائل كثيرة[2].

مثل هذا لا ننكر تأثر قدامة فيه بالمنطق والفلسفة ، بل لا يتأتى لدارس إنكاره ، ولكن الذى ننكره هو التعسف والإسراف فى إثبات هذا التأثر ورد كل ما تحدث عنه قدامة أو محاولة رده إلى منطق أرسطو وفلسفته.

فتعالوا ننظر فى " نقد الشعر " لنعرف غاية قدامة من تأليفه " ومنهجه الذى سلكه ، وفنون البديع التى تحدث عنها وما أضافه إليها من جديد فى ضوء ما عرفنا عند سابقيه من تلك الفنون .

تحدث قدامة عن غايته من تأليف الكتاب فقال : " ولم أجد أحداً وضع فى نقد الشعر وتخليص جيده من رديئه كتابا ، وكان الكلام عندى فى هذا القسم أولى بالشعر من سائر الأقسام المعدودة "[3] . فهو يهدف - كما قال - إلى تمييز جيد الشعر من رديئه حيث نظر فوجد العلم بالشعر ينقسم أقساما : قسم ينسب إلى علم عروضه ووزنه ، وقسم ينسب إلى علم قوافيه ومقاطعه ، وقسم ينسب إلى علم غريبه ولغته ، وقسم ينسب إلى علم معانيه والمقصد منه ، وقسم ينسب إلى علم جيده ورديئه وقد خاض الناس فى هذا الأقسام ما عدا القسم الأخير فلم يجد فيه كتابا[4] ولهذا وضع " نقد الشعر " ليميز بين جيده ورديئه .

---

(١) نقد الشعر ١٣.

(٢) انظر نقد الشعر ٥٥ .

(٣) مقدمة نقد الشعر.

(٤) انظر مقدمة "نقد الشعر" .

ونلاحظ أن ابن المعتز كان يتحدث فى نهاية كل فن من فنون البديع عما ورد معيبا منه ويعرض طائفة من الشواهد الرديئة والمعيبة ، وما من شك فى أن قدامة قد أفاد من ذلك وإن كان قد أغفله فلم يشر إليه.

منهجه الذى سلكه : وقد تأثر قدامة بالمنطق والفكر اليونانى فى منهجه الذى سار عليه ، حيث قسم الكتاب إلى مقدمة وثلاثة فصول : تحدث فى المقدمة عن أنواع العلم بالشعر والباعث له على تأليف الكتاب ، ثم تحدث فى الفصل الأول عن حد الشعر وبيان مراتبه وعن مقدمات تتعلق بالشعر ، وعن المنهج الذى اختطه لنفسه ، وتحدث فى الفصل الثانى عن نعوت الجودة أما الفصل الثالث فقد خصه بعيوب الشعر ونعوت رداءته.

وكانت الطريقة التى مضى عليها فى تجلية هذه النعوت ، أن تناول عناصر الشعر الأربعة وهى : اللفظ والوزن والقافية والمعنى فتحدث عن نعوت الجودة لكل عنصر منها وبعد ذلك يركب هذه العناصر ويتحدث عن نعوت جودة المركب، فتحدث عن نعوت الجودة لائتلاف اللفظ مع المعنى وائتلاف اللفظ مع الوزن ، وائتلاف المعنى مع الوزن وائتلاف القافية مع ما يدل عليه سائر البيت.

وما صنعه قدامة فى الفصل الثانى مع نعوت الجودة ، يصنع مثله فى الفصل الثالث مع نعوت الرداءة ، فيذكر بإزاء كل نعت جيد فى الشعر النعت الردئ الذى يقابله وهو جانب يتصل بالنقد الأدبى ، وقد تأثر فيه بابن المعتز حيث رأينا الأخير يذكر فى نهاية حديثه عن كل فن من فنون البديع التى تناولها ، ما ورد منه معيبا ، ويعرض لطائفة من تلك الشواهد الرديئة المعيبة.

أهم ما تضمنه الكتاب من فنون البديع : وعندما نتتبع قدامة فى منهجه الذى اختطه لنفسه نجده فى أثناء حديثه عن نعوت الجودة لعناصر الشعر مفردة أو مركبة يعرض لكثير من الفنون البديعية ، وأهم ما قد تعرض له ما يلى :

١- التشبيه : تحدث عنه عندما تحدث عن نعوت جودة المعنى حيث جعله غرضا من أغراض الشعر ، وهذا خطأ منهجي ؛ لأن التشبيه ليس من أغراض الشعر ، بل فن من فنون البلاغة ، وقد أضاف قدامة جديداً إلى مبحث التشبيه فذكر أن التشبيه يقع بين شيئين بينهما اشتراك فى معان تعمهما ويوصفان بها ، وأحسن التشبيهات ما وقع بين شيئين اشتراكهما فى الصفات أكثر من انفرادهما فيها حتى يدنى بهما إلى حال الاتحاد ، ويسوق أمثلة كثيرة للتشبيهات الحسنة ، ثم يشير إلى أن التشبيهات تقع على أضرب ، منها أن تجمع فى بيت واحد أو ألفاظ يسيرة تشبيهات كثيرة ، ومنها أن يشبه شئ واحد بأشياء ، ومنها أن يشبه شئ فى تصرف أحواله بأشياء تشبهه فى تلك الأحوال . ويرى قدامة أن للشاعر أن يتصرف فى تشبيهاته وأن يجدد فى صوره بالخروج على مألوف الشعراء فى تشبيهاتهم[1] .

٢- الترصيع : وقد جعله من نعوت جودة الوزن . وعرفه بأن يتوخى فى البيت تقطيع أجزائه إلى فقرات مسجوعة أو شبيهة بالمسجوعة ، كما فى قول الشاعر:

سود ذوائبها بيض ترائبها

محض ضرائبها صيغت على الكرم

وبذكر قدامة أن الترصيع يحسن إذا لم يتواتر فى القصيدة أو المقطوعة ، فإن تواتر كان معيبا؛ لأنه عندئذ يدل على التكلف وعلى أن الشاعر يقصد إليه ويعمد . وقد أشار الجاحظ إلى هذا اللون وإن سماه بالسجع والازدواج وسماه قدامة بالترصيع لأن قدامة كان مولعاً بتغيير المصطلحات وتبديل ما استقر عليه العلماء واتفقوا على تسميته ، كما سترى فى كثير من الفنون التى أشار إليها .

٣- صحة التقسيم : بعد أن فرع قدامة من أغراض الشعر التى ذكر فيها التشبيه - كما أسلفنا - يشير إلى أن هذه الأغراض إنما هى وجوه من جملة معانى الشعر ،

---

(١) انظر نقد الشعر ٦٥.

أما ما يعم جميع تلك المعانى فإنه سيعنى بذكره وبيانه ، ثم يأخذ فى سرد تلك التى تعم جميع المعانى الشعرية فيذكر : صحة التقسيم وصحة المقابلات وصحة التفسير والتتميم والمبالغة والتكافؤ والالتفات.

يقول فى تعريف صحة التقسيم : هى أن يبتدئ الشاعر فيضع أقساما ثم يستوفيها ولا يغادر قسما منها ، ، كما فى قول نصيب:

فقال فريق القوم : لا وفريقهم

نعم وفريق قال : ويحك ما ندرى

فليس فى أقسام الإجابة عن مطلوب إذا سئل عنه غير هذه الأقسام ويشير فى نعوت الرداءة إلى فساد الأقسام فى بيت جرير:

صارت حنيفة أثلاثا فثلثهم — من العبيد وثلث من مواليها

فيقول : بلغنى أن هذا الشعر أنشد فى مجلس ورجل من بنى حنيفة حاضر فقيل له من أيهم أنت ؟ فقال من الثلث الملغى ذكره [(1)]. وقد مر بك حديث الجاحظ ، عن هذا اللون وإفاضته فى إيضاحه وفى الاستشهاد له ، فقدامة يستمد منه ويتأثر به .

٤- صحة المقابلات : وهى أن يرتب الشاعر معانيه ترتيبا يوفق فيه بين طائفة منها ويخالف بين طائفة ثانية بحيث تتقابل فى وضوح ، أو يشرط شروطا ويعدد أحوالا فى أحد المعنيين ، فيجب أن يأتى فيما يوافقه بمثل الذى شرطه وعدده ، وفيما يخالف بضد ذلك ، ونلاحظ أنه يشير فى هذا التعريف إلى مراعاة النظير وإلى المقابلة وهى لون من ألوان الطباق ، وقد استمد السكاكى ما اشترطه فى المقابلة من تعريف قدامة هذا.

---

(١) انظر نقد الشعر ١٨٨.

ومما استشهد به قدامة قول الشاعر :

فواعجبا كيف اتفقنا فناصح   وفى ومطوى على الغل غادر

حيث قابل الشاعر النصح والوفاء بالغل والغدر... ومن فاسد المقابلة قول امرئ القيس :

فلو أنها نفس تموت سوية   ولكنها نفس تساقط أنفسا

ومعنى البيت :لو أنها نفس تموت موتة واحدة لهان الأمر ولكنها نفس تموت موتات " وتتساقط أنفسا " ، يقول قدامة : وللعدول عن هذا العيب غير الرواة هذا البيت، فأبدلوا فى مكان : " سوية " : " جميعة " لأنه فى مقابلة : " تساقط أنفساً " أليق من سوية(١) .

٥- صحة التفسير : وهى أن يذكر الشاعر فى بيت معنيين فى إجمال، ويفسرهما ويستوفى شرحهما إما فى الشطر الثانى وإما فى بيت لاحق ، كما فى قول الفرزدق :

لقد جئت قوما لو لجأت إليهم   طريد دم أو حاملا ثقل مغرم

لألفيت فيهم معطيا أو مطاعناً   وراءك شزراً بالوشيج المقوم

حيث ذكر فى البيت الأول معنيين وهما : " طريد دم وحاملا ثقل مغرم " ثم فسرهما بقوله فى البيت الثانى : " معطيا أو مطاعنا " .

وكما فى قول سهل بن هارون :

فواحسرتا حتى متى القلب موجع   بفقد حبيب أو تعذر إفضال

فراق حبيب مثله يورث الأسى   وخلّة حُرٍّ لا يقوم بها مالى

(١) انظر نقد الشعر ١١٨.

فقد فسر بالبيت الثانى سبب إيجاع قلبه بفقدان الحبيب وتعذر الإفضال.

ويذكر قدامة من فاسد هذا اللون قول أحدهم :

فيا أيها الحيران فى ظلم الدجى
ومن خاف أن يلقاه بغى من العدى
تعال إليه تلق من نور وجهه
ضياء ومن كفيه بحراً من الندى

حيث فسر : " ظلم الدجى " بقوله : " تلق من نور وجهه " وهذا صواب ثم فسر : " أن يلقاه بغى من العدى " بقوله : " ومن كفيه بحراً " وهذا فاسد ؛ لأنه بنبغى أن يأتى فى جانب بغى العدى ، بالنصرة أو بالعصمة أو بما يجانس ذلك مما يحتمى به الإنسان من أعدائه ، لا بالكرم ، لأن الكرم يذكر مع العدم أو الفقر(١).

٦- التتميم : وهو أن يذكر الشاعر معنى ثم لا يدع شيئاً يتمم به صحته وجودته إلا أتى به إما بقصد المبالغة وإما بقصد الاحتياط فمن الأول قول نافع بن خليفة الغنوى :

رجال إذا لم يقبل الحق منهم
ويعطوه عاذوا بالسيوف القواطع

فقد تمم جودة المعنى بقوله : " ويعطوه " ، وابن المعتز - كما مر بك - قد سمى هذا بالاعتراض ومن الثانى قول طرفة :

فسقى ديارك - غير مفسدها -   صوب الربيع وديمة تهمى

وقد سمى الجاحظ هذا بإصابة المقدار ، وسماه المتأخرون باسم الاحتراس أو التكميل .

---

(١) انظر نقد الشعر ١١٩.

٧- المبالغة : وقد جعلها فى مرتبة أقل من الغلو الذى يبنى على الإفراط الشديد ، فهو يفضل الغلو على المبالغة ، وقد سمى ابن المعتز المبالغة باسم الإفراط فى الصفة ، وأكثر البلاغيين على تسمية قدامة .

ومن أمثلتها عنده قول عمير بن الأيهم التغلبى:

ونكرم جارنـــا مـــا دام فينـــا ونتبعه الكرامة حيـــث مـــالا

٨- التكافؤ : وهو الطباق عند ابن المعتز وغيره ، فقد سماه قدامـــة بالتكـــافؤ ، وأطلق الطباق على الجناس التام ، وكأنه مولع - كما قلت - بتبديل وتغيير المصطلحات ومن شواهد التكافؤ قول الشاعر:

حلو الشمائل وهو مـــر باســـل يحمى الذمار صبيحة الإرهـــاق

٩- الالتفات : وقد أطلقه على صورة من صورتيه وهو أن يفرغ الشـــاعر مـــن المعنى ونظن أن سينتقل إلى غيره فإذا به يعود إليه واصلا كلامه به ، وقد ذكر الأصمعـــى هذه الصورة مع الصورة الأخرى - كما رأيت - وتبعه فى ذلك ابن المعتز، وجاء قدامـــة فذكر إحدى الصورتين دون الأخرى .

١٠- المساواة : وبعد أن فرغ قدامة من نعوت جودة المعنى انتقل إلى ائتـــلاف اللفظ مع المعنى فذكر نعوت الجودة لهذا الائتلاف وهى : المساواة والإشـــارة والإرداف والتمثيل والمطابق . فالمساواة : أن يكون اللفظ مساويا المعنى حتى لا يزيد عليه ولا ينقص عنه . والإشارة : أن يكون اللفظ القليل مشتملا على معان كثيرة إيماء إليها أو لمحاً يـــدل عليها ... والإرداف : أن يريد الشاعر الدلالة على معنى من المعانى فلا يأتى باللفظ الدال على ذلك المعنى : بل بلفظ يدل على معنى هو ردفه وتابع له ، كقول ابن أبى ربيعة :

بعيدة مهوى القرط إمـــا لنوفـــل أبوها وإما عبد شمس وهاشـــم

وقد سمى الجاحظ هذا بالكناية وتبعه فى هذه التسمية ابن المعتز كما رأيت والتمثيل وهو عنده يشمل الاستعارة التمثيلية وبعض صور الكناية ، وقد عرفه قدامة : بأن يريد الشاعر الإشارة إلى معنى فيضع كلاما يفهم منه معنى آخر ، كقول ابن ميادة :

ألم تك فى يمنى يديك جعلتنى   فلا تجعلنى بعدها فى شمالك

والمطابق وقد أطلقه - كما ذكرت - على الجناس التام ،

كما فى قول الأفوه الأودى:

وأقطع الهوجل مستأنسا   بهوجل عيرانة عنتريس

أما الجناس غير التام فقد أبقى على تسميته بالجناس أو المجانس كما فى قول حيان بن ربيعة الطائى :

لقد علم القبائل أن قومى   لهم حد إذا لبس الحديد

وينتقل إلى ائتلاف القافيه مع ما يدل عليه سائر البيت فيذكر من نعوت الجودة لهذا التآلف :

١- التوشيح : وهو ما سماه عبد الله بن المعتز برد أعجاز الكلام على ما تقدمها ، وقد عرفه قدامة بقوله : أن يكون أول البيت شاهداً بقافيته ومعناها متعلقاً به ، حتى أن الذى يعرف قافية القصيدة التى منها البيت إذا سمع أول البيت عرف آخره وبانت له قافيته.

٢- الإيغال : وقد استمده من الأصمعى على نحو ما مر بك عنده .

ومما يلاحظ أن قدامة لم يتحدث عن الاستعارة فى نعوت الجودة بل تحدث عنها فى نعوت الرداءة ، على الرغم من أن ابن المعتز قد جعلها من فنون البديع الخمسة ، وقد أطلق عليها قدامة أى على الاستعارة المعيبة اسم المعاظلة وقال : المعاظلة هى فاحش

الاستعارة ، كما فى تسمية بعض الشعراء رجل الإنسان حافرا، ولا نوافقه على هذا الإطلاق ، لأن المعروف أن المعاظلة هى ركوب الكلام بعضه بعضا أو التعقيد اللفظى.

ومما أشار إليه قدامة أيضاً : " التصريع " وقد تحدث عنه فى نعوت جودة القافية وعرفه بقوله : أن يقصد لتصيير مقطع المصراع الأول فى البيت الأول من القصيدة مثل قافيتها ، وذكر أن فحول الشعراء يتوخون ذلك ولا يكادون يعدلون عنه وربما صرعوا أبياتاً أخرى من القصيدة بعد البيت الأول وذلك يدل على اقتدار الشاعر وسعة بحره .

تلك أهم فنون البديع فى كتاب " نقد الشعر " وقد استمدها قدامة من كتابات السابقين . وكانت له إضافات جيدة ، كما كان مولعا بتغيير المصطلحات وتسمية الفنون بغير ما سماها به من سبقه وبخاصة عبد الله بن المعتز ، أما تأثره بالفلسفة والمنطق فقد كان محدوداً على نحو ما بينا ، وليس إلى الحد الذى ذكره شوقى ضيف وغيره ، حيث أسرفوا فى قولهم بهذا التأثر وتكلفوا أشد التكلف فى رد ما قاله قدامة إلى المنطق والفلسفة وهذا ما لا نقبله ولا ننكر فى ذات الوقت أن قدامة قد تأثر بالثقافات الأجنبية وبخاصة الفلسفة والمنطق على نحو ما بينا .

كتاب " البرهان فى وجوه البيان " . هذا الكتاب لإسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب ، كانت أسرته تخدم فى الدواوين العباسية منذ عصر المأمون وكان جده سليمان من جلة الكتاب وقد وزر إسحاق للخليفة المهتدى بالله والخليفة المعتمد على الله وتوفى سنة ٣٧٢ هـ ، وهذا ما يؤكد أن إسحاق الذى سكتت المراجع عن التعريف به، كان يعيش فى أوائل القرن الرابع الهجرى فهو معاصر لقدامة بن جعفر ، وهذا ما يفسر لنا السبب فى أن جزءاً من هذا الكتاب قد طبع باسم " نقد النثر " ونسب خطأ إلى قدامة ، وقد شكك طه حسين فى تلك النسبة ، وذكر أنه فى الغالب لكاتب شيعى ظاهر التشيع قد صنف كتبا عدة فى الفقه وعلوم الدين. (١)

---

(١) انظر مقدمة نقد النثر ص١٩.

وظل التشكك قائما حتى حل محله اليقين بأن الكتاب ليس لقدامة وإنما هو لابن وهب ، وذلك عندما نشر مقال فى مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق سنة ١٣٦٨هـ/١٩٤٨م ، يقول فيه ناشره : " إن هذا الكتاب الذى طبع باسم " نقد النثر ، ونسب خطأ إلى قدامة إنما هو جزء من كتاب " البرهان فى وجوه البيان " لإسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب ، عثر عليه فى بعض المكتبات الأوربية. (١).

وفى خاتمة الكتاب ومقدمته ما يدل على أن اسمه الحقيقى : " البرهان فى وجوده البيان " وليس نقد النثر ، إذ يقول ناسخه فى خاتمته : " كمل البيان بحمد الله تعالى وحسن عونه " ويقول مصنفه فى مقدمته مبرزاً سبب تأليفه مخاطباً أحد أصدقائه : " ذكرت لى وقوفك على كتاب عمرو بن بحر الجاحظ الذى سماه كتاب البيان والتبين ، وأنك وجدته إنما ذكر فيه أخبارا منتحلة وخطبا منتخبة، و لم يأت فيه بوصف البيان ولا أتى على أقسامه فى هذا للسان وكان عندما وقفت عليه غير مستحق لهذا الاسم الذى نسب إليه ، وسألتنى أن أذكر لك جملا من أقسام البيان آتية على أكثر أصوله محيطة بجماهير فصوله ، يعرف بها المبتدئ معانيه ، ويستغنى بها الناظر فيه ، وأن أختصر لك ذلك لئلا يطول له الكتاب ، وقد ذكرت فى كتابى هذا جملا من أقسام البيان وفقرا من آداب حكماء أهل هذا اللسان ، لم أسبق المتقدمين إليها ، ولكنى شرحت فى بعض قولى ما أجملوه واختصرت فى بعض ذلك ما أطالوه وأوضحت فى كثير منه ما أوعروه "(٢) ، وبهذا يتضح لك أن الكتاب لابن وهب وليس لقدامة وأن اسمه " البرهان فى وجوه البيان، وليس " نقد النثر" ولعل السبب فى نسبته إلى قدامة خطأ - كما ذكرت - يرجع إلى سكوت المراجع عن التعريف بالمؤلف الحقيقى للكتاب ، ومعاصرة المؤلف " ابن وهب " لقدامة بالإضافة إلى تأثره بالفلسفة والمنطق ، كما تأثر قدامة بهما . وبعد أن وضح لك اسم الكتاب ومؤلفه ، تعال ننظر فى سبب تأليفه له وما تضمنه من فنون البديع ...

---

(١) انظر مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق المجلد الرابع والعشرين ص ٧٣.

(٢)نقد النثر ٣.

يطالعنا المؤلف فى المقدمة - كما أشرنا - بأنه ألفه معارضة لكتاب الجاحظ " البيان والتبيين " ، وقد وصفه بأن مسائل البيان فيه تختلط ولا تتضح ، فأراد أن يوضح وأن يشرح ما أجمل ، وكأنه يريد أن يقول : إن البحث فى البيان ليس من شأن المتكلمين من أمثال الجاحظ إنما هو من شأن المتفلسفة أمثاله ....

ولا يعنينا ما فى الكتاب من آرائه واعتقاداته المبنية على التشيع وإنما يعنينا ما فيه من حديث عن فنون البلاغة ومسائل البيان . فقد أشار إلى أن العبارة تنقسم إلى خبر وطلب ، وقد أفاد البلاغيون من ذلك فتحدثوا عن تقسيم الكلام إلى خبر وإنشاء . كما تحدث عن التشبيه وقسمه إلى تشبيه حسى وتشبيه معنوى وعن اللحن والرمز مستمداً من كتابات الجاحظ ، وقد أطال فى ذلك وقسم الرمز إلى قسمين : رمز يراد به التعمية ورمز يراد به كثرة الصور والأخيلة وهو الرمز الأدبى .. وتحدث عن الوحى ويريد به ما سماه قدامة باسم الإشارة وهما يستمدان من الجاحظ الذى ذكر أن " مما مدحوا به الإيجاز والكلام الذى هو كالوحى والإشارة " كما تحدث عن الأمثال واللغز والحذف ، وعن الالتفات وقد سماه باسم " الصرف " وعن المبالغة ، وعن القطع والعطف ، وربما هيأ ذلك لظهور مبحث الفصل والوصل عند البلاغيين المتأخرين ... كما تحدث عن التقديم والتأخير وعن صحة المقابلات .. إلى غير ذلك من فنون البلاغة .. وكان أثر الفلسفة والمنطق - كما ذكرت - بادياً على المؤلف فى أفكاره وعباراته ، كما أن الكتاب ملئ بالآراء والاعتقادات الشيعية التى ينبغى أن نضرب عنها صفحا...

<u>كتب الإعجاز القرآنى</u> : وفى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى برزت مؤلفات عدة للمتكلمين الذين تحدثوا عن أوجه الإعجاز القرآنى ، وقد حوت تلك المؤلفات العديد من مسائل البلاغة وفنونها ، ومن أهم هذه المؤلفات :ـ

<u>رسالة النكت فى إعجاز القرآن للرمانى</u> ت " ٣٨٦هـ " : والرمانى هو على ابن عيسى الرمانى ، أحد أعلام المعتزلة فى عصره ، وله مصنفات كثيرة فى التفسير واللغة

والنحو وعلم الكلام ، وقد ألف هذه الرسالة جوابا لسؤال وجه إليه ، طلب سائله من الرمانى أن يجمل له نكات الإعجاز ويفسرها له بلا تطويل فى الحجاج .. وقد استهل الرمانى الرسالة برد تلك النكت إلى سبع جهات هى: ترك المعارضة مع توافر الدواعى وشدة الحاجة ، التحدى للكافة ، الصرفة ، البلاغة ، الأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة. نقض العادة ، قياس القرآن بكل معجزة ، ثم أخذ يفسر القول فى كل جهة من هذه الجهات .. ويعنينا منها البلاغة ، وكان حديثه عنها على النحو التالى : جعلها ثلاث طبقات : عليا ووسطى ودنيا ، فالعليا هى بلاغة القرآن الكريم ، والوسطى والدنيا تتفاوت فيهما بلاغات البشر علوا ودنوا . ثم يذكر أن البلاغة على عشرة أقسام هى : الإيجاز والتشبيه والاستعارة والتلاؤم والفواصل والتجانس والتصريف والتضمين والمبالغة وحسن البيان . وأخذ يفصل القول فى كل قسم من هذه الأقسام مبتدئاً بتعريفه ثم مصووا شعبه ، ممثلا لها بآى الذكر الحكيم .. فيعرف الإيجاز بقوله . إنه تقليل الكلام من غير إخلال بالمعنى ، ثم يذكر أنه على وجهين : إيجاز بالحذف ، وهو ما أسقطت فيه كلمة للاستغناء عنها بدلالة غيرها من الحال أو من فحوى الكلام ، ويسوق الشواهد العديدة من الآيات الكريمة لأنواع الحذف المختلفة كحذف الأجوبة وحذف المضاف ، وحذف الموصوف وحذف الصفة . وغير ذلك ، والوجه الثانى : إيجاز القصر وهو بناء الكلام على تقليل اللفظ وتكثير المعنى من غير حذف ، مثل ﴿وَلَكُمْ فِى الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾[1] ، ثم مضى يفرق بين الإيجاز والإخلال والإطناب والتطويل وبهذا صور الرمانى الإيجاز بنوعية تصويرا نهائياً.

وانتقل إلى التشبيه فعرفه بأنه : " العقد على أن أحد الشيئين يسد مسد الآخر فى حس أو عقل ، وبذلك قسم التشبيه إلى حسى وعقلى وسمى الحسى تشبيه حقيقة والعقلى تشبيه بلاغة وأخذ يفصل القول فى تشبيه البلاغة مبينا طبقاته فذكر أنه يأتى على وجوه :

---

(١) سورة البقرة آية ١٧٩.

منها إخراج مالا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه كتشبيه أعمال الكفار بالسراب فى قوله تعالى : ﴿ وَالذين كفرُوا أعْمَالُهمْ كَسَرَابٍ بقيعَةٍ يَحسَبُهُ الظّمْآنُ ماءَ حتّى إذَا جَاءَهُ لَمْ يَجدْهُ شَيْئاً ﴾[1] ومنها إخراج ما لم تجر به العادة إلى ما جرت به العادة كتشبيه ارتفاع الجبل بارتفاع الظلة فى قوله تعالى : ﴿ وإذْ نَتقنا الْجبَلَ فوقَهُمْ كَأنهُ ظُلّةٌ ﴾[2] ، ومنها إخراج مالا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم بالبديهة كقوله تعالى: ﴿وَجَنة عَرضُها كَعَرضِ السّماءِ والأرضِ ﴾[3] ومنها إخراج مالا قوة له فى الصفة إلى ماله قوة فى الصفة ، كما فى قوله تعالى:﴿ خَلَقَ الإنسَانَ مِنْ صَلصَالٍ كالْفَخّارِ﴾[4]، ويذكر الرمانى أن حسن التشبيه يكمن فى تقريبه بين الأمور المتباعدة ، ويمتاز تشبيه البلاغة بأنه يقرن الأغمض بالأوضح فيبين وينكشف ، إلى غير ذلك من التفصيلات التى ذكرها الرمانى فى التشبيه والتى انتفع بها البلاغيون بعده وبخاصة الإمام عبد القاهر الجرجانى ، ثم يمضى إلى الاستعارة فيعرفها بأنها تعليق العبارة على غير ما وضعت له فى أصل اللغة على جهة النقل للإبانة ، فالفرق بينها وبين التشبيه أن الكلمات فى التشبيه تظل لها معانيها الحقيقية بخلاف الكلمات فى الاستعارة فإنها تدل على ما لم توضع له فى اللغة . ثم يذكر أن كل استعارة لابد فيها من مستعار ومستعار له ومستعار منه . ويعرض أمثلة مختلفة يصور فيها فضل الاستعارة على الحقيقة وأنها أبلغ منها فى قوة البيان . وهكذا يستمر الرمانى فى الحديث عن أقسام البلاغة العشرة ، فيتحدث عن التلاؤم وهو يريد به حسن النظم وقوة السبك ويقسم الكلام إلى متنافر يستثقله اللسان وتمجه الآذان . ومتلائم فى الطبقة الوسطى وفيه تدخل بلاغة البلغاء ، ومتلائم فى الطبقة العليا وهو أسلوب القرآن الكريم ، وهو هنا يستمد من الجاحظ وينقل كثيراً من الشواهد التى عرضها لتنافر الحروف وتنافر

(١) سورة النور آية ٣٩.

(٢) سورة الأعراف آية ١٧١.

(٣) سورة الحديد آية ٢١.

(٤) سورة الرحمن الآية ١٤.

الكلمات . ويتحدث عن الفواصل فيعرفها بأنها : حروف متشاكلة مع المقاطع توجب حسن إفهام المعانى ، ويذكر أنها ترد على وجهين : وجه على الحروف المتجانسة كما فى قوله تعالى : ﴿ وَالطُّور . وَكتَاب مَسْطُورٍ . فى رَقٍّ مَنْشُورٍ﴾[1] . ووجه على الحروف المتقاربة ، كما فى قوله عز وجل : ﴿ق. وَالقُرْآنِ المَجِيدِ . بَلْ عَجِبُوا أنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الكافِرُونَ هَذَا شَئٍ عَجِيبٌ﴾[2]

ويفرق بين الفواصل فى القرآن وبين الأسجاع ، فيقول : " الفواصل بلاغة والأسجاع عيب وذلك أن الفواصل تابعة للمعانى وأما الأسجاع فالمعانى تابعة لها ، ولهذا فالأسجاع يتضح فيها التكلف والاستدعاء ، بخلاف الفواصل فإنها تصير إلى قرارها وتنزل فى مكانها . ويتحدث عن التجانس فيذكر أن تجانس البلاغة هو بيان بأنواع الكلام الذى يجمعه أصل واحد فى اللغة ، ويجعله على نوعين مزاوجة ، وقد عرفت فيما بعد بالمشاكلة كما فى قوله تعالى : ﴿ ويَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خيرُ المَاكِرينَ﴾[3] ومناسبة وأراد بها جناس الاشتقاق كما فى قوله تعالى : ﴿ ثُمّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾[4] ، ويتحدث عن التصريف فيعرفه بأنه تصريف المعنى فى الدلالات المختلفة ، كتصريف الألفاظ المشتركة فى أصل واحد .. وقد أراد به القصص القرآنى وورود القصة بطرق مختلفة وفى مواضع متعددة لوجوه من الحكمة منها التصرف فى وجوه البلاغة من غير نقصان عن أعلى مرتبة ومنها تمكين العظة والعبرة ومنها فل الشبهة فى المعجزة، ويتحدث عن التضمين فيقول إنه : حصول معنى فى الكلام من غير ذكر له ، وهو على وجهين ما يدل عليه الكلام دلالة إخبار كدلالة كلمة مكسور على " كاسر " ، وما يدل عليه دلالة قياس كدلالة البسملة على تعظيم الله تعالى ، ويتحدث عن المبالغة فيعرفها بأنها : الدلالة على

---

(١) سورة الطور الآية ١-٣.

(٢) سورة ق الآية ١-٢. .

(٣) سورة الأنفال آية ٣٠.

(٤) سورة التوبة آية ١٢٧.

كبر المعنى على جهة التغيير عن أصل اللغة لتلك الإبانة ، ويذكر أنها على وجوه : منها مبالغة عن طريق البنية كصيغ المبالغة مثل : غفار وغفور وتواب ، ومنها مبالغة بالتعميم كقولك : أتانى الناس والذى أتاك جماعة منهم ، ومنها مبالغة بإخراج التعبير مخرج الشك، كما فى قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّا أَوْإِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدىً أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[1] ومنها مبالغة بحذف الأجوبة ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىَ إذ وُقِفوا على النَّارِ﴾[2] ، وتحدث عن البيان وهو القسم العاشر فعرفه بقوله " الإحضار لما يظهر به تميز الشئ من غيره فى الإدراك"[3] ، فهو يريد به أنواع الدلالة على المعنى ويذكر أنها على أربعة أقسام : كلام وحال وإشارة وعلامة ، وهو يستمد هنا من كلام الجاحظ الذى أفاض فى الحديث عن أوجه الدلالة وبين أنها خمسة أوجه : اللفظ والإشارة والعقد والخط والحال[4] .

إعجاز القرآن للباقلانى " ت ٤٠٣هـ " : هو أبو بكر محمد بن الطيب الباقلانى، من أعلام الأشاعرة ، وله مصنفات كثيرة ، وهذا الكتاب " إعجاز القرآن" من أهم مصنفاته ، وهو يرد فيه ردا عنيفا على الملاحدة والمشككين فيفند مطاعنهم ويدفع شبههم ويرفض رفضا قويا القول بالصرفة راجعا إعجاز القرآن الكريم إلى ثلاثة أوجه وهى : تضمنه الإخبار عن الغيب ، القصص الدينى وسير الأنبياء ، بلاغته، وعندما تقرأ فى إعجاز القرآن للباقلانى تدرك أنه ينقصه عدم الدقة فى التبويب والتنظيم ، فهو غير دقيق فى منهاجه ، إذ تجده يخرج من فصل إلى فصل والمضمون الذى يتحدث عند واحد... وقد عقد الباقلانى فصولا عدة لبيان أن القرآن معجزة وإيضاح أوجه إعجازه والرد على الملاحدة والمشككين ، ونفى الشعر والسجع عن القرآن ، ونراه يسوق طائفة

(١) سورة سبأ آية ٢٤.
(٢) سورة الأنعام آية ٢٧.
(٣) النكت – ضمن ثلاث وسائل فى الإعجاز ص ١٠٦.
(٤) انظر البيان والتبيين . .

من أحاديث الرسول - صلى الله عليه وسلم -وأقوال الصحابة ليلمس القارئ فرق ما بينها وبين القرآن...... ويدرس معلقة امرئ القيس ولامية البحترى:

أهلا بذلكم الخيال المقبل فعل الذى نهواه أم لم يفعل

ويبين ما فيهما من عوار وتكلف وحشو وخلل وتطويل ولفظ غريب ، وكيف تتفاوت أبياتهما بين الجودة والرداءة ، والغرابة والسلاسة ليبرز بذلك جمال النظم القرآنى وأنه وحده الذى لا تفاوت فيه ، بينما يتفاوت كلام البلغاء من الشعراء حتى فى القصيدة الواحدة فالقرآن بديع النظم عجيب التأليف متناه فى البلاغة إلى الحد الذى يعلم عجز جميع الخلق عنه . ويعقد فصلا يتحدث فيه عن وجوه البديع وهل يمكن تعليل الإعجاز القرآنى بها أو لا يمكن ، فيتحدث فيه عن الاستعارة والإرداف والمماثلة والمطابقة والجناس والمبالغة والغلو والإيغال وصحة التقسيم والتتميم والترصيع وطباق السلب والكناية والتعريض والعكس والتبديل والالتفات والاعتراض والرجوع والتذييل ، وغير ذلك من فنون البديع ، ويشير فى كل ذلك إلى آراء السابقين وما بينهم من خلافات فى تحديد هذه الفنون وتقرير مصطلحاتها ، ثم يقول : "ووجوه البديع كثيرة جداً ، فاقتصرنا على ذكر بعضها ونبهنا بذلك على ما لم نذكر كراهة التطويل ، فليس الغرض ذكر جميع أبواب البديع ، وقد قدر مقدرون أنه يمكن استفادة إعجاز القرآن الكريم من هذه الأبواب التى نقلناها وأن ذلك مما يمكن الاستدلال به عليه ، وليس كذلك عندنا ، لأن هذه الوجوه إذا وقع التنبيه عليها أمكن التوصل إليها بالتدريب والتعود والتصنع لها "(١) . ثم يذكر أن الإعجاز القرآنى مرده إلى نظمه العجيب الذى لا يمكن أن يحتذى . ويعقد فصلا آخر بعنوان : " وصف وجوه من البلاغة" : فيلخص فيه الوجوه العشرة التى ذكرها الرمانى . ثم يذكر أن بلاغة القرآن لا تقع بوجه من الوجوه التى عددها الرمانى ، بل هى تقع بها مقترنة فى نسقه المحكم ، بحيث لا يقال : إن التشبيه معجز أو التجنيس معجز، إنما يقال :

(١) إعجاز القرآن للباقلانى ص ١٦١.

إنهما معجزان بنظمهما وصوغهما الذى يسمو إلى الطبقة العالية من طبقات البلاغة الثلاث[1] ، وبهذا يتضح لنا رأى الباقلانى فى وجوه البديع أتحقق الإعجاز أم لا ؟ فهو يرى أن وجوه البديع إذا نظر إليها مجردة عن نظمها بعيدة عن سياقها، لا يقال إنها تحقق الإعجاز ، لأنها مما يتعلم ويتوصل إليها بالتدرب والمران . أما إذا نظر إليها فى سياقها ونظمها البديع العجيب الذى لا يدانيه نظم ، فعندئذ يقال إنها معجزة بنظمها وسياقها وصياغتها التى تسمو إلى الطبقة العليا من طبقات البلاغة الثلاث.

إعجاز القرآن لعبد الجبار " ت ٤١٥هـ" هو القاضى أبو الحسن عبد الجبار الأسد آبادى قاضى قضاة الدولة البويهية بإيران أكبر أعلام المعتزلة فى عصره ، وإعجاز القرآن هذا هو الجزء السادس عشر من كتابه : " المغنى فى أبواب التوحيد والعدل" ويقع فى ثمان وأربعين وثلاثمائة صحيفة " وقد عرض عبد الجبار فى هذا الجزء رأيين فى الإعجاز، أولهما لأستاذه أبى هاشم الجبائى وثانيهما رأيه هو ، وكأنه أدرك أن فى فكرة أستاذه نقصاً حيث لم يعتد بالنظم فى القول بالإعجاز ، وقد عرض عبد الجبار كل رأى منهما فى فصل مستقل . يقول فى أولهما : " وقال شيخنا أبو هاشم : إنما يكون الكلام فصيحاً لجزالة لفظه وحسن معناه ، ولابد من اعتبار الأمرين؛ لأنه لو كان جزل اللفظ ركيك المعنى " لم يعد فصيحاً . فإذًا يجب أن يكون جامعاً لهذين الأمرين ، وليس فصاحة الكلام بأن يكون له نظم مخصوص، لأن الخطيب عندهم قد يكون أفصح من الشاعر والنظم مختلف ، إذا أريد بالنظم اختلاف الطريقة ، وقد يكون النظم واحداً وتقع المزية فى الفصاحة ، فالمعتبر ما ذكرناه ، لأنه الذى يتبين فى كل نظم وكل طريقة ، وإنما يختص النظم بأن يقع لبعض الفصحاء يسبق إليه ثم يساوريه فيه غيره من الفصحاء ، فيساويه فى ذلك النظم ، ومن يفضل عليه يفضله فى ذلك النظم"[2] ، فهو لا يعتد بالنظم ، ولا يقر بأنه يصلح مفسراً للفصاحة والبلاغة وكأنه يرد على الحاجز وغيره من العلماء الذين يرجعون إعجاز القرآن إلى نظمه البديع العجيب ، والمعول عليه عنده فى فصاحة

---

(١) انظر إعجاز القرآن للباقلانى ص ٣٩٦.

(٢) إعجاز القرآن " المغنى " جـ ١٦ ص ١٩٧.

الكلام هو جزالة اللفظ ، وحسن المعنى وقد أدرك عبد الجبار ما فى رأى أستاذه من قصور - كما قلنا - ومن خطأ إهمال النظم وعدم الاعتداد به فعقد فصلا ثانياً يصور فيه رأيه ويقر بالنظم مرجعاً للمزية والفصاحة، ثم أخذ يبين معنى النظم وما ينبغى مراعاته واعتباره فيه من عوامل ، وقد أفاد عبد القاهر من ذلك كثيراً فى تقرير نظرية النظم وإبرازها والكشف عن دقائقها وتحليل شواهدها - كما سنرى - يقول عبد الجبار :

" واعلم أن الفصاحة لا تظهر فى أفراد الكلام ، وإنما تظهر فى الكلام بالضم على طريقة مخصوصة ، ولابد مع الضم من أن يكون لكل كلمة صفة ، وقد يجوز فى هذه الصفة أن تكون بالمواضعة التى تتناول الضم ، وقد تكون بالإعراب الذى له مدخل فيه ، وقد تكون بالموقع ، وليس لهذه الأقسام الثلاثة رابع ، ولأنه إما أن تعتبر فيه الكلمة أو حركاتها أو موقعها ، ولابد من هذا الاعتبار فى كل كلمة ، ثم لابد من اعتبار مثله فى الكلمات إذا انضم بعضها إلى بعض ؛ لأنه قد يكون لها عند الانضمام صفة ، وكذلك لكيفية إعرابها وحركاتها وموقعها ، فعلى هذا الوجه الذى ذكرناه إنما تظهر مزية الفصاحة بهذه الوجوه دون ما عداها . فإن قال قائل : فقد قلتم إن فى جملة ما يدخل فى الفصاحة حسن المعنى ، فهلا اعتبر تموه ؟ قيل له : إن المعانى وإن كال لابد منها فلا تظهر فيها المزية - ولذا نجد المعبرين عن المعنى الواحد يكون أحدهما أفصح من الآخر والمعنى متفق على أنا نعلم أن المعانى لا يقع فيها تزايد . فإذاً يجب أن يكون الذى يعتبر التزايد عنده الألفاظ التى يعبر بها عنها . فإذا صحت هذه الجملة ، فالذى تظهر به المزية ليس إلا الإبدال الذى به تختص الكلمات أو التقدم والتأخر الذى يختص الموقع أو الحركات التى تختص الإعراب ، فبذلك تقع المباينه بين الكلام[1] ، وواضح أنه هنا يناقض رأى أستاذه الذى ذكره آنفا ، ويقر بالتعويل على النظم الذى هو الضم على طريقة مخصوصة ، فالكلمة لا تعد فصيحة فى نفسها ، بل لابد من ملاحظة صفات مختلفة لها ، لابد من ملاحظة أبدالها ونظائرها . ولابد من ملاحظة حركاتها فى الإعراب . ولابد من ملاحظة موقعها فى التقديم والتأخير.

---

(١) المغنى جـ ١٦ ص ١٩٩.

ويضيف عبد الجبار فى شرح هذه النظرية وبيان ما للنظم من مزايا معتبرة فيقول: "ولا يمتنع فى اللفظة الواحدة أن تكون إذا استعملت فى معنى تكون أفصح منها إذا استعملت فى غيره ، وكذلك فيها إذا تغيرت حركاتها ، وكذلك القول فى جملة من الكلام : وهذا يبين أن المعتبر فى المزية ليس بنية اللفظة ، وأن المعتبر فيها ما ذكرناه من الوجوه ، فأما حسن النغم وعذوبة القول فمما يزيد الكلام حسناً على السمع، لا أنه يوجد فضلا فى الفصاحة ، ولا فضل فيما ذكرناه بين الحقيقة والمجاز ، بل ربما كان المجاز أدخل فى الفصاحة لأنه كالاستدلال فى اللغة . وكذلك فلا معتبر بقصر الكلام وطوله وبسطه وإيجازه ، لأن كل ضرب من ذلك ربما يكون أدخل فى الفصاحة فى بعض المواضع من صاحبه"(١).

وقد أفاد عبد القاهر الجرجانى فى تجليته لنظرية النظم ، من كلام عبد الجبار هذا، وبين أن اللفظة المجردة لا يعتد بها ، ودليل ذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك فى موضع ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك فى موضع آخر ، وقد عرض لذلك الشواهد الكثيرة محللا لها وموضحا ، كما بين أن الصور البيانية من الاستعارة وغيرها لادخل لها فى النظم الذى عليه المعول فى معرفة الإعجاز ومزايا الكلام ، على نحو ما سنرى عند حديثنا عن أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز إن شاء الله .

وبجانب هذه الكتب التى برزت فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى وتناولت أوجه الإعجاز القرآنى ، وجدت مؤلفات أخرى أدبية دارت حول الشعر والشعراء ، وأهم هذه المؤلفات : عيار الشعر لابن طباطبا ، والموازنة بين أبى تمام والبحترى للآمدى ، والوساطة بين المتنبى وخصومه لعلى بن عبد العزيز الجرجانى ، فأنت تعلم أنه فى القرآن الثالث الهجرى وجد مذهبان واضحان فى الشعر ، مذهب أبى تمام الذى أسرف فى المحسنات البديعية إسرافاً شديداً وتميز بالتعمق فى المعانى والغوص

---

(١) المغنى جـ ١٦ ص ٢٠٠.

وراءها. ومذهب البحترى الذى لم يسرف فى البديع و لم يكن يأخذ نفسه بفلسفة ولا ثقافة ، وكان لكل شاعر أنصار ومؤيدون ، فجاء كتاب الموازنة لينظر فى شعر الشاعرين ويوازن بين طريقتيهما ... وفى الوقت نفسه كان المتنبى قد ملأ الدنيا دوياً بشعره وما اتخذه من أسلوب التكلف الذى يؤدى المعانى الموروثة بطرق ملتوية جديدة وكان ذا بصيرة نافذة ، كثير الترحال معتدا بنفسه ، ذا كبرياء وترفع فكثر خصومه فى كل مكان ، فى حلب ومصر وبغداد ومدينة الرى ، وألفوا كتباً ورسائل لبيان سرقاته والكشف عن مساوئه ، فجاء كتاب الوساطة لينظر فى شعر المتنبى متوسطا بينه وبين خصومه ليحق الحق ويبطل الباطل فى شعره وكلام النقاد .. أما كتاب عيار الشعر فكتاب عام لا يختص بشاعر بعينه ، وهذه الكتب الثلاثة كتب نقدية قامت على أسس بلاغية ، وامتزجت فيها مباحث النقد بالبلاغة ... فتعالوا ننظر فيها ونتجول فى صفحاتها لنقف على ما بها من أسس بلاغية ، ونعرف مدى إفادتهم من السلف ، وإفادة الخلف مما أشاروا إليه وقرروه.

عيار الشعر لابن طباطبا " ت ٣٢٢هـ" : مؤلف هذا الكتاب هو محمد بن أحمد ابن طباطبا العلوى الأصبهانى ، كان من نقاد عصره وشعرائه ، وكتاب عيار الشعر من أهم مؤلفاته ، وهو كتاب ألفه فى صناعة الشعر ومعرفة الميزان الذى به تقاس بلاغته ... وقد تأثر كثيرا بالجاحظ وكتاباته وبابن قتيبة ، إذ نراه يتحدث عن الملاءمة بين الألفاظ والمعانى ، وبين الكلام وأحوال المستمعين ، وما ينبغى على الشاعر من إحكام العبارة وحسن النظم ، وحسن التخلص من غرض إلى غرض ، وينقل حديث ابن قتيبة عن اللفظ والمعنى ، فى مقدمة كتابه الشعر والشعراء ، فيشير إلى تقسيم الشعر إلى ما حسن لفظه وجاد معناه ، وما حسن لفظه دون معناه ، أو معناه دون لفظه ، وما تأخر لفظه ومعناه .

ومن أهم المباحث البلاغية التى عرض لها "مبحث التشبيه " فقد فصل فيه القول ، وبخاصة فى التشبيهات الحسية ، وعرض لروائعه ورديئه ، وتحدث عن طريقة العرب فى التشبيه ، فذكر أنهم ضمنوا أشعارهم من التشبيهات ما أدركه من ذلك عيانهم وحسهم

إلى ما فى طبائعهم وأنفسهم من محمود الأخلاق ومذمومها ، وفصل القول فى وجوه التشبيه وأقسامه ، فأبرز أن الشئ قد يشبه بالشئ صورة وهيئة كما فى قول امرئ القيس:

كأن عيون الوحش حلو خبائنا　　　وأرحلنا الجزع الذى لم يثقب

والجزع : خرز فيه بياض وسواد . وقد يشبه الشئ بالآخر لونا وصورة كتشبيه الثغر بالأقحوان ، إذ لونهما وصورتهما سواء ، وقد يشبه الشئ بالشئ صورة ولونا وحركة وهيئة كقولهم : الشمس كالمرآه فى كف الأشل وقد يشبه الشئ بالآخر حركة وهيئة ، كقول الأعشى متغزلا :

كأنه مشيئتها من بيت جارتها　　　مرُّ السحابة لا ريث ولا عَجَل

وقد يشبه الشئ بالشئ معنى لا صورة ، كتشبيه الجواد بالبحر والشجاع بالأسد، والماضى فى الأمور بالسيف ، وقد يشبه الشئ بالشئ حركة وبطئاً وسرعة ، كقول امرئ القيس فى وصف فرسه :

مكر مفر مقبل مدبر معاً　　　كجلمود صخر حطه السيل من عل

وقد يشبه الشئ بالشئ لونا ، كتشبيه الخمر بدم الذبيح والليل بلون الغراب وقد يشبه الشئ بالشئ صوتاً ، كتشبيه صوت النبل فى الحروب بنواح الثكلى . وبهذا يتضح لك اختلاف وجهة نظر ابن طباطبا إلى التشبيه ، عن وجهة نظر الرمانى فبينما اهتم الأخير بالتشبيه العقلى وسماه تشبيه البلاغة اهتم ابن طباطبا بالتشبيهات الحسية، وفصل فيها القول على نحو ما رأيت ، وقد أشار إلى بعض أدوات التشبيه كالكاف وكأن ومثل وتراه وتخاله ويكاد ، ونوه بالتشبيهات الغريبة البديعة ، كقول مسلم بن الوليد :

وإنى وإسماعيل يوم فراقه　　　لكالغمد يوم الروع زايله النصل

فإن أغشَ قوما بعده أو أزرْهم　　　فكالوحش يدنيها من الأَنَس المحل(١)

---

(١) يوم الروع : يوم الحرب . زايله : فارقه : المحل : الجدب .

وتحدث عن التشبيهات المعيبة معللا أسباب عيبها ، فقد يكون العيب راجعاً لشدة الغلو فيها أو لنبو التشبيه عن الذوق أو لتشبيه كبير بصغير كتشبيه السهام بأعناق الظباء...

كما تحدث ابن طباطبا عن فنون بديعية كثيرة أشار إليها السابقون منها : رد الأعجاز على الصدور وما ينبغي على الشاعر من مراعاة تماسك المعانى ، واتصال أول الكلام بما يليه ، حتى لكأنه يستدعيه ، ومنها الكناية وقد سماها التعريض ، وعن الغلو كما فى قول أبى نواس :

وأخفت أهل الشرك حتى إنه لتخافك النطف التى لم تخلق

وتحدث عن السرقات الشعرية ، فأشار إلى أن للشاعر أن يتناول المعانى الموروثة بشرط أن يتلطف فى عرضها وأن يعمل الحيلة فى تناولها فينقلها من غرض إلى غرض . ونبه الشعراء إلى ضرورة تخير الكلمات المعبرة الموحية والبعد عن الكلمات القلقة التى ينبو بها موضعها وتستكره فيه . وتحدث عنه براعة الاستهلال وحسن التخلص وما ينبغى على الشاعر من الملاءمة بين معانى الشعر ومبانيه ، وأن يخلو فى افتتاحياته مما يتشاءم به ويتطير وبخاصة فى المديح ، وتحدث عن الوحدة العضوية فأشار إلى ضرورة أن تترابط أبيات القصيدة حتى تغدو بناء محكما متشاكلا انظر إلى قوله :" أحسن الشعر ما ينتظم القول فيه انتظاما ينسق به أوله مع آخره على نحو ما ينسقه قائله ، فإن قدم بيت على بيت دخله الخلل كما يدخل الرسائل والخطب إذا نقص تأليفها ، فإن الشعر إذا أسس تأسيس فصول الرسائل القائمة بأنفسها ، وكلمات الحكمة المستقلة بذاتها والأمثال السائرة الموسومة باختصارها لم يحسن نظمه ، بل يجب أن تكون القصيدة كلها ككلمة واحدة فى اشتباه أولها بآخرها نسجا وحسنا وفصاحة وجزالة ألفاظ ودقة معان وصواب تأليف ، ويكون خروج الشاعر عن كل معنى يصنعه إلى غيره من المعانى خروجا لطيفا على ما شرطناه فى أول الكتاب حتى تخرج القصيدة كأنها مفرغة إفراغاً كالأشعار

التى استشدنا بها فى الجودة والحسن واستواء النظم ، لا تناقض فى معانيها ولا وهى فى مبانيها ولا تكلف فى نسجها تقتضى كل كلمة ما بعدها ، ويكون ما بعدها متعلقا بهـــا مفتقراً إليها"(١)..

الموازنة بين أبى تمام والبحترى للآمدى : " ت ٣٧١ هـــ "مؤلف هذا الكتـــاب هو أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدى ، له مؤلفات مختلفة فى اللغة والشعر ، وأهمها هذا الكتاب الذى نحن بصدد الحديث عنه " الموازنة " وقد ألفه ليوازن بين شـــعر الشـــاعرين الكبيرين : أبى تمام والبحترى - كما أســـلفنا - والذى يعنينا هنا ونحن نؤرخ للبلاغـــة ، ما فى الكتاب من أسس بلاغية قامت عليها تلك الموازنة ، وأهمها ما يلى :

السرقات الشعرية : فقد تحدث عن سرقات الشاعرين : وذكر أن كثـــيرا مـــن المعانى عام فهو للشعراء جميعاً يشتركون فيه دون أن يقال إن أحدهما أخذ من الثانى، لأن حكمه فيه كحكم صاحبه ، فلا فضل لسابق على تال .. أما الذى ينبغى أن يقـــال إنـــه مأخوذ أو مسروق فهو المعانى الخاصة والبديع الذى ليس للشعراء فيه اشتراك .

الاستعارة : وتحدث الآمدى عن الاستعارة فقال : " إنما استعارت العرب المعنـــى لما ليس له إذا كان يقاربه أو يدانيه أو يشبهه فى بعض أحواله أو كان سبباً من أســـبابه ، فتكون اللفظة المســـتعارة حينئذ لائقة بالشئ الذى استعيرت لـــه وملائمـــة لمعنـــاه"(٢) ، ويعرض لطائفة من الاستعارات القبيحة عند أبى تمام كقوله :

يا دهر قوم من أخْدَعَيك فقـــد ... أضججتَ هذا الأنام من خُرُقِك

وقوله :

تروح علينا كل يـــوم وتغتـــدى ... خطوب كأن الدهر منهن يصرع

وقوله فى رثاء غلام :

أنزلته الأيام عن ظهرهـــا مـــن ... بعد إثبات رجله فى الركـــاب

---

(١) عيار الشعر ص ١٢٩.

(٢) الموازنه ص ١٢٤.

ويرجع الآمدى قبح هذه الاستعارات إلى بعد المشبه عن المشبه به وعدم وجـود وجه شبه يجمع بينهما ... ولنا أن ندافع عن أبى تمام فنقول أن الاستعارة فى الأبيات من قبيل الاستعارة المكنية التى تبنى - غالباً - على التشخيص والتجسيد ونقل عناصر الطبيعة والمعنويات من عالمها إلى العالم الحى المتحرك ، بغض النظر عن التدقيق ومحاولة التمـاس وجه شبه ، أو إدناء وتقريب المستعار له من المستعار منه [1] .

الجناس والطباق : وتحدث عن الجناس والطباق مبرزاً أخطاء الشاعرين وإساءتهما فى استخدام هذين اللونين ، ومشيراً إلى إفراط أبى تمام وإسرافه فى استخدامهما ... وتلوم قدامة فى مخالفته لابن المعتز وتسميته الطباق باسم التكافؤ ، والجناس التام باسم المطابق ..

التعقيد اللفظى : وتحدث عن سوء نظم أبى تمام وتعقيد ألفاظه وما يجـرى فـى شعره من غريب ، وأشار إلى أن قدامة قد أخطأ فى فهم معنى المعاظلة ، حيث أطلقهـا على فاحش الاستعارة وإنما المراد بها سوء النظم وتداخل أجزاء الكلام وركوب بعضـه بعضا ، أى : التعقيد اللفظى المخل بالفصاحة .

حسن الابتداء : كما تحدث عن حسن الابتداءات ، فنـوه كثـيرا بـابتداءات البحترى ، وأزرى بكثير من ابتداءات أبى تمام :

الوسـاطة بين المتنبى وخصومه : مؤلف هذا الكتاب - كما أشرنا - هو على ابن عبد العزيز الجرجانى " ت ٣٩٢ " ، وكان يتولى القضاء للدولة البويهية فى إيـران، وقد أراد بهذا الكتاب أن يتوسط بين المتنبى وخصومه ، وأن يحكم بينهمـا بالقسـطاس المستقيم، وقد بدأ بالحديث عن أخطاء الشعراء قدماء ومحدثين فى ألفاظهم ومعانيهم ثـم أشار إلى أن أبا تمام يتفاوت شعره بين السهولة والإغراب اللفظى ، بينما يمتاز البحـترى بالسهل الممتنع والسمح المنقاد ... ومضى يتحدث عن البديع ووجوهه وصوره ، فذكـر أنها كانت تأتى قليلة وبدون تعمد ولا تكلف فى أشعار الجاهليين والإسلاميين ، فلمـا

---

(١) انظر البلاغة تطور وتاريخ ص ١٣٠.

أفضى الشعر إلى المحدثين من العباسيين أكثروا منها إكثاراً ... والذى يهمنا هو مـــا فـــى الكتاب من فنون البديع ومسائل البلاغة ... وأهم ما نجده :

التشبيه والاستعارة : تحدث الجرجانى عن التشبيه وأغراضـــه وعـــن الاســـتعارة ومعناها ، والفرق بينها وبين التشبيه البليغ ، فنراه يذكر بيت المتنبى :

بليت بلى الأطلال إن لم أقـــف ... وقوف شحيح ضاع فى الترب خاتمه

ثم يعلق عليه فائلا " إن التشبيه والتمثيل قد يقع تارة بالصورة والصفة وأخـــرى بالحال والطريقة ، فإذا قال الشاعر وهو يريده إطالة وقوفه : إنى أقف وقـــوف شـــحيح ضاع خاتمه ، لم يرد التسوية بين الوقوفين فى القدر والزمان والصورة ، وإنما يريد : لأقفن وقوفا زائدا على القدر المعتاد خارجا عن حد الاعتدال ، كما أن وقوف الشحيح يزيـــد على ما يعرف فى أمثاله وعلى ما جرت به العادة فى أضرابه ، وإنما هو كقول الشاعر :

رب ليل أمد مـــن نفـــس العـــا ... شق طولا قطعتـــه بانتحـــاب

ونحن نعلم أن نفس العاشق بالغاً ما بلغ لا يمتد امتداد أقصر أجزاء الليـــل ، وأن الساعة الواحدة من ساعاته لا تنقضى إلا عن أنفاس لا تحصى ، كائنة مـــا كـــانت فـــى امتدادها وطولها ، وإنما مراد الشـــاعر أن الليل زائد فى الطول على مقـــادير الليـــالى ، كزيادة نفس العاشق على الأنفاس"[1] وهذه ملاحظة دقيقة فى تفهم مراد الشاعر وفقـــه الصورة التشبيهية ، وما يكمن وراءها من دلالات وإيحاءات ... ويتحدث عن أغـــراض التشبية فيقول : " للشـــعراء فى التشبيه أغراض ، فإذا شبهوا بالشـــمس فـــى موضـــع الوصف بالحسن أرادوا به البهاء والرونق والضياء ونصوع اللون والتمام ، وإذا ذكروه فى الوصف بالنباهة والشهرة أرادوا به عموم مطلعها وانتشار شعاعها ، واشـــتراك الخـــاص والعام فى معرفتها وتعظيمها ، وإذا قرنوه بالجلال والرفعة ، أرادوا به أنوارهـــا وارتفـــاع محلها ، وإذا ذكروه فى باب النفع والإرفاق ، قصدوا به تأثيرها فـــى النشـــوء والنمـــاء

(١) الوساطة ٤٧١.

والتحليل والتصــفية . ولكل واحد من هذه الوجوه باب مفرد وطريق متمــيز ، فقد يكون المشبه بالشمس فى العلو والنباهة والنفع والجلالة أسود ، وقد يكون منير الفعال كمد اللون واضح الأخلاق كاسف المنظر "[١] ، وتلك نظرة دقيقة فى تحديد وجه الشبه ، فقد يكون المشبه به واحداً ويختلف وجه الشبه باختلاف الغرض من التشبيه ، وقد أفاد البلاغيون من هذه النظرة فى بيان وجه الشبه وتحديد أغراض التشبية ... ويفرق بين الاستعارة والتشبيه البليغ فيقول : " وربما جاء من هذا الباب ما يظنه الناس استعارة وهو تشبيه أو مثل فقد رأيت بعض أهل الأدب ذكر أنواعاً من الاستعارة عد فيها قول أبى نواس :"

والحب ظهــر أنــت راكبــه　　　فإذا صرفــت عنانــه انصرفــا

ولسـت أدرى هذا وما أشبهه استعارة ، وإنما معنى البيت أن الحب مثل ظهر أو الحب كظهر تديره كيف شئت إذا ملكت عنانه ، فهو إما ضرب مثل أو تشبيه شيئ بشئ ... وإنما الاستعارة ما اكتفى فيها بالاسم المستعار عن الأصل ، ونقلت العبارة فجعلت فى مكان غيرها ... وملاكها تقريب الشبه ومناسبة المستعار المستعار له للمستعار منه ، وامتزاج اللفظ بالمعنى حتى لايوجد بينهما منافرة ولا يتبين فى أحدهما إعراض عن الآخر ... "[٢] فهو هنا يفرق بين التشبية البليغ والاستعارة ويشير إلى خطأ البعض فى الخلط بينهما ويجعل الاستعارة مبنية على النقل كما صنع الجاحظ وابن المعتز والرمانى قبله، ثم نراه متأثرا بالآمدى يشير إلى ضرورة وجود الشبه والمناسبة والامتزاج وعدم التنافر بين المستعار له والمستعار منه ... وقد تأثر عبد القاهر بالقاضى وأفاد منه كثيرا من مباحثه فى الاستعارة والتشبيه ، إذ نراه يستمد منه ، ويصرح باسمه كثيرا ... انظر إلى قوله : " اعلم أن الوجه الذى يقتضيه القياس وعليه يدل كلام القاضى فى الوساطة،

---

(١) الوساطة ٤٧٤ .

(٢) الوساطة ٤١.

ألا تطلق الاستعارة على نحو قولنا : زيد أسد وهند بدر ، ولكن تقول هو تشبيه ، فإذا قال قائل هو أسد لم تقل استعار له اسم الأسد ، ولكن تقول : شبهه بالأسد"(١) .

التجنيس : وينتقل القاضى إلى التجنيس فيقسمه أقساما ويطلق على كل قسم مصطلحا ، وقد رأيت ابن المعتز يذكر شواهد مختلفة لأقسام الجناس ، ولكنه لم يسمها كماسماها القاضى ، وكأن القاضى قد استمد من تلك الشواهد ، وأطلق عليها هذه المصطلحات التى تناقلها البلاغيون بعده . فمن هذه الأقسام المطلق ، وقد سماه بعض البلاغيين باسم : جناس الاشتقاق كما فى قول أبى تمام :

تطل الطلول الدمع فى كل موقف وتمثل بالصبر الديار المواثل

ومنه المستوفى وهو الجناس الكامل الذى أطلق عليه قدامة المطابق ، كقول أبى تمام .

ما مات من كرم الزمان فإنه يحيا لدى يحيى بن عبد الله

ومنه الناقص ، كقول الأخنس بن شهاب :

وحامى لواء قد قتلنا وحامل لواء منعنا والسيوف شوارع

ومنه التجنيس المضاف كقول البحترى :

أيا قمر التمام أعنت ظلما على تطاولَ الليلِ التِّمام

وذلك أن معنى التمام واحد فى الموضعين ، ولو انفراد لم يعد تجنيسا ، ولكن أحدهما صار موصولا بالقمر والآخر بالليل ، فكانا كالمختلفين ومنه التصحيف كقول البحترى فى المعتز بالله وبعض الخارجين عليه :

و لم يكن المغتر بالله إذ سرى ليعجز والمعتز بالله طالبه

---

(١) أسرار البلاغة ص ٢٩٨.

فجانس بين " المغتر والمعتز " جناس تصحيف[1].

المطابقة : وتحدث القاضى عن المطابقة فأورد كثيرا من شواهدها وذكر أن لهـــا شعبا خفية، وأشار إلى طباق السلب ، كقول البحترى:

يقيض لى من حيث لا أعلم الهوى ويسرى إلى الشوق من حيث أعلم

وقد أشار إلى ذلك الباقلانى - كما مر بك فى الحديث عنه ...

السرقات الشعرية : وتحدث عن السرقات الشعرية ففصل فيها القول وذكر أنها أنواع مختلفة ، واضعاً لكل نوع منها اسماً ، وقد اقتدى بـــه البلاغيـــون فتنـــاقلوا هـــذه التسميات . يقول القاضى فى ذلك : "هذا باب لا ينهض به إلا الناقد البصير والعالم المبرز وليس كل من تعرض له أدركه ، ولا كل من أدركه اســتوفاه واستكمله ، ولست تعــد من جهابذة الكلام ونقاد الشعر حتى تميز بين أصنافه وأقســامه ، وتحيط علمـــاً برتبــه ومنازله فتفصل بين السرق والغصب وبين الإغارة والاختلاس ، وتعـــرف الإلمـــام مــن الملاحظة ، وتفرق بين المشترك الذى لا يجوز ادعاء السرق فيه والمبتذل الذى ليس أحـــد أولى به ، وبين المختص الذى حازه المبتدئ فملكه ، وأحياه الســابق فاقتطعـــه، فصـــار المعتدى مختلساً سارقاً والمشارك له محتذيا نابعاً ، وتعرف اللفظ الذى يجوز أن يقال فيـــه : أخذ ونقل ، والكلمه التى يصح أن يقال فيها هى لفلان دون فلان[2] .

وأخذ القاضى يعرض الأمثلة للأقسام التى ذكرهـــا مـــن الغصـــب والإغـــارة والاختلاس والإلمام والملاحظة ، ومن طريف ما وقف عنده تبادل المعانى والأغـــراض ، وهو يدخل فى الاختلاس ، كما فى قول جرير متغزلا:

بعثن الهوى ثم ارتمـــين قولبنـــا بأسهم أعداء وهـــو صديـــق

---

(١) انظر الوساطة ص ٤١ وما بعدها.

(٢) الوساطة ١٨٣.

فقد نقله أبو نواس إلى ذم الدنيا والزهد فيها فقال :

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت ... له عن عدو فى ثياب صديق

ومن ذلك أيضاً ما يجئ به الشعراء على وجه القلب والنقض مما يدخل فى الإلمام والملاحظة ، كقول أبى الشيص :

أجد الملامة فى هواك لذيذة ... حبا لذكرك فليلمنى اللوم

فقد نقضه المتنبى بقوله:

أأحبه وأحب فيه ملامة ... إن الملامة فيه من أعدائه

إلى غير ذلك من الفنون البلاغية التى عرض لها القاضى ، كصحة الأقسام وبراعة الاستهلال وحسن التخلص والخاتمة ، والمبالغة والغلو ، يقول فى الغلو " أما الإفراط فمذهب عام فى المحدثين ، وموجود كثيراً فى الأوائل ، والناس فيه مختلفون فمستحسن قابل ومستقبح راد ، وله رسوم متى وقف الشاعر عندها ، ولم يتجاوز الوصف حدها جمع بين القصد والاستيفاء وسلم من النقص والاعتداء ، فإذا تجاوزها اتسعت له الغاية ؛ وأدته الحال إلى الإحالة وإنما الإحالة نتيجة الإفراط ، وشعبة من الإغراق ، والباب واحد ولكن له درج ومراتب ... "(١).

كتاب الصناعتين للعسكرى " ت ٣٩٥هـ " : هو أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكرى ، له مؤلفات كثيرة زادت على العشرين مؤلفاً ، ما زال معظمها مخطوطا ، وأهم هذه المؤلفات : كتاب الصناعتين ، ويريد بالصناعتين : صناعتى الكتابة والشعر ، وليس هو أول من سمى الأدب : صناعة ، بل سبقه إلى ذلك بشر بن المعتمر ، - كما رأينا فى صحيفته - ، وقدامة الذى ذكر أن الشعر صناعة وكل صناعة لها طرفان : غاية فى الجودة ، وغاية فى الرداءة وبينهما وسائط ... ويفتتح أبو هلال كتابه بمقدمة ينوه فيها بشأن البلاغة ، وضرورة معرفتها والإلمام بمسائلها ، ذاكرا أهميتها بين العلوم الأخرى ،

---

(١) الوساطة ٤٢٠.

فهى ضرورية لفهم إعجاز القرآن الكريم ، وللتمييز بين جيد الكلام ورديئه ، والوقوف على ما ينبغى استخدامه من أساليب اللغة الرفيعة وألفاظها الجيدة ، ثم يخبر عن الغاية من تأليفه الكتاب فيقول : " فلما رأيت تخليط هؤلاء الأعلام فيما راموه من اختيار الكلام، ووقفت على موقع هذا العلم من الفضل ، ومكانه من الشرف والنبل ، ووجدت إليه الحاجة ماسة ، والكتب المصنفة فيه قليلة ، وكان أكبرها وأشهرها كتاب " البيان والتبيين " لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، وهو لعمرى كثير الفوائد، جم المنافع ، لما اشتمل عليه من الفصول الشريفة والفقر اللطيفة ، والخطب الرائعة والأخبار البارعة ، وما حواه من أسماء الخطباء والبلغاء ، وما نبه عليه من مقاديرهم فى البلاغة والخطابة ، وغير ذلك من فنونه المختارة ونعوته المستحسنة ، إلا أن الإبانة عن حدود البلاغة وأقسام البيان والفصاحة مبثوثة فى تضاعيفه ، ومنتشره فى أثنائه فهى ضالة بين الأمثلة ، لا توجدد إلا بالتأمل الطويل والتصفح الكثير ، فرأيت أن أعمل كتابى هذا مشتملا على جميع ما يحتاج إليه فى صنعة الكلام نثره ونظمه ، ويستعمل فى محلوله ومعقوده من غير تقصير وإخلال ، وإسهاب وإهذار ... " (١).

ثم يذكر أنه لم يؤلفه على طريقة المتكلمين ، وإنما ألفه على طريقة صناع الكلام من الشعراء والكتاب ، وهو كذلك فقد مضى فيه على طريقة ابن المعتز يكثر من الأمثلة والشواهد من القرآن الكريم والحديث الشريف وكلام الصحابة والعرب وأشعار المتقدمين والمحدثين . وقد احتوى الكتاب على عشرة أبواب مشتملة على ثلاثة وخمسين فصلا .

الباب الأول : للإبانة عن موضوع البلاغة ويتكون من ثلاثة فصول ، وقد تحدث فيه عن البلاغة فى أصل اللغة ، وما جاء فيها من أقوال السابقين فى ذكر حدودها وشرح وجودها ، وما يجرى معها من تصرف لفظها ، وضرب لذلك الأمثلة والشواهد .

---

(١) الصناعتين ١٠، ١١.

الباب الثانى : فى معرفة الكلام وتمييز جيده من رديئه ومحموده من مذمومه وقد تكون من فصل واحد .

الباب الثالث : فى معرفة صنعة الكلام وترتيب الألفاظ ويتكون من فصلين.

الباب الرابع : فى الحديث عن حسن السبك وجودة الرصف ويتكون من فصل واحد .

الباب الخامس : فى ذكر الإيجاز والإطناب ويتكون من فصلين وقد جعل بينهما المساواة ، فالكلام عنده إيجاز أو إطناب أو مساواة .

الباب السادس : فى السرقات ويتكون من فصلين تحدث فيهما عن حسن الأخذ وقبحه ، وعن جودته ورداءته .

الباب السابع : فى التشبيه ويتكون من فصلين .

الباب الثامن : فى ذكر السجع والازدواج وهو فصلان .

الباب التاسع : فى شرح البديع والإبانة عن وجوهه وحصر أبوابه وفنونه ويتكون من خمسة وثلاثين فصلا.

الباب العاشر : فى ذكر مقاطع الكلام ومباديه والقول فى الإساءة فى ذلك والإحسان فيه ، ويتكون من ثلاثة فصول .

وقد تأثر أبو هلال فى تناوله لهذه الأبواب بمن سبقه من العلماء واستمد كثيرا من أقوالهم ، تأثر بالجاحظ فى حديثه عن حسن السبك وجودة النظم وتمييز جيد الكلام من رديئه ، وتأثر بالرمانى فى حديثه عن التشبيه ونقل أقواله فيه وكذا بابن طباطبا ، كما تأثر بالرمانى فى حديثه عن السجع والازدواج وأدخل فيهما فواصل القرآن الكريم مخالفا له ، وكذا فى حديثه عن الإيجاز وتقسيمه إلى إيجاز قصر وإيجاز حذف ، واقتدى بقدامة فى القول بالمساواة وبابن المقفع فى ذكر الإطناب ، وكذا بالجاحظ ، وتأثر بالآمدى والقاضى فى حديثه عن السرقات الشعرية وحسن الأخذ وقبحه ، وكان شديد التأثر بأستاذه وخاله " أبى أحمد العسكرى " وعندما ينقل عنه تراه يقول : " أخبرنى " ونحو ذلك مما يدل على السماع والمشافهة وقد كانوا يقدمون السماع على النقل من الكتب .

هذا ونلاحظ أن الأبواب من الخامس إلى الثامن ، وكذا الباب العاشر يمكن إدماجها فى الباب التاسع الذى تحدث فيه عن فنون البديع ، لأنه يتناول فيها فنونا بديعية الإيجاز والإطناب والسرقات والتشبيه والسجع والازدواج وحسن الابتداء وحسن التخلص ، وكلها تدخل أى : يمكن تناولها فى الباب التاسع الذى خصصه لفنون البديع... وعندما ننظر فى فنون البديع التى ذكرها فى الباب التاسع نجدها خمسة وثلاثين، يذكر أبو هلال أنه زاد فيها على ما أورده سابقوه ستة فنون ، فهو يلتقى معهم فى تسعة وعشرين فناً نقلها عن سابقيه وعن خاله : أبى أحمد العسكرى، وهذه الفنون هى : الاستعارة - التطبيق - التجنيس - المقابلة - صحة التقسيم - صحة التفسير - الإشارة - الإرداف والتوابع - المماثلة - الغلو - المبالغة - الكناية - والتعريض - العكس - التذييل - الترصيع - الإيغال - التوشيح - رد الأعجاز على الصدور - التتميم والتكميل والالتفات - الاعتراض - الرجوع - تجاهل العارف - الاستطراد ويعرفه بقوله : " هو أن يأخذ المتكلم فى معنى فبينما يمر فيه يأخذ فى معنى آخر، وقد جعل الأول سببا إليه "(١) .

وقد سماه ابن المعتز " الخروج " ، ومما أنشد له أبو هلال قول حسان بن ثابت :

إن كنت كاذبة الذى حدثتنى　　فنجوت منجى الحارث بن

ترك الأحبة أن يقاتل عنهم　　ونجا برأس طمِرَّةٍ ولجام

- جمع المؤتلف والمختلف ويعرفه بقوله : " هو أن يجمع فى كلام قصير أشياء كثيرة مختلفة أو مؤتلفة كقوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ﴾(٢) ، وقوله عز وجل : ﴿ إنَّ اللهَ يَأْمُرُ بالعَدلِ وَالإحسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى القُرْبَى وَيَنهى عَنِ الفَحْشاء والْمُنْكَرِ والبَغْىِ﴾(٣) ، وساق شواهد كثيرة ترجع جميعها إلى ما سمى فيما بعد بمراعاة النظير(٤)

(١) الصناعين ٤١٤.

(٢) سورة الأعراف آية ١٣٣.

(٣) سورة النحل آية ٩٠.

(٤) انظر الصناعتين ٤١٧.

والسلب والإيجاب - الاستثناء وهو تأكيد المدح بما يشبه الذم - المذهب الكلامى - التعطف وهو نوع من الجناس وقد عرفه بقوله " أن تذكر اللفظ ثم تكـــرره والمعنـــى مختلف" (١)

أما الفنون الستة التى ذكر أنه زادها على ما ذكره السابقون فهى :

١- التشطير : ويريد به أن يستغنى كل مصراع عن صاحبه فى معناه ، إذ يعرفه بقوله : " وهو أن يتوازن المصراعان والجزءان وتتعادل أقســامهما مع قيام كــل واحــد منهما بنفسه واستغنائه عن صاحبه " فمثاله من النثر قول بعضهم : " من عتب على الزمان طالت معتبته ، ومن رضى عن الزمان طابت معيشته " ومن الشعر قول الشاعر :

فأما الــذى يحصيهــم فمكــثر   وأما الذى يطريهـــم فمقلـــل

وقول زهير :

ومن يغترب يحسب عدوا صديقه   ومن لا يكرم نفسه لا يكـــرم

وليس هذا اللون من اخترع أبى هلال - كما ذكر - بل سبقه إليه ثعلـب فـــى كتابه : " قواعد الشعر " وسماه " بالمعدل " حيث قال : " أبلغ الشعر ما اعتدل شـــطراه وتكافأت حاشيتاه" .   كقول الشاعر :

الله أنجــح مــا طلبــت بــــه   والبر خير حقيقــة الرجــل (٢)

والذى أضافه أبو هلال أن غير تسميته من " المعدل " إلى " التشطير" .

٢- المجاورة : ويعرفها بقوله : " تردد لفظتين فى البيت ووقوع كل واحدة منهما بجنب الأخرى أو قريبا منها من غير أن تكون إحداهما لغواً لا يحتاج إليها" كقول علقمة:

ومطعم الغنم يوم الغنم مطعمــــه   أنى توجــه والمحــروم محــروم

---

(١) الصناعتين ٤٣٨ .

(٢) قواعد الشعر ٦٣ .

فقوله : " الغنم يوم الغنم " مجاورة ، وكذا : " المحروم محروم " ، ومنه قولهم" : إنما يغفر العظيم العظيم " وقد سمى هذا اللون فيم بعد باسم الترديد. وأراه قريبا من الجناس التام ، أو ما سماه أبو هلال باسم : " التعطف " ، نقلا عن خاله : أبى أحمد العسكرى .

٣- الاستشهاد والاحتجاج : ويعرفه بقوله " أن تأتى بمعنى ثم تؤكده بمعنى آخر يجرى مجرى الاستشهاد على الأول والحجة على صحته " ، كقول بشار :

ولا تجعل الشورى عليك غضاضة

فإن الخوافى قوة للقوادم

ويرجع هذا اللون إلى ما عرف عند الجاحظ وابن المعتز بالمذهب الكلامى .

٤- المضاعفة : وهى أن يتضمن الكلام معنيين ، معنى مصرح به ، ومعنى كالمشار إليه ، ومثاله قول الأخطل :

قوم إذا استنبح الأضياف كلبهم   قالوا لأمهم بولى على النار

فقد دل بإطفاء نارهم القليلة على بخلهم . ومنه قول المتنبى :

نهبت من الأعمار مالو حويته   لهنئت الدنيا بأنك خالد

وبعض شواهد هذا الفن ترجع إلى الكناية كالبيت الأول ، والبعض الآخر استشهد به المتأخرون لما عرف عندهم باسم الاستتباع كبيت المتنبى.

٥- التطريز : وهو أن يقع في أبيات متوالية من القصيدة كلمات متساوية فى الوزن ، فتكون فيها كالطراز فى الثوب .

ومنه قول أحمد بن أبى طاهر .

إذا أبو قاسم جادت لنا يده

لم يحمد الأجودان : البحر والمطر

وإن أضاءت لنا أنوار غرته
تضاءل الأنوران : الشمس والقمر
وإن مضى رأيه أو حد عزمته
تأخر الماضيان : السيف والقدر
من لم يكن حذراً من حد صولته
لم يدر ما المزعجان : الخوف والحذر

٦- التلطف : وهو أن تتلطف للمعنى الحسن حتى تهجنه والمعنى الهجين حتى تحسنه ، فمن ذلك أن يحيى بن خالد البرمكى قال لعبد الملك بن صالح : " أنت حقود" فقال : " إن كان الحقد عندك بقاء الخير والشر فإنهما عندى لباقيان " ، فقال يحيى : ما رأيت أحداً غيرك احتج للحقد حتى حسنه .

ثم يقول أبو هلال : وقد عرض لى بعد نظم هذه الأنواع نوع آخر لم يذكره أحد وسميته : المشتق وهو أن يشتق لفظ من لفظ أو معنى من لفظ ، لتحسين شئ أو تقبيحه ، كما فى قول أحد الشعراء فى العالم اللغوى المشهور : "نفطويه" :

لو أوحى النحو إلى نفطويه — ما كان هذا النحو يقرا عليه
أحرقه الله بنصف اسمه — وصير الباقى صراخا عليه

تلك هى الألوان التى عرض لها العسكرى فى الصناعتين ، وقد وضح لك مدى تأثره بمن سبقه ، وأنه قد أكثر من الاستشهاد لهذه الفنون التى جمعها واستقصاها، كما عنى بشرحها وتحليلها ، فجاء كتابه كما صرح ، على طريقة صناع الكلام من الشعراء والكتاب.

كتاب العمدة فى صناعة الشعر ونقده لابن رشيق " ت ٤٦٣ هـ " مؤلف هذا الكتاب هو الحسن بن رشيق القيروانى ، أحد بلغاء القيروان وشعرائها ، ولد سنة ٣٩٠هـ ، واختلفت الروايات فى سنه وفاته ، فقيل توفى سنة ٤٥٦ هـ ، وقيل سنة ٤٦٤ هـ ، وأرجع الروايات أنه توفى سنة ٤٦٣هـ . ويحدثنا ابن رشيق عن سبب

تأليفه لهذا الكتاب ، والغاية منه فيقول : " قد وجدت الشعر أكبر علوم العرب، وأوفـر حظوظ الأدب ، وأحرى أن تقبل شـهادته ، وتمتثل إرادته . ووجدت الناس مختلفين فيه، متخلفـين عن كثير منه ، يقدمون ويؤخـرون ، ويقلون ويكثرون ، قد بوبـوه أبوابـا مبهمة ، ولقبوه ألقابا متهمة ، وكل واحد منهم قد ضرب فى جهة ، وانتحل مذهبا هـو فيه إمام نفسه ، وشاهد دعواه ، فجمعت أحسن ما قاله كل واحد منهم فـى كتـاب ، ليكون العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ،إن شاء الله تعالى" (١).

ويقع الكتاب فى جزئين يتضمنان ستة ومائة باب تناولت فى مقدماتها محاسـن الشعر من : بيان فضله ، والرد على من يكرهه وشعر الخلفاء والقضاة والفقهاء ، ومـن رفعه الشعر ومن وضعه ، ومن قضى له الشعر ومن قضى عليه ؛ وفأل الشـعر وطيرتـه ومنافعه ومضاره ، والتكسب بالشعر والأنفة منه .

وبعد هذه المقدمات تحدث عن حد الشعر وعناصره مفيدا فى ذلك مما كتبه قدامة والسابقون ، ثم فتح فصلا للحديث عن اللفظ والمعنى ، فذكر أنهما متلازمان ، إذا اللفظ جسـم روحه المعنى ، فما يوصف به أحدهما يعد وصفا للآخر، فإذا وصـف اللفـظ بالغرابة أو بالابتذال ، كان ذلك وصـفا للمعنى الجاثم وراءه وكذلك الشأن فى المعنـى إن وصف بالوضوح أو الغموض، كان ذلك وصفا للفظ الذى يعرضه ويجلـوه ، فليـس اللفظ والمعنى شيئين منفصلين كالكوب وما يكون فيه من شراب، بل هما مترابطان ترابط الثوب بمادته ، وهذه النظرة تختلف عن نظرة ابن قتيبة والتى تبعه فيها ابن طباطبا ، حيث قسما الشعر إلى ما حسن لفظه ومعناه ، وما ساء لفظه ومعناه ، وما حسـن لفظـه دون معناه ، وما حسن معناه دون لفظه .

ثم يذكر القيروانى أن للشعراء ألفاظا معروفة وأمثلة مألوفة لا ينبغى للشـاعر أن يعدوها ولا أن يستعمل غيرها ، كما أن الكتاب اصطلحوا على ألفاظ بأعيانهـا سموهـا الكتابية لا يتجاوزونها إلى سواها.

---

(١) العمدة حـ ١ ص ١٦ .

ولعله يقصد بذلك ما أشار إليه الجاحظ من أن لكل أديب شاعرا كان أو نـاثرا معجمه اللغوى الخاص الذى يردده فى كلامه ويتميز به أسلوبه .

إلى غير ذلك مما تناوله الكتاب من حديث عن أوزان الشعر وقوافيه وأغراضـه ، وعن المطبوع من الشعر والمصنوع فيه ، وعن البديهة والارتجال . والذى يعنينا هو حديثه عن البديع وفنونه ، وأول ما تلاحظه أن القيروانى قد فصل بعض فنون البديع ، وتحـدث عنها فى أبواب مستقلة ، كما فعل أبو هلال ، فتراه يفرد بابا للحديـث عـن المبـادى والمخارج والنهايات ، وبابا آخر للحديث عن الإيجاز . كما تلاحظ أنه أطلق كلمة : " الحلى " على ألوان البديع ، إذ يقول فى باب الاستعارة : " الاستعارة أفضل المجـاز وأول أبواب البديع ، وليس فى حلى الشعر أعجب منها ، وهى من محاسن الكلام إذا وقعـت موقعها ، ونزلت موضعها "[(١)] . ويقول فى أثناء حديثه عن المثل السائر " وهذه الأشـياء فى الشعر إنما هى نبذ تستحسن ، ونكت : تستظرف مع القلة وفى الندرة فأما إذا كثرت فهى دالة على الكلفة .. ولا ينبغى للشعر أن يكون أيضاً خاليا مغسولا من هذه الحلـى فارغاً "[(٢)] ، تراه هنا يطلق كلمة : " حلى " على فنون البديع ، كما تـراه ينبـه إلى أن الإكثار من تلك الفنون يدل على التكلف الذى لا يرغب فيه أحد ، فهى إنما تستحسـن مع القلة وفى الندرة ، وعندما تأتى عفوا بلا تكلف . وليس القيروانى أول من أطلق لفظ " الحلى " على فنون البديع ، بل سبقه إلى ذلك القاضى صاحب الوساطة ، حيث يقول : " وقد تمنع بعض الأدباء من تسمية بعض ما ذكرنا ه بديعا ، ولكنه أحد أبواب الصنعـة ومعدود فى حلى الشعر"[(٣)] ومن قبلهما أطلق ابن المعتز على بعض هذه الفنون : " محاسن الكلام " ، ولعل هذا ما أغرى المتأخرين من البلاغيين، أن يجعلوا فنون البديـع محسـنات تأتى بعد رعاية المطابقة لمقتضى الحال ووضوح الدلالة ، ولكن هؤلاء الأعلام : القـاضى

(١) العمدة ٢٨٦/١.

(٢) العمدة ٢٨٥/١.

(٣) الصناعتين ٤٣٨.

والقيروانى وابن المعتز ، لم يقصدوا إلى ما فهمه المتأخرون ، بل الحلية عندهم أمر ذاتـــى، وليست ترفاً يمكن الاستغناء عنه ، فهى حلية يقتضيها المقام ، ويتم الغرض من الأســـلوب إن وجدت ، وينعدم إن لم توجد(١)

وابن رشيق لم يقف أمام الفنون البديعية التى ورثها عن سابقيه مكتوف اليديـــن جامداً ، بل فكر ووضح وغير وبدل وضم وفرق وهذب ونقح ، تجده قد ضم الشبيه إلى شبيهه ، كعده الترصيع فى التقسيم ، وعده الكناية واللغز وما شاكلهما من أقسام الإشارة وفرق بين الألوان المتقاربة ، كتفريقه بين الاستطراد والالتفات، والتتميم والإيغال ، وقـــد امتاز تناوله لذلك بحسن اختيار الشواهد ، وإيضاحها وتحليلها تحليلاً دقيقاً..... وإليـــك أهم الألوان البديعية التى حواها العمدة .

عقد ابن رشيق بابا للتفرقة بين المخترع والبديع ، فذكر أن المخترع من الشـــعر هو ما لم يسبق إليه قائله ، ولا عمل أحد من الشعراء قبله نظيره ، أو ما يقـــرب منـــه ، كقول امرئ القيس :

سموت إليها بعد ما نـــام أهلهـــا سمو حباب الماء حالا على حال

فإنه أول من طرق هذا المعنى وابتكره ، فلم ينازعه فيه أحد ولـــه اختراعـــات كثيرة، والفرق بين الاختراع والإبداع وإن كان معناهما فى العربية واحداً، أن الاخـــتراع خلق المعانى التى لم يســـبق إليها ، والإتيان بما لم يكن منها قط ، والإبداع ، إتيان الشاعر بالمعنى المستظرف الذى لم تجر العادة بمثله ، ثم لزمته هذه التسميه حتى قيل له بديع ، وإن كثر وتكرر ، فصار الاختراع للمعنى والإبداع للفظ، فإذا تم للشاعر أن يأتى بمعنى مخترع فى لفظ بديع فقد استولى على الأمد وحاز قصب السبق.

ثم يذكر أن البديع ضروب كثيرة وأنواع مختلفة ، وأن عبد الله بن المعتز هو أول من جمع البديع وألف فيه كتابا، ولعله يقصد بالتأليف : التأليف على طريقـــة منهجيـــة

---

(١) الصناعتين ٤٣٨.

واضحة ، وإلا فهناك كتب عديدة قبل كتاب البديع - كما رأيت - تناولت فنون البديع.. وبعد ذلك يأخذ فى بيان فنون البديع ، حيث يبدأها بالمجاز فينبه على كثرته فى كلام العرب ، وينقل كلام ابن قتيبة فى الرد على من ذهب إلى أن المجاز كذب، ثم يؤكد أن المجاز أبلغ من الحقيقة ، ويحدد مفهومه عند البلاغيين : وهو أن يسمى الشئ باسم ما قاربه أو كان منه بسبب . وينشد من أمثلته قول الشاعر:

إذا سقط السماء بأرض قوم ... رعيناه وإن كانوا غضابا

وقوله عز وجل : ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ ﴾ ، وقولهم : عين ساهرة ، وبهذا يتضح لك أن القيروانى لم يفرق بين أنواع المجاز فهو يطلقه على المجاز المرسل والمجاز العقلى ، ومجاز الحذف والاستعارة كما يدخل فيه بعض أمثلة التشبيه والكناية .

ويعقد فصلا للاستعارة ، فيبين أنها أفضل أنواع المجاز وأول أبواب البديع ، وليس فى حلى الشعر أعجب منها إذا وقعت موقعها ، ويعرض شواهد عديدة لصور من الاستعارة التصريحية والمكنية دون أن يفرق بينهما ...

من ذلك قول لبيد:

وغداة ريح قد كففت وقرة ... إذ أصبحت بيد الشمال زمامها

وقول ذى الرمة :

أقامت به حتى ذوى العود والنوى

وساق الثريا فى ملاءته الفجر

ثم ذكر أن جلة العلماء يستحسنون الاستعارة القريبة ويستهجنون الاستعارة البعيدة ، واختار هو من الاستعارات أوساطها بألا تكون بعيدة جداً ولا قريبة جداً . ثم يسوق أمثلة للاستعارة الحسنة والأخرى القبيحة . وهكذا يستمر ابن رشيق فى عرض فنون البديع ، فيتحدث عن التمثيل ويجعله من ضروب الاستعارة ، وعن المثل السائر فيشير إلى كثرته فى كلام العرب شعراً ونثراً ، وعن التشبيه ، فيعرفه ويبين أنه هو والاستعارة

يخرجان الأغمض إلى الأوضح ، ويقربان البعيد ، ويعرض لما قاله الرمانى وقدامة وغيرهما، وقد أفاض فى عرض الشـــواهد والأمثلة وتحليلها ، ويشير إلى طائفة مــــن التشــبيهات البعيدة فيسميها بالتشبيهات العقم . ويتحدث عن الإشارة فيدخل فيها الإيمـــاءو اللغــز والرمز والتعريض والكناية والتلويح واللحن ، وعن التجنيس فيذكر أقسامه عند القـــاضى الجرجانى ، مضيفاً إليها أقساما جديدة وعن المطابقة والمقابلــــة والتقســيم والالتفــات والاستطراد والاســتثناء والمبالغة والغلو ، إلى غير ذلك مما عرضه من فنون جمعهـــا مـــن كتب السابقين ، كما كانت له إضافات أهمها :ـــ

الاطراد : وهو أن تطرد الأسماء من غير كلفة ولا حشو فارغ فإنها إذا أطردت دلت على قوة طبع الشاعر كقول الأعشى :

أقيس بن مسعود بن قيس بـــن خـــالد

وأنت امرؤ ترجـــو شـــبابك وائـــل

ونفى الشئ بإيجابه : كقول زهير:

بأرض خلاء لا يُسد وصيدُهـــــا　　　على ومعروفى بها غير منكـــــر

فأثبت لها فى اللفظ وصيدا ، وإنما أراد : ليس لها وصيد فيسد علـــى... ومثلــه قولهم : " سرت على طريق لا يهتدى بمناره" ، يريدون : لا منار ولا اهتداء.

والاتساع : وهو أن يكون فى البيت من الامتداد فى معناه مـــا يجعلــه يــؤول تأويلات مختلفة ، فكلما تأمل فيه ناقد أو شارح استنبط منه معنى جديداً.

والتتبيع: وهو أن يريد الشاعر ذكر الشئ فيتجاوزه ويذكر ما يتبعه فى الصفـــة وينوب عنه فى الدلالة ، وقد ساق له أمثلة ترجع جميعها إلى الكناية .

والاشتراك والتغاير : وهما ضربان من ضروب السرقات المستحسنة، وعلى هذا النحو درس ابن رشيق الصور البديعية فى كتابه العمدة ، ولا ترجع أهمية الكتاب إلى ما أضافه من فنون بديعية فحسب ، بل إلى أن مؤلفه قد استوفى قراءة أكثر ما ســـبق مـــن

مصنفات ، ونص فى مواضع كثيرة على المصنفات التى استمد منها ، وقارن بين الآراء المختلفة ، وأشار إلى الاختلاف فى ألقاب بعض المصطلحات ، وأكثر من عرض الشواهد وتحليلها وإيضاحها.

كتاب " سر الفصاحة " لابن سنان " ت ٤٦٦هـ " مؤلف هذا الكتاب هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجى الحلبى وكان معاصراً لابن رشيق القيروانى ، وعلى الرغم من تلك المعاصرة فإنك تجد تباينا بينهما فى عرض المسائل وطريقة الدراسة ، ولم يشر أحدهما إلى الآخر فى مؤلفه ، وربما رجع ذلك إلى بعد الشقة بينهما ، فهذا فى المشرق وذلك فى المغرب ، وكان ابن سنان شاعراً ومتأدبا تتلمذ على أبى العلاء المعرى ، وكثيرا ما كان ينقل من شعره ويدعوه شيخه ، كما تتلمذ على غيره من العلماء والشعراء .

وقد استعان فى كتابه " سر الفصاحة " بمؤلفات كثيرة أبرزها ن نقد الشعر لقدامة ، والموازنة للآمدى ، والوساطة للجرجانى والنكت للرمانى، والبيان والتبيين للجاحظ والبديع لابن المعتز ، وغير ذلك ، وكثيرا ما يصرح بأسماء هذه المؤلفات عندما يأخذ منها ؛ وكان معتدا بنفسه واسع الاطلاع ، امتاز بحرية الرأى والمناقشة والبعد عن التقليد ... وقد توفى الخفاجى بقلعة إغزاز سنة ٤٦٦هـ وترك ديوان شعر، وهذا الكتاب " سر الفصاحة " الذى نحن بصدد الحديث عنه .

ما الغاية من تأليف الكتاب ؟:

قصد ابن سنان من تأليفه هذا الكتاب إلى توضيح حقيقة الفصاحة والكشف عن سرها ، ولذا يقول فى مقدمته . " أما بعد فإنى لما رأيت الناس مختلفين فى ما هية الفصاحة وحقيقتها أودعت كتابى هذا طرفا من شأنها ، وجملة من بيانها ، وقربت ذلك على الناظر ، وأوضحته للمتأمل ، ولم أمل بالاختصار إلى الاخلال ولا مع الإسهاب إلى الإملال.. "(١) ، فهو يرمى إلى تجلية الفصاحة والكشف عن أسرارها ، ومن هنا تدرك

---

(١) سر الفصاحة ١٣.

مدى الصلة بينه وبين المعتزلة ، فهو أولا يتجه إلى تفسير الفصاحة وما يطوى فيها من فنون بديعية ، وقد مر بك أن أبا هاشم الجبائى وأضرابه من المعتزلة ، يردون إلى الفصاحة وجوه التفاضل فى القول ، ويرجعون إليها المزية . وهو ثانياً ممن يقولون بالصرفة ، وقد صرح بذلك فى أكثر من موضع ، انظر إلى قوله " وإذا عدنا إلى التحقيق وجدنا وجه إعجاز القرآن هو صرف العرب عن معارضته بأن سلبوا العلوم التى بها كانوا يتمكنون من المعارضة فى وقت مرامهم ذلك " [1] ، وقوله : " الصحيح أن وجه الإعجاز فى القرآن هو صرف العرب عن معارضته وأن فصاحته قد كان فى مقدورهم لولا الصرف ، وهذا هو المذهب الذى يعول عليه أهل هذه الصناعة وأرباب هذا العلم وقد سطر عليه من الأدلة ما ليس هذا موضع ذكره "[2] .. وقد مضى يتحدث عن الفصاحة ، فذكر نبذاً من أحكام الأصوات ومخارج الحروف وتأليفها ، وكيف نشأت اللغة ، أتوقيف هى أم تواضع ؟ ، وبين أن فى كلام العرب مهملا ومستعملا، وقد أفاض فى كل ذلك مما جعله هدفا لنقد النقاد كابن الأثير وغيره ...

تم تحدث بعد ذلك عن فصاحة الكلمة المفردة ، فبدأ ببيان الفرق بين الفصاحة والبلاغة ، جاعلا الفصاحة خاصة بالألفاظ والبلاغة عامة فى الألفاظ والمعانى ، فكل بليغ فصيح وليس كل فصيح بليغا ، وقد شاع ذلك عند المتأخرين ،و يعرف البلاغة تعريفات متعددة ، استمدها من أقوال السابقين وبخاصة من البيان والتبيين للجاحظ ... ثم يرجع فصاحة الكلمة إلى ثمانية أمور :

١- أن تؤلف من حروف متباعدة المخارج حتى لا تثقل على اللسان.

٢- أن تحسن فى السمع ويكون لها مزية على غيرها.

٣- أن تكون الكلمة غير متوعرة وحشية .

---

(١) سر الفصاحة ٩٣ .

(٢) سر الفصاحة ٢١٤.

٤- أن تكون غير ساقطة عامية .

٥- أن تكون جارية على العرف العربى الصحيح فى التصريف والاستعمال.

٦- ألا تكون قد هجر معناها اللغوى القديم وأصبحت تدل على شئ آخر يكره ذكره ككلمة " الدلو " فى قول أبى تمام :

متفجـــر نادمتـــــه فكـــــأننى للدلو أو للمرزمـــــين نديـــم[1]

٧- أن تكون معتدلة غير كثيرة الحروف ، ككلمة " مغناطيسهن " فى قول ابن نباته :

فإياكم أن تكشفوا عن رءوسكم ألا إن مغناطيسهن الذوائـــــب

٨- أن تكون مصغرة فى موضع عبر بها فيه عن شئ لطيف أو خفى أو قليل أو ما يجرى مجرى ذلك ...

وهذه الشروط قد استقاها من كلام السابقين وبخاصة الجاحظ الذى تحدث عـــن التنافر ورجعه إلى شدة قرب المخارج أو شدة بعدها وشبهه بمشى المقيد والطفر ، وقد أفاد متأخرو البلاغيين من هذه الأمور ووضعوها شروطا ينبغى توفرها حتى تكـــون الكلمـــة فصيحة ... وينتقل الخفاجى من فصاحة الكلمة إلى فصاحة الكلام، فيذكـــر أنـــه لابـــد لفصاحته من فصاحة مفرداته ثم يناقش الرمانى فى تقسيمه الكلام إلى متنافر ومتلائم فى الطبقة الوسطى ومتلائم فى الطبقة العليا ، فيذكر أن هذا فاسد وأن الصواب جعل الكلام قسمين اثنين : متنافر ومتلائم ، ويكرر هنا قوله بالصرفة فيذكر أن فى كـــــلام العـــرب متلائماً كالقرآن وأن الإعجاز الحقيقى يرجع إلى صرف الله عز وجل لهم عن معارضته ، ثم يذكر لفصاحة الكلام بالإضافة لتوفر فصاحة مفرداته الأمور الآتية :

(١) فالدلو فى البيت المراد به أحد الأبراج ولا يختار لموافقته اسم الدلو المعروف.. والمرزمان : نجمان من نجوم المطر .

١- أن يتجنب فى نظمه تكرار الكلمات ذات الحروف المتقاربة كما فى قــــول المتنبى :

ولا الضعف حتى يتبع الضعف ضعفـــه

ولاضعف ضعف الضعف بل مثله ألف

٢- أن يكون التأليف جاريا على قواعد النحو ، لأنه لا يرتضى اختيار الكـــلام العربى والشهادة بحسنه ، وهو يخالف ما نطقت به العرب وتواضعت عليه .

٣- ألا يتكرر التصغير والنداء والعطف والتوكيد ونحو ذلـــك مـــن الظواهـــر الأسلوبية ، لأن الإسهاب فى إيرادها معدود فى جملة التكرار المعيب ، فينبغى التوســـط فيها ، فإن لكل شئ حداً ومقداراً لا يحسن تجاوزه ولا يحمد تعديه .

٤- ألا يكون فى الكلام تقديم وتأخير يؤدى إلى اللبس وفساد المعنى ، ولا يخفى عليك مدى إفادة متأخرى البلاغيين من حديث الخفاجى فى وضع الشروط التى ينبغـــى توافرها لفصاحة الكلام .

ويمضى ابن سنان فى الحديث عن تأليف الكلام أو نظمه فيتحدث عما يختـــص بالتأليف من الأصول والمقومات . وعن المناسبة بين الألفاظ إما من طريق الصنعة وإما عن طريق المعنى . ثم يتحدث عن المعانى المفـــردة ، وينتقل منها إلى آراء النقاد فى الشـــعر وفى القدماء والمحدثين ، ويعرض فى أثناء ذلك لمسائل بلاغية أهمها ما يلى :

١- حسن الاستعارة : فصل القول فى الاستعارة ونقل عن الرمـــانى ونـــاقش الآمدى وصاحب الوساطة والصولى فى تحليلاتهم لكثير مـــن الاســـتعارات ، وبـــين أن الحقيقة أصل وأن الاستعارة فرع عنها ، وفرق بين الاستعارة والتشبيه ، وتحدث عن قرب الاستعارة وبعدها ، وعن أسباب البعد ، وقد ساق أمثلة وشواهد كثيرة تكشف عن وجوه الحسن فى الاستعارة ، ثم ساق أمثلة أخرى تكشف عن رديئها المسترذل متأثراً فى ذلك بما صنعه ابن المعتز وقدامة والعسكرى وابن رشيق وغيرهم .

٢- الحشو : ذكر أن من وضع الألفاظ موضعها ألا تقع الكلمة حشواً ، ثم حدد مفهومه ، ونوعه إلى مفيد وغير مفيد ، وأدخل فى المفيد : الإيغال والتتميم والاعتراض ، ووشح ذلك بالأمثله والشواهد ، وقد استفاد البلاغيون المتأخرون من تنويعه الحشو إلى مفيد وغير مفيد ، فجعلوا الحشو قسمين : حشواً يفسد المعنى وحشواً لا يفسد .

٣- المعاظلة : يذكر أن من الوضع الصحيح للألفاظ ألا يكون فيها معاظلة وهى تراكب الكلام وتداخل بعضه فى بعض ، ثم يشير إلى خطأ قدامة فى فهم معناها ، وتبيين الآمدى لخطئه وفى أثناء ذلك يعرض لما عرف باسم التوشيح أو التسهيم .

٤- حسن الكناية : جعلها من وضع الألفاظ موضعها فقال : " ومن هذا الجنس حسن الكناية عما يجب أن يكنى عنه فى الموضع الذى لا يحسن فيه التصريح ، وذلك أصل من أصول الفصاحة ، وشرط من شروط البلاغة[١] ". وقد ساق لها الأمثلة والشواهد العديدة وهكذا يستمر الخفاجى فى عرض مسائل البلاغة فيتحدث عن السجع والازدواج والترصيع والجناس والطباق والإيجاز وحذف فضول الكلام والتمثيل وصحة التقسيم وحسن التشبيه ، وصحة المقابلة وحسن التخلص والمبالغة فى المعنى والغلو وصحة التفسير ، والاستدلال بالتعليل ، ورد الأعجاز على الصدور وعما عرف باسم اللف والنشر وقد سماه : "الترتيب " وعن اللغز فى الكلام والإرداف والتتبيع . وفى كل ذلك يشرح ويحلل ويناقش السابقين ويعرض إلى خلافاتهم فى بعض المصطلحات ويرجح ما يراه أولى بالترجيح ، ويعرض الكثير من الشواهد والأمثلة.

وبهذا نرى أن كتاب " سر الفصاحة " إذا ما نحينا عنه رأى الخفاجى من القول بالصرفة ، وما يتبعه من القول بأن الآيات القرآنية بعضها أفصح من بعض ، إذا ما نحى عنه هذا وأمثاله ، فإنه يعد من المراجع البلاغية المهمة مناقشة وتحليلا وجمعاً لأقوال

---

(١) سر الفصاحة ١٥٦ .

السابقين وعرضاً للشواهد والأمثلة وإضافة لما ينبغى إضافته من شرح وإيضـــاح وتبيـــين وترجيح .

عبد القاهر الجرجانى " ت ٤٧١ هـــ " هو أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجانى ، ولد بجرجان إحدى المدن المشهورة بين خراسان وطبرستان ، فانتسب إليهـــا وظل بها لم يفارقها حتى توفى بها سنة ٤٧١ هـــ ، وكان فقيها شافعياً ومتكلماً أشعرياً، وقد درس النحـــو على أبى الحسن محمد بن الحسن الفارسى ، ابن أخـــت أبـــى علـــى الفارسى ، وكان يعد إمام النحاة بعده ، وله مؤلفات عديدة منها : العـــوامل المائة فـــى النحو ، والشافية فى إعجاز القرآن ، ولكنه اشـــتهر بكتابيه : " أســـرار البلاغـــة " و " دلائل الإعجاز " ، فقد استطاع عبد القاهر أن يفيد من المؤلفات السابقة وأن يـــبرز فـــى هذين الكتابين مســـائل البلاغة بالشرح والتحليل والإكثار من الشـــــواهد والأمثلـــة ، وأول ما نلاحظه أن كتاب " أســـرار البلاغة " قد تضمن مسائل البيان وبعـــض فنـــون البديع وأن كتاب " دلائل الإعجاز" قد تناول مسائل المعانى، وهذا لا يعنى أن عبد القاهر قد قســـم علوم البلاغة ، إن تقسيم البلاغة إلى علوم ثلاثة : معان وبيان وبديع ، لم يتـــم إلا فى عهد السكاكى ، أما عبد القاهر وســـابقوه ، فقد كانت البلاغة عندهـــم علمـــاً واحداً يتناول مســـائل البديع وفنونه ، وارجع إلى الكتابين فستجد كلمة البيـــان تـــرد مقرونة بكلمة الفصاحة والبلاغة ، والبديع ، وستجده يورد الاستعارة والتشبيه والمجاز فى " دلائل الإعجاز " مبرزاً أثرهما فى النظم والصياغة وبناء الجمل وأغلب الظـــن أن عبـــد القاهر قد ألف كتابة : " دلائل الإعجاز " بعد تأليفه " أسرار البلاغة " إذ كثيراً ما يعد فى الأسرار باستيفاء موضوعات، فإذا فشت عنها لتحقق ذلك الوعد وجدتها فى الدلائل (١).

فتعالوا ننظر فى هذه الكتابين لنرى مدى إفادة عبد القاهر من سابقيه ، وكيـــف أبرز مسائل البلاغة بالشرح والتحليل والإكثار من الشواهد والحث على تأملها وتذوقها.

---

(١) انظر الصيغ البديعى ٢٣٥.

بدأ عبد القاهر كتابه : " دلائل الإعجاز " بالحديث عن نظرية النظم مفيداً من كتابات الجاحظ ، ومن حديث القاضى عبد الجبار ، فذكر أن الناظم يبدأ فيرتب المعانى فى نفسه ويبذل جهدا فى ترتيبها ثم يعمد إلى الألفاظ التى يعبر بها عن تلك المعانى ، فيرتبها وفق ترتيب المعانى فى نفسه .

يقول عبد القاهر : " وأما نظم الكلم فليس الأمر فيه كذلك لأنك تقتفى فى نظمها آثار المعانى وترتبها على حسب ترتيب المعانى فى النفس ، فهو إذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض ، وليس هو النظم الذى معناه ضم الشئ إلى الشئ كيف جاء واتفق [1] ، وقد عقد قبل ذلك فصولا تحدث فيها عن الشعر وروايته وحفظه ، ورد على من زهد فيه ، وتحدث عن النحو وعن مدى الحاجة إليه ، ثم تحدث عن الفصاحة والبلاغة، فبين أن السبيل إلى معرفتهما هو معرفة النظم وأسراره، وإذا كان الأمر كذلك فينبغى أن ينظر إلى الكلمة قبل دخولها فى التأليف وقبل أن تصير إلى الصورة التى بها يكون الكلام إخباراً أو أمراً أو نهيا أو استخبارا أو تعجبا ، وتؤدى فى الجملة معنى من المعانى التى لا سبيل إلى إفادتها إلا بضم كلمة إلى كلمة وبناء لفظه على لفظة [2] ، أى أن على الناظم بعد أن يرتب المعانى فى نفسه أن ينتقى ويتخير الكلمات التى يعبر بها عنها ، وأن يحسن ضم بعضها إلى بعض على وفق المعانى القائمة فى نفسه.

ويستمر عبد القاهر فى إبراز مزايا النظم ، وتقرير أنه مرجع الفصاحة فيقول: " وهل تجد أحدا يقول : هذه اللفظة فصيحة إلا وهو يعتبر مكانها .

من النظم وحسن ملاءمة معناها لمعانى جاراتها وفضل مؤانستها لأخواتها ؟ وهل قالوا : لفظة متمكنة ومقبولة ، وفى خلافه : قلقة ونابية ومستكرهة إلا وغرضهم أن

---

(١) دلائل الإعجاز ٩٣.

(٢) انظر الدلائل ٨٧.

يعبروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناهما ، وأن السابقة لم تصلح أن تكون لفقاً للتالية فى مؤداها [١].

ثم يتبع ذلك بسبل من الشواهد فيبدأ بقوله عز وجل : ﴿وَ قِيلَ يَا أرضُ ابلَعِى مَاءكِ وَ يَا سَمَاءُ أَقلعِي وَ غِيضَ الماءُ وَ قُضِيَ الأَمرُ وَ استَوت عَلَى الجُودِيّ وَ قِيلَ بُعداً لِلقَومِ الظَّالِمِينَ﴾ [٢] ، ويبرز عبد القاهر ما فى الآية الكريمة من إعجاز مبيناً أن مرده إلى النظم فيقول : "هل تشك إذا فكرت فى قوله تعالى : ﴿وقيل يا أرض .. الآية﴾ فتجلى لك منها الإعجاز ، وبهرك الذى ترى وتسمع ، أنك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة والفضيلة القاهرة إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض ، و أن لم يعرض لها الحسن والشرف إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية والثالثة بالرابعة ؟ وهكذا إلى أن تستقريها إلى آخرها ، وأن الفضل تناتج مابينها وحصل من مجموعها ، إن شككت فتأمل ، هل ترى لفظة منها بحيث لو أخذت من بين أخواتها وأفردت لأدت من الفصاحة ما تؤديه وهى مكانها من الآية ؟ قل ﴿ ابلعى ﴾ واعتبرها وحدها من غير أن تنظر إلى ما قبلها وإلى ما بعدها ، وكذا فاعتبر سائر ما يليها ، وكيف بالشك فى ذلك ومعلوم أن مبدأ العظمة فى أن نوديت الأرض ثم فى أن كان النداء "بيا" دون " أى " نحو : ياأيتها الأرض ، ثم إضافة الماء إلى الكاف دون أن يقال : ابلعى الماء ، ثم أن أتبع نداء الرض وأمرها بما هو شأنها ، نداء السماء وأمرها كذلك بما يخصها، ثم أن قيل : "وغيض الماء" فجاء الفعل على صيغة "فُعِل" الدالة على أنه لم يغض إلا بأمر آمر ، وقدرة قادر ، ثم تأكيد ذلك وتقريره بقوله تعالى : ﴿ **وقضى الأمر** ﴾ ثم ذكر ما فائدة هذه الأمور وهو : ﴿ **استوت على الجودى** ﴾ ، ثم إضمار السفينة قبل الذكر كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن ثم مقابلة : ﴿**قيل**﴾ فى الخاتمة ﴿ **بقيل**﴾ فى الفاتحة ، أفترى لشيء من هذه الخصائص التى تملؤك بالإعجاز روعة ، وتحضرك عند تصورها هيبة تحيط

---

(١) الدلائل ٨٨ .

(٢) سورة هود آية ٤٤

بالنفس من أقطارها تعلقاً باللفظ من حيث هو صوت مسموع وحروف تتوالى فى النطق أم كل ذلك لما بين معانى الألفاظ من الاتساق العجيب ؟ ..، [1].

ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك فى موضع ، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك فى موضع آخر . كلفظ " الأخدع" فى بيت الحماسة :

تلفت نحو الحى حتى وجدتنى ... وجعت من الإصغاء ليتا و أخدعا

وبيت البحترى :

وإنى وإن بلغتنى شرف الغنى ... وأعتقت من رق المطامع أخدعى

فإن لها فى هذين المكانين مالا يخفى من الحسن، ثم إنك تتأملها فى بيت أبى تمام:

يادهر قوم من أخدعيك فقد ... أضججت هذا الأنام من خرقك

فتجد لها من الثقل على النفس ومن التنغيص والتكدير أضعاف ما تجد لها هنـــاك من الخفة والإيناس . وانظر إلى كلمة " شىء " فى قول عمر بن أبى ربيعة :

ومن مالىء عينيه من شىء غيره ... إذا راح نحو الجمرة البيض كالدُّمَى

وقول أبى حية النميرى :

إذا ما تقاضى المرء يوم ليلة ... تقاضاه شىء لا يمل التقاضيا

فإنك تعرف حسنها ومكانها من القبول . ثم انظر إليها فى بيت المتنبى :

لو الفلك الدوار أبغضت سعيه ... لعوقه شىء عن الدوران

فإنك تراها تثقل وتكره بمقدار ما حسنت هناك وخفت [2] ....

ويستمر عبد القاهر فى عرض الشواهد مبرزاً أن المعول عليه فى رجوع المزية هو التلاؤم اللفظى واستقرار الكلمات حتى لايتلاقى فى النطق حروف تثقل علـــى اللســـان كالذى أنشده الجاحظ من قول الشاعر :

وقبر حرب بمكان قفر ... وليس قرب قبر حرب قبر

---

(١) دلائل الإعجاز . ٩ .

(١) ارجع إلى الدلائل ص ٩٠ - ٩٢

ويعرض بعد ذلك للمجاز والإستعارة والتشبيه والتمثيل ، فيذكر أن لها فضلا ومزية ويكشف عن ذلك ويجليه أتم تجلية . ثم يبين أن المزية والحسن والفصاحة والرونق لا يرجع إلى ذات هذه الفنون ، بل إلى نظمها الذى سيقت فيه ، يقول : " ترى المزية أبداً فى ذلك تقع فى طريق إثبات المعنى نفسه" ، فإذا سمعتهم يقولون : إن من شأن هذه الأجناس أن تكسب المعانى نبلا وفضلا ، وتوجب لها شرفاً ، وأن تفخمها فى نفوس السامعين وترفع أقدارها عند المخاطبين . فإنهم لايريدون الشجاعة والقرى وأشباه ذلك من معانى الكلم المفردة ، وإنما يعنون إثبات معانى هذه الكلم لمن تثبت له ويخبر بها عنه. هذا ما ينبغى للعاقل أن يجعله على ذكر منه أبداً ، وأن يعلم أن ليس لنا إذا نحن تكلمنا فى البلاغة ، والفصاحة مع معانى الكلم المفردة شغل . ولا هى منا بسبيل ، وإنما نعمد إلى الأحكام التى تحدث بالتأليف والتركيب [1]. وإذا كانت المزية لا ترجع إلى الألفاظ المجردة ، ولا إلى المعانى اللغوية للكلمات ، فإلى أى شىء ترجع ؟ إنها ترجع إلى النظم الذى يعرفه عبد القاهر بقوله : " واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذى يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله ، وتعرف مناهجه التى نهجت فلا تزيغ عنها ، وتحفظ الرسوم التى رسمت لك فلا تخل بشىء منها [2]" .

ثم يشرح مراده بعلم النحو وما يقتضيه فيقول : "وذلك أنا لا نعلم شيئاً يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر فى وجوه كل باب وفروقه ، فينظر فى الخبر إلى الوجوه التى تراها فى قولك : زيد منطلق وزيد ينطلق وينطلق زيد ومنطلق زيد وزيد المنطلق والمنطلق زيد وزيد هو المنطلق وزيد هو منطلق ، وفى الشرط والجزاء إلى الوجوه التى تراها فى قولك : إن تخرج أخرج، وإن خرجت خرجت وإن تخرج فأنا خارج وأنا خارج إن خرجت وأنا إن خرجت خارج ، وفى الحال إلى الوجوه التى تراها فى قولك : جاءنى

---

(٢) الدلائل ١١٠

(١) الدلائل ١١٧ .

زيد مسرعاً وجاءنى يسرع وجاءنى وهو يسرع أو وهو مسرع وجاءنى قد أسرع وجاءنى وقد أسرع ، فيعرف لكل من ذلك موضعه ويجيء به حيث ينبغى له ، وينظر فى الحروف التى تشترك فى معنى ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصية فى ذلك المعنى فيضع كلا من ذلك فى خاص معناه ، نحو أن يجيء بما فى نفى الحال ، وبلا إذا أراد نفى الاستقبال ، وبإن فيما يترجح بين أن يكون أو ألايكون وبإذا فيما علم أنه كائن ، وينظر فى الجمل التى تسرد فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل ، ثم يعرف فيما حقه الوصل موضع الواو من موضع الفاء ، وموضع الفاء من ثم ، وموضع أو من موضع أم وموضع لكن من موضع بل ، ويتصرف فى التعريف والتنكير والتقديم والتأخير، فى الكلام كله وفى الحذف والتكرار والإضمار والإظهار ، فيضع كلا من ذلك فى مكانه ، ويستعمله على الصحة وعلى ما ينبغى له [1] " .

فعبد القاهر يريد بعلم النحو وقوانينه : العلاقات بين المفردات والجمل وما يكمن وراء التعبيرات من دقائق وأسرار ، ومجيء الأبنية والصيغ على وفق ترتيب المعانى فى النفس ثم أخذ يوضح ذلك بالشواهد والأمثلة، فبدأ بالنظم الفاسد من نحو قول الفرزدق :

وما مثله فى الناس إلا مملكا   أبو أمه حى أبوه يقاربه

وقول المتنبى :

ولذا اسم أغطية العيون جفونها   من أنها عمل السيوف عوامل

وقول أبى تمام :

ثانيه فى كبد السماء و لم يكن   كاثنين ثان إذ هما فى الغار

وذكر أن فساده راجع إلى سوء نظمه وتأليفه ، وما صنع فيه من تقديم أو تأخير أو حذف أو إضمار لايسوغ ولايصح على أصول علم النحو ، فأدى إلى التعقيد واللبس . وأتبع ذلك بشواهد من النظم الجيد من نحو قول البحترى :

---

(٢) الدلائل ١١٨ .

بلونا ضرائب من قد نرى   فما إن رأينا لفتح ضريبا
هو المرء أبدت له الحادثات   عزماً وشيكاً ورأياً صليباً
تنقل في خلقي سؤدد   سماحاً مرجى وبأسا مهيبا
فكالسيف إن جئته صارخاً   وكالبحر إن جئته مستثيبًا

فيذكر أن سبب حسنه وبهائه ورونقه وجماله ، ليس إلا أنه قدم وأخر وعرف ونكر وحذف وأضمر وأعاد وكرر وتوخى على الجملة وجها من الوجوه التي يقتضيها علم النحو ، فأصاب في ذلك كله ، ثم لطف موضع صوابه ... ويتساءل عبد القاهر : "أفلا ترى أن أول شيء يروقك منها قوله : " هو المرء أبدت له الحادثات " ثم قوله : "تنقل في خلق سؤدد "، بتنكير السؤدد وإضافة الخلقين إليه ، ثم قوله :" فكالسيف" وعطفه بالفاء مع حذفه المبتدأ ، لأن المعنى لامحالة هو كالسيف . ثم تكريره الكاف في قوله :"وكالبحر" . ثم قرن إلى كل واحد من التشبيهين شرطا جوابه فيه . ثم أن أخرج من كل واحد من الشرطين حالا على مثال ما أخرج من الآخر ، وذلك قوله : "صارخا" هناك و " مستثيبا" ههنا .

وقول إبراهيم بن العباس :

فلو إذ نبا دهر و أنكر صاحب   وسلط أعداء وغاب نصير
تكون عن الأهواز داري بنجوة   ولكن مقادير جرت وأ مور
وإني لأرجو بعد هذا محمداً   لأفضل ما يرجى أخ ووزير

فإنك لو تفقدت سبب الرونق والطلاوة والحسن والحلاوة فستجده إنما كان من أجل تقديمه الظرف الذي هو "إذ نبا" على عامله الذي هو " تكون" وأن لم يقل : " فلو تكون عن الأهواز داري بنجوة إذ نبا دهر" . ثم قال : " تكون" ولم يقل " كان" ثم أن نكر الدهر ولم يقل " فلو إذ نبا الدهر" ثم أن ساق هذا التنكير في جميع ما أتى به من بعد. ثم أن قال : " وأنكر صاحب "، ولم يقل :" وأنكرت صاحبا " .

ويستمر عبد القاهر فى عرض الشواهد وابراز ما فيها من حسن وجمال مردهما إلى النظم ، وفى أثناء ذلك يتحدث عرضا عن فنون بلاغية كالمزاوجة فى قول البحترى :

إذا مانهى الناهى فلج بى الهوى ... أصاخت إلى الواشى فلج بها الهجر

وقوله :

إذا احتربت يوما ففاضت دماؤها ... تذكرت القربى ففاضت دموعها

وكالتشبيه فى قول كثير :

وإنى وتهيامى بعـزة بعدما ... تخليت ممـا بيننـا وتخلت

لكالمرتجى ظل الغمامة كلما ... تبوأ منها للمقيل اضمحلت

وقول امرىء القيس :

كأن قـلوب الطير رطبا ويابسـا ... لدى وكرها العناب والحشف البالى

وقول الفرزدق :

والشيب ينهض فى الشباب كأنه ... ليـل يصـيح بـجانبيه نهـار

وقول بشار :

كأن مثـار النقع فوق رءوسـنا ... وأسـيافنا ليل تهـاوى كواكبه

وقول زياد الأعجم :

وإنا وما تلقى لنـا إن هجـوتنا ... لكالبحر مهما تلق فى البحر يغرق

وكالتقسيم يصاحبه الجمع فى قول حسان :

قوم إذا حـاربوا ضـروا عدوهم ... أو حاولوا النفع فى أشياعهم نفعوا

سجيـة تلك فيهم غـير مـحدثة ... إن الخـلائق فا علم شـرها البدع

وكالاستعارة فى قوله تعالى :﴿واشتعل الرأس شيبا﴾ [1] ، وفى قول بن المعتز :

سالت عليه شعاب الحى حين دعا ... أنصـاره بوجـوه كالـدنانير

---

(١) الدلائل ٨٨ .

إلى غير ذلك من شواهد ، فقد حللها وأبرز ما فيها من حسن وجمال منبها إلى أن ذلك الحسن قد تم عن طريق النظم ، انظر إلى قوله معلقا على بيت ابن المعتز السابق ذكره .

" فإنك ترى هذه الاستعارة على لطفها وغرابتها إنما تم لها الحسن وانتهى إلى حيث انتهى ، بما توخى فى وضع الكلام من التقديم والتأخير ، وتجدها قد ملحت ولطفت بمعاونة ذلك ومؤازرته لها ، وإن شككت فاعمد إلى الجار والمجرور والظرف ، فأزل كل منهما عن مكانه الذى وضعه الشاعر فيه ، فقل : سالت شعلب الحى بوجوه كالدنانير عليه حين دعا أنصاره ثم انظر كيف يكون وكيف يذهب الحسن والحلاوة وكيف تعدم أريحيتك التى كانت ، وكيف تذهب النشوة التى كنت تجدها [1] " .

ومما ينبغى التنبيه له أن عبد القاهر قد جعل لمعانى التشبيه والاستعارة والتمثيل والكناية وغيرها من فنون البلاغة حسنا ومزية ، وأن حسنها ومزيتها وجمالها ورونقها إنما يتم بالنظم . كما أنه لم يهمل التنبيه إلى ما للألفاظ وحذاقة حروفها وسلامتها مما يثقل على اللسان من حسن يوجب لها الفضيلة والمزية ، ولكن الذى أنكره وكرر إنكاره فى مواضع كثيرة من كتابه ، أن يكون لهذه المعانى وما يثبت لها من حسن أو لتلك الألفاظ وما وجب لها من مزية ، أساس فى تحقيق الإعجاز ، ومهما يكن من أمر فإن الإعجاز يتأكد بمثل هذه الأمور ، ولا يكون بها وحدها ... ويتضح لك ذلك من أقواله : " وجملة الأمر أن ههنا كلاما حسنه للفظ دون النظم ، وآخر حسنه للنظم دون اللفظ وثالثا قرى الحسن من الجهتين ووجبت له المزية بكلا الأمرين والإشكال فى هذا الثالث وهو الذى لا تزال ترى الغلط قد عارضك فيه ، وتراك قد حفت فيه على النظم فتركته ، وطمحت ببصرك إلى اللفظ ، وقدرت فى حسن كان به وباللفظ أنه للفظ خاصة ، وهذا هو الذى أردت حين قلت لك : إن فى الاستعارة ما لا يمكن بيانه إلى من بعد العلم بالنظم والوقوف على حقيقته... اعلم أن الكلام الفصيح ينقسم قسمين: قسم يعزى ذلك

---

(١) الدلائل ٨٨ .

فيه إلى النظم ، وقسم تعزى المزية والحسن فيه إلى اللفـــظ ، فالقســـم الأول : الكنايـــة والاستعارة والتمثيل الكائن على حد الإستعارة وكل ما كان فيه على الجملة مجاز واتساع وعدول باللفظ عن الظاهر فما من ضرب من هذه الضروب إلا وهـــو إذا وقـــع علـــى الصواب وعلى ما ينبغي أوجب الفضل والمزية ... واعلم أنا لانأبى أن تكـــون حذاقـــة الحروف وسلامتها ممايثقل على اللسان داخلاً فيما يوجب الفضيلة ، وأن تكون مما يؤكد أمر الإعجاز ، وإنما الذى ننكره ونفيل رأى من يذهب إليه أن يجعله معجزاً بـــه وحـــده ويجعله الأصل والعمدة فيخرج إلى ما ذكرنا من الشناعات، ثم إن العجب كل العجب ممن يجعل كل الفضـــيلة فى شيء هو إذا انفرد لم يجب به فضل البتة، و لم يدخل فى اعتـــداد بحال ، وذلك أنه لايخفى على عاقل أنه لايكون بسهولة الألفاظ وسلامتها مما يثقل علـــى اللســـان اعتداد حتى يكون قد ألف منها كلام ثم كان ذلك الكلام صحيحا فى نظمـــه والغرض الذى أريد به ، ولأنه لو عمد عامد إلى ألفاظ فجمعها من غير أن يراعى فيهـــا ويؤلف منها كلاما، لم تر عاقلا يعتد السهولة فيه فضيلة ، لأن الألفاظ لاتراد لأنفســـها وإنما تراد لتجعل أدلة على المعانى . فإذا عدمت الذى له تراد أو اختل أمرها فيه لم يعتـــد بالأوصاف التى تكون فى أنفسها عليها، وكانت السهولة وغير السهولة فيها واحداً" (١) .

وقد مر بك رأى الباقلانى فى أن الفنون البلاغية لا تعد معجزة إلا إذا نظر لها من خلال النظم . كما مر بك حديث الجاحظ عن اللفظ والمعنى ، وقد أوضحنا هناك أنـــه لايعتد باللفظ المجرد ولا بالمعانى اللغوية والمعانى العامة ، وإنما يعتـــد بالصياغـــة وجـــودة الســـبك ، وحسن النظم كما مر بك أيضا حديث القاضى عبد الجبار عن النظم وتفسيره له ، وحديث ابن رشيق عن تلازم اللفظ والمعنى ووجوب الحسن لأحدهمـــا إذا ثبـــت للآخر ، وقد أفاد عبد القاهر من حديثهم واستطاع أن يبرز هذه النظرية ، وحســـبه أنه هو الذى شرح وحلل واستشهد وفصل وأعاد وكرر حتى رسخت نظرية النظم وقـــرت فى أذهان الدارسين .. وقد عقد فصولا عدة شرح فيها الأسس التى تنبنى عليها نظريـــة

(١) ارجع إلى الدلائل ص ١٣٢ ، ص ٣٨٩ ، ص ٤٥٥

النظم . بدأها بفصل تحدث فيه عن التقديم وأثره فى المعنى فأنكر أن يفسر التقديم بالتوسعة على الشاعر والناثر، أو يعلل بالعناية والاهتمام بالمقدم دون إبراز مغزى هذا الاهتمام وتلك العناية . ثم تحدث عن أثر التقديم بعد همزة الاستفهام ، والنفى والخبر المثبت ، وتقديم النكرة ومثل وغير وألفاظ العموم ، فذكر أن المستفهم عنه يتحتم إيلاؤه.همزة الاستفهام ، - عندما تكون للتصور - فيقال فى السؤال عن الفاعل : أأنت ؟ وعن الفعل : أفعلت وعن المفعول : أزيد أكرمت وعن الظرف : أفى الدار زيد ؟ ، وينبغى على البليغ أن يراعى هذا وألا يبنى عباراته وجمله بناء متناقضاً ، فمن الخطأ أن يقول : أأنت فعلت أم لم تفعل ؟ أفعلت هذا أم زيد ؟ أزيد أكرمت أم أهنت ؟ أفى الدار زيد أم عمرو ؟ وقد مر بك تجويز سيبويه واستحسانه لنحو قولك : أعندك زيد أم عمرو ؟ وعرفت كيف توفق بين الرأيين.

وأما التقديم بعد النفىفذكر عبد القاهر، أن قولك : " ما فعلت "، يفيد شيئاً واحداً وهو نفى الفعل عنك ، أما قولك: " ما أنا فعلت" فيفيد ثلاثة أمور : نفى الفعل عنك ..إثبات نفس الفعل الذى نفى عنك .. وجود فاعل آخر فعل هذا الفعل ، ولذا كان من الخطأ أن تقول : ما أنا فعلت هذا ولا أحد من الناس . ما أنا فعلت شيئا . ما أن أكرمت إلا زيدا .. وتقديم المفعول أو الظرف مثل تقديم المسند إليه يفيد الإختصاص المذكور ، ولذا لايقال : ما زيدا أكرمت ولاأهنت .. ما زيدا أكرمت بل أهنت ما بهذا أمرتك ولابغيره . وأما التقديم فى الإثبات نحو : "أنا فعلت وهم فعلوا" فيفيد إما التأكيد وتقوية الحكم وإما الاختصاص بحسب السياق وما تقتضيه قرائن الأحوال وتقديم النكرة فى ذلك كتقديم المعرفة .. وأما مثل وغير فإذا أريد بهما الكناية عما أضيفتا إليه كان تقديمها كالواجب نحو : مثلك يفعل هذا وغيرى يأكل المعروف سحتاً .. ومثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب ، فإن لم يرد بهما الكناية فتقديمهما وتأخيرهما سواء ...

كما فى قول الشاعر :

غيرى جنى وأنا المعاقب فيكم　　　فكأننى سبابة المتندم

وقول الآخر :

تشـــابه دمعى إذ جرى ومد امتى　　　فمن مثل ما فى الكأس عينى تسكب

ويتحدث فى موضع آخر عن تقديم "كل" وغيرها من ألفاظ العموم فيذكر أنها إذا قدمت على النفى كان المعنى علىعموم النفى وشموله جميع الأفراد نحو : كل ذلـــك لم يكن ، كله لم أصنع ، وإن وقعت فى حيز النفى كان المعنى على نفى البعض دون البعض الآخر كقولك : لم يأتنى القوم كلهم ، ما كل رأى الفتى يدعو إلى رشد . ما كـــل مـــا يتمنى المرء يدركه .. وقد عرض عبد القاهر لذلك الشواهد العديدة وحلـــل وفصـــل ، ووضح وبين ، وكثيراً ما يحيل على الذوق ويطلب من المخاطب أن يتأمل وينظر وكأنـــه يريد منه أن يصل إلى ما وصل إليه وأن يدرك ما أدركه ويشعر بما شعر هو به من حســـن وجمال . ويعقد فصلا للحذف فيقول :" هو باب دقيق المسلك لطيف المأخذ عجيب الأمر شبيه بالسحر ". فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر والصمت عن الإفـــادة أزيـــد للإفادة وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق ، وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبن ، وهذه جملة قد تنكرها حتى تخبر وتدفعها حتى تنظر ، وأنا أكتب لك بديئا أمثلة مماعرض فيه الحذف، ثم أنبهك على صحة ما أشرت إليه ، وأقيم الحجة من ذلك عليه.. " (١) .

ثم يعرض لحذف المبتدأ فيذكر أنه قد كثر عند ذكر الديار والأطلال كقوله :

اعتاد قلبك من ليلى عوائده　　　وهاج أهواءك المكنونة الطلل

ربع قواه أذاع المعصرات به　　　وكل حيران سار ماؤه خضل

وكذا عند القطع والاستئناف حيث يبدأون بذكر الرجل ويقدمون بعض أمره ثم يدعون الكلام الأول ويستأنفون كلاما آخر وإذا فعلوا ذلك أتوا فى أكثر الأمر بخبر من غير مبتدأ ، كقوله :

هم حلوا من الشـــرف المعـــلى　　　ومن حسب العشيرة حيث شاءوا

---

(١) دلائل الإعجاز ١٧٠

بنـــاة مكارم وأســـاة كلم		دماؤهم من الكلب الشفاء

ويشير إشارة إلى حذف الفعل فى بيت ذى الرمة :

ديـــار ميـــة إذا مى تســـاعفنا		ولايرى مثلها عجم ولا عرب

ويفصل القول فى حذف المفعول وما يكمن وراء حذفه من أســـرار ودقـــائق ، وتلك طريقته فى البحث والدراسة ، تراه ينقب عن المزايا ويبحث عن الأسرار ويفتـــش عن الدقائق واللطائف ، تأمل أقواله فى التفرقة بين الحذف وتقدير المحذوف ، وكيف أن التقدير يفسد المعنى ويذهب برونق الحذف ويضيع البهجة الكامنة وراءه : "ترى نصبـــة الكلام وهيئته تروم منك أن تنسى هذا المبتدأ و تباعده عن وهمك وتجتهد ألا يدور فـــى خلدك ولا يعرض لخاطرك وتراك كأنك تتوقاه توقى الشيء يكره مكانه والثقيل يخشـــى هجومه .. ترى النفس كيف تتفادى من إظهار المحذوف ، وكيف تأنس إلى إضمـــاره وترى الملاحة كيف تذهب إن أنت رمت التكلم به .. تكلف أن ترد ما حذف الشـــاعر وأن تخرجه إلى لفظك وتوقعه إلى سمعك، فإنك تعلم أن الذى قلت كما قلـــت، وأن رب حذف هو قلادة الجيد وقاعدة التجويد ..." (١) .

وعلى هذا المنوال استمر عبد القاهر فى شرح الأسس التى يقوم عليها النظـــم ، فتحدث عن الفصل والوصل وعن فروق فى الخبر والحال وعن أضرب الخبر والمجاز العقلى كما تحدث عن الاستعارة وفرق بينها وبين التشبيه البليغ ، وتحدث عن الكنايـــة وعـــن الجناس والسجع والمزاوجة والتقسيم والجمع . وغير ذلك من ألوان بلاغية ، وهو يقصـــد من وراء ذلك إلى إيضاح نظرية النظم وإبراز الأسس التى تقوم عليها .. انظر إلى حديثـــه عن الجناس وأثره فى المعنى : وإذا نظرت إلى تجنيس أبى تمام : أمذهـــب أم مذهـــب ، فاستضعته وإلى تجنيس القائل : "حتى نجا من جوفه وما نجا"

وقول المحدث :

ناظراه فيما جنى ناظراه		أودعانى أمت بما أودعانى

---

(١) الدلائل ١٧٤ ، ١٧٥

فاستحسنته ، لم تشك بحال أن ذلك لم يكن لأمر يرجع إلى اللفظ ، ولكن لأنك رأيت الفائدة ضعفت فى الأول و قويت فى الثانى ، وذلك أنك رأيت أبا تمام لم يـــزدك بمذهب ومذهب على أن أسمعك حروفا مكررة لاتجد لها فائدة - إن وجدت - إلا متكلفة متمحلة ، ورأيت الآخر قد أعاد عليك اللفظة كأنه يخدعك عن الفائدة وقـــد أعطاهـــا ويوهمك أنه لم يزدك وقد أحسن الزيادة ووفاها .. " (١)

وقد استمد السكاكى -وتبعه البلاغيون - مباحث علم المعانى من تلك الأسس التى بنى عليها عبد القاهر نظرية النظم فى كتابه : " دلائل الإعجاز" .

أما كتاب " أسرار البلاغة " ، فيتناول فيه التشبيه والتمثيل والاستعارة بصـــورة مفصلة مبينة ، كما عرض فيه للمجاز العقلى مفرقا بينه وبين المجاز اللغوى ، وقـــد بـــدأه بالحديث عن التجنيس والسجع مبرزا أثرهما فى المعنى ومبينا أنهما ليس لمجـــرد الزينـــة والتزويق ، و لم يشر عبد القاهر أى إشارة تدل على أنه يسمى مباحث التمثيل والتشـــبيه والمجاز " علم البيان "، بل إنه يطلق على تلك المباحث : " البديع" ، كما صنع ســـابقوه ، إذ يقـــول : " وأما التطبيق والاستعـــارة وســـائر أقسام البديع فلا شـــبهة أن الحســـن والقبح لا يعترض الكلام بهما إلا من جهة المعانى خاصة من غير أن يكون للألفاظ فـــى ذلك نصيب " (٢) . وأما تقسيم البلاغـــة إلى علومها الثلاثة : المعانى و البيان والبديـــع ، فلم يتم إلا بعد عبد القاهر ، كما ذكرت لك .ويستهل عبد القاهر مباحثه فى الكتـــاب بالحديث عن الجناس والسجع فيقول : " أما التجنيس فإنك لاتستحسن تجانس اللفظتـــين إلا إذا كان موقع معنييهما من العقل موقعـــا حميدا ، و لم يكن مرمى الـــجامع بينهمـــا مرمى بعيدا ، أتراك استصغت تجنيس أبى تمام فى قوله :

ذهبت بمذهبه السماحة فالتوت   فيه الظنون أمذهب أم مذهب

واستحسنت تجنيس القائل : " حتى نجا من جوفه وما نجا " .

وقول المحدث :

---

(١) الدلائل ٤٥٧

(٢) أسرار البلاغة ص ٢٨

ناظراه فيما جنى ناظراه أو دعانى أمت بما أو دعانى

لأمر يرجع إلى اللفظ ؟ أم لأنك رأيت الفائدة ضعفت عن الأول وقويت في الثانى ؟ ورأيتك لم يزدك بمذهب ومذهب على أن أسمعك حروفا مكررة تروم لها فائدة فلاتجدها إلا مجهولة منكرة ، ورأيت الآخر قد أعاد عليك اللفظة كأنه يخدعك عن الفائدة وقد أعطاها ، ويوهمك أنه لم يزدك وقد أحسن الزيادة ووفاها ، فبهذه السريرة صار التجنيس – وخصوصا المستوفى منه المتفق فى الصورة – من حلى الشعر ومذكوراً فى أقسام البديع .. " [1] ، وقد مر بك هذا القول له فى كتابه : " دلائل الإعجاز " . ولايخفى عليك رجوعه جمال الجناس وحسنه إلى المعنى ، وما يحدثه فى النفس من أ ثر غير مرتقب ، وينفى أن يكون الحسن راجعا إلى اللفظ وجرس الحروف فحسنه حسن ذاتى وليس عرضيا .ويمضى عبد القاهر فى الحديث عن الجناس والسجع فيذكر أن مثل هذه الفنون تستحسن وتحمد إذا جاءت عفو الخاطر وبلا تكلف ، أما إذا تكلفت وقصدت فإنها تذم ولاتقبل " وعلى الجملة فإنك لاتجد تجنيسا مقبولا ولاسجعا حسنا حتى يكون المعنى هو الذى طلبه واستدعاه ، وساق نحوه ، وحتى تجده ، لاتبتغى به بدلا ولا تجد عنه حولا ، ومن ههنا كان أحلى تجنيس تسمعه وأعلاه ، وأحقه بالحسن وأولاه ما وقع من غير قصد من المتكلم إلى اجتلابه ، وتأهب لطلبه[2]".. .وإذا كان فى الدلائل قد ذكر الجناس التام فقط وأبرز حسنه فإنا نراه ههنا فى الأسرار يمضى إلى الجناس غير التام

فيتحدث عماله من جمال وحسن إذ يقول : " واعلم أن النكتة التى ذكرتها فى التجنيس وجعلتها العلة فى استيجابه الفضيلة وهى حسن الإفادة مع أن الصورة صورة التكرير والإعادة وإن كانت لاتظهر الظهور التام الذى لايمكن دفعه إلا فى المستوفى المتفق الصورة منه .

كقوله :

ما مات من كرم الزمان فإنه يحيا لدى يحيى بن عبدالله

---

(١) أسرار البلاغة ص٢٠

(٢) أسرار البلاغة ص٢٠

أو المرفـو الجارى هذا المجرى كقوله :" أو دعانى أمت بما أودعـانى " فقـد يتصور فى غير ذلك من أقسامه أيضا، فمما يظهر ذلك فيه ما كان نحو قول أبى تمام :

يمدون من أيد عواص عواصم   تصول بأسياف قواض قواضب

وقول البحترى :

لئن صدفت عنا فربت أنفس   صواد إلى تلك الوجوه الصوادف

وذلك أنك تتوهم قبل أن يرد عليك آخر الكلمة ، كالميم من عواصم والباء من قواضب ، أنهـا هى التى مضت ، وقد أرادت أن تجيئك ثانية وتعود إليك مؤكـدة ، حتى إذا تمكن فى نفسك تمامها ، ووعى سمعك آخرها انصرفت عن ظنك الأول ، وزلت عن الذى سبق من التخييل ، وفى ذلك ما ذكرت لك من طلـوع الفـائدة بعـد أن يخالطك اليأس منها ، وحصول الربح بعد أن تغالط فيه حتى ترى أنه رأس المال .... "

ويستمر عبد القاهر فيتحدث عن الحشو ويقسمه إلى مفيد وغير مفيد ، ويشير إلى الطباق فيذكر أن الحسن والقبح يعترض الكلام به وبالاستعارة من جهة المعانى خاصة من غير أن يكون للألفاظ فى ذلك نصيب ، ثم ينتقل بعد ذلك إلى الاسـتعارة فيذكـر أن المعـانى تتفق وتختلف وتجتمع وتفترق ولكى نقف على الشريف منهـا ونعـرف غـير الشريف ، لابد من مقدمات تقدم وأصول تمهد ، وأشياء حقها أن تجمع وضروب مـن القول ينبغى أن تقطع : " وأول ذلك وأولاه وأحقه بأن يستوفيه النظر ويتقصاه ، القـول على التشبيه والتمثيل والاستعارة فإن هذه أصول كثيرة كان جل محاسن الكـلام - إن لم نقل كلها - متفرعة عنها وراجعته إليها ، وكأنها أقطاب تـدور عليهـا المعـانى فـى متصرفاتها ، وأقطار تحيط بها من جهاتها ولا مثل قولهم : " الفكرة مخ العمل " .

وقوله " وعرى أفراس الصبا ورواحله " ، وقوله : " السفر ميزان القوم " ، وقول الأعرابى : " كانوا إذا اصطفوا سفرت بينهم السهام وإذا تصافحوا بالسيوف قفز الحمام " ، والتمثيل كقوله : " فإنك كالليل الذى هو مدركى "(١).

ويمضى في حديثه عن الاستعارة فيقول : " اعلم أن الاستعارة فى الجملة أن يكون لفظ الأصل فى الوضع معروفا تدل الشواهد على أنه اختص به حين وضع ، ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر فى غير ذلك الأصل ، وينقل إليه نقلا غير لازم فيكون هناك كالعارية "(٢) .

ثم يقسمها إلى مفيدة وغير مفيدة ، جاعلا غير المفيدة قصيرة الباع قليلة الاتساع ، ممثلا لها بنحو إطلاقهم مشفر البعير على شفة الإنسان دون ملاحظة المبالغة فى وصف الشفة بالغلظ والتدلى مثلا ، وقد عرف ذلك فيما بعد باسم المجاز المرسل ، أما المفيدة فهى التى يقصد بها قصدا إلى المبالغة نحو : " كلمت بحرا " ، والمفيدة هى الجديرة باسم الاستعارة ، لأنها أمد ميدانا وأشد افتتانا وأكثر جريانا وأعجب حسنا وإحسانا وأوسع سعة وأبعد غورا ، ومتى كانت الاستعارة على هذا الوصف فهى من حلى الشعر ، ومعدودة ضمن ألوان البديع . وهكذا يمضى عبد القاهر مفصلا القول فى الاستعارة تفصيلا لم نعهده عند أحد من سابقيه ، فقد تحدث عما تحدثه فى النفس من أنس وما تجلبه من ومتعة ولذة ، وبين أقسامها فقال: إنها تجرى فى الأسماء وتجرى فى الأفعال ، والتى تجرى فى الأسماء إما محققة وإما مرموزا لها ، وقد أفاد البلاغيون من ذلك فيما بعد فنوعوا الاستعارة إلى تبعية وأصلية ، والأصلية إلى تصريحية ومكنية، وأفاض عبد القاهر فى التفرقة بين التصريحية والمكنية ، أو كما سماها : " المحققه والمرموز إليها " ، فقال : " اعلم أن كل لفظة دخلتها الاستعارة المفيدة ، فإنها لاتخلو من أن تكون اسما أو فعلا ، فإذا كانت اسما فإنه يقع مستعار على قسمين : أحدهما : أن تنقله عن مسماه الأصلى إلى شيء آخر ثابت معلوم ، فتجريه عليه وتجعله متناولا له تناول

---

(١) أسرار البلاغة ص٣٤

(٢) أسرار البلاغة ص ٣٦

الصفة مثلا للموصوف ، وذلك قولك : رأيت أسدا وأنت تعنى رجلا شجاعا ، ورنت لنا ظبية ، وأنت تعنى امرأة، وأبديت نورا تعنى هدى وبيانا وحجة ، وما شاكل ذلك، فالاسم فى هذا كله ، كما تراه متناولا شيئا معلوما يمكن أن ينص عليه فيقال : إنه عنى بالاسم وكنى به عنه ، ونقل عن مسماه الأصلى فجعل اسما له على سبيل الاستعارة والمبالغة فى التشبيه ، والثانى : أن يؤخذ الاسم عن حقيقته ويوضع موضعا لايبين فيه شيء يشار إليه فيقال : هذا هو المراد بالاسم ، والذى استعير له وجعل خليفة لاسمه الأصلى ونائبا منابه ، ومثاله قول لبيد :

وغداة ريح قد كشفت وقرة   إذ أصبحت بيد الشمال زمامها

وذلك أنه جعل للشمال يدا ومعلوم أنه ليس هناك مشار إليه يمكن أن تجرى اليد عليه كإجراء الأسد والسيف على الرجل فى قولك : انبرى لى أسد يزأر ، وسللت سيفا على العدو لايفل ، والظباء على النساء فى قوله : " من الظباء الغيد "(١) ، والنور على الهدى والبيان فى قولك : أبديت نورا ساطعا "(٢) .

ويضيف : " وطريقة أخرى فى بيان الفرق بين القسمين وهو أن الشبه فى القسم الأول الذى هو نحو : رأيت أسداً ، تريد رجلا شجاعا ، وصف موجود فى الشيء الذى له استعرت واليد ليست توصف بالشبه ولكنه صفة تكسبها اليد صاحبها وتحصل له بها وهى التصرّف على وجه مخصوص "(٣) .ويمضى إلى الاستعارة فى الفعل فيبين أن الاستعارة فى الأفعال تجرى فيها تبعا لجريانها فى مصادرها ، ويفصل القول فى الجامع بين طرفى الاستعارة ثم ينتقل إلى التشبيه والتمثيل فيفرق بينهما ويفصل القول فى التشبيهات المفردة والمركبة والتشبيهات الحسية والعقلية والقريبة المبتذلة والبعيدة الغريبة وأدوات التشبيه، ويفيض فى بيان التشبيه التمثيلى وتحليل شواهده والكشف عن أسراره ومواطن حسنه وجماله، ويفرق بين التشبيه البليغ وبين الاستعارة ويعرض للمجاز العقلى

---

(١) من بيت البحترى وهو ضمن قصيدة يمدح فيها المعتز بالله :

من عذيرى من الظباء الغيد   ومجيرى من ظلمهن العتيد

(٢) أسرار البلاغة٤٨/٤٩

(٣) أسرار البلاغة ٥٣

فيشرح ويفصل ويبين ويحدد مفرقـــا بين التجوز فى الإسناد والتجوز فـــى الكلمـــة .. ويعرض للتخييل فيبين أنواعه المختلفة مستشهدا لها ومحللا وشارحا ، فمنه مايجىء مصنوعا قد تلطف فيه حتى أعطى شـبها من الحق وغشى رونقـــا من الصدق ، كما فى قـــول أبى تمـــام :

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى　　　فالسيل حرب للمكان العـــالى

ومنه ما يبنى على حسن التعليل بأن يدعى فى الصفة الثابتة للشىء أنه إنما كـــان لعلة يضعها الشـــاعر ويختلقها إمـــا لأمر يرجع إلى تعظيم الممدوح أو تعظيم أمـــر مـــن الأمور ، كما فى قول المتنبى :

لم يحك نائلك السحاب وإنما　　　حمت به فصبيبها الرحضـــاء

وكما فى البيت :

لو لم تكن نية الجوزاء خدمته　　　لما رأيت عليها عقـــد منتطق

أو يكون للمعنى من المعانى علة مشهورة فيدعها الشاعر ويضع له علة أخرى من صنع خياله ، كما فى قول المتنبى :

ما بـــه قتل أعـــاديه ولكن　　　يتقى إخلاف ما ترجو الذئاب

ومن التخييل ما يبنى على تناسى التشبيه وصرف النفس عن توهمه ، كما فـــى قول أبى تمام :

ويصعد حتى يظن الجهـــول　　　بأن له حاجـــة فى الســـماء

وفى أثناء حديثه عن الفروق بين الاستعارة والتشبيه البليغ يعرض للتجريد وإن لم يسمه بهذه التسمية ، كما فى قوله تعالى ﴿لَهُمْ فيها دَارُ الخُلْدِ﴾ (١) وقولك: لقيـــت بـــه أسدا ورأيت به لئيما ، وقول الأعشى :

ياخـــير من يركب المطى ولا　　　يشرب كأســـا بكف من بخلا

ويختتم عبدالقاهر كتابه : " أسرار البلاغة " بالحديث عن مجاز الحذف وهو مـــا لا يجرى فيه نقل الكلمة من معناها الأصلى إلى معنى جديد ، وإنما يجرى فيه تغير الحكـــم

---

(١) سورة فصلت آية ٢٨

الأعرابى بسبب ما يدخله من الحذف كما فى قوله تعالى ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ (١) فقد نصبت " القرية " وكانت قبل الحذف مجرورة . هذا وما ذكرته هنا عن كتابى :

" دلائل الإعجاز " و " أسرار البلاغة " نزر يسير من تفصيل كثير لا غنى لدارس البلاغةمن الوقوف عليه والإحاطة به ، فعليك أن ترجع إلى الكتابين وتقف على صنيع عبدالقاهر ليتضح لك أنه قد أفاد من سابقيه واستطاع بحسه المرهف ونفاذ بصيرته ، أن يكشف عن خصائص الصيغ والتراكيب وأن يجلى الأسرار والدقائق الكامنة وراء الصور البيانية من خلال ما يعرضه من آى الذكر الحكيم والحديث الشريف ومن التعبيرات الجيدة ونماذج الشعر العربى وفرائده . فماذا بعد عبد القاهر ؟

مسار البحث البلاغي بعد عبدالقاهر : تغير البحث البلاغى بعد عبد القاهر وسار في اتجاهات مختلفة. فقد رأينا تطبيقات الزمخشرى " ت ٥٣٨ هـ " فى كتابه : "الكشاف " حيث استطاع أن يستوعب كل ما كتبه السابقون وبخاصة ما كتبه الإمام عبد القادر فى كتابيه " أسرار البلاغة " و " دلائل الإعجاز " ومضى يطبقه تطبيقا دقيقاً على آى الذكر الحكيم ، ولم يدع رأيا من الآراء ولا مسألة من المسائل إلا وساق لها الشواهد من الآيات الكريمة حتى تتضح وتجلى ، ولم يقف عند هذا الحد ، بل مضى يتمم تلك الأراء ويستكمل تلك المسائل مضيفا إليها إضافات تنم عن فكر ثاقب وحس مرهف .

الاتجاه الفلسفي : وكان هناك اتجاه فلسفى منطقى ، مال بالبلاغة نحو القواعد والتلخيص ، وقد تمثل هذا الاتجاه فى كتاب " نهية الإيجاز فى دراية الإعجاز " للإمام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين بن على الرازى "ت ٦٠٦ هـ" الذى لخص كتابى عبد القاهر " الدلائل " و "الأسرار " ، فكان بعمله هذا أول من قعد علوم البلاغة ورتب مسائلها فى تقنين علمى هو الأول من نوعه ، وبذلك قضى على الروح الأدبية التى شاهدناها فى كتاب الجرجانى ، ومال بل وانحرف نحو الضبط والحصر المنطقى بذكر الحدود وبيان القيود وإخراج المحترزات ، وتلاه السكاكى

---

(٢) سورة يوسف آية ٨٢

"ت ٦٢٦ هـ" بكتابه مفتاح العلوم الذى خص الجزء الثالث منه بعلمى المعانى والبيان ، ملحقا بهما دراسة المحسنات المعنوية واللفظية ، فهو أول من قسم البلاغة إلى علمين : " المعانى " ويتناول المباحث التى تعرض لصياغة الجمل وبناء التراكيب والتى تحدث عنها عبدالقاهر فى " دلائل الإعجاز " ، و " البيان " ، ويتناول مباحث الصورة من تشبيه ومجاز وكناية والتى عرض لها عبدالقاهر فى " أسرار البلاغة " ، ولم يجعل البديع علما ثالثا مستقلا عن علمى المعانى والبيان ، بل جعله لاحقا بهما إذ يقول عنه : " وهناك وجوه مخصوصة كثيرا ما يصار إليها لقصد تحسين الكلام فلا علينا أن نشير إلى الأعرف منها. وهى قسمان : قسم يرجع إلى المعنى ، وقسم يرجع إلى اللفظ" (١) . وعلى القسم الثالث من مفتاح العلوم ، قامت الشروح ودونت التلخيصات ، فألف بدر الدين ابن مالك : " ت ٦٨٦ هـ " كتابه " المصباح فى علوم المعانى والبيان والبديع " وقد سار فيه على نهج السكاكى وتقسيماته ، وعلى الرغم من اعترافه بأن المحسنات من توابع العلمين : " المعانى والبيان " إلا أنه جعلها علما مستقلا سماه : " علم البديع " وبذلك صارت البلاغة متضمنة ثلاثة علوم ثم جاء الخطيب القزوينى : " ٧٣٩ هـ " فوضع تلخيصه وهو تلخيص للجزء الثالث من مفتاح العلوم ، وسماه : " تلخيص المفتاح " وقد شعر العلماء بأنه مختصر شديد الاختصار لايشفى غليل الدارس ، فوضعوا عليه شروحا عدة عرفت باسم : شروح التلخيص وأهمها : عروس الأفراح فى شرح تلخيص المفتاح " لبهاء الدين السبكى : " ت ٧٧٣ هـ" و " المطول والمختصر " لسعد الدين التفتازانى :" ت ٧٩١ هـ" والأطول لعصام الدين بن عربشاه الاسفرابيتى الذى توفى بسمرقند فى منتصف القرن العاشر الهجرى ، ومواهب الفتاح فى شرح تلخيص المفتاح لابن يعقوب المغربى: " ت ١١١٠ هـ " و " الجمان " لجلال الدين السيوطى : "ت٩١١ هـ " وهو أرجوزة تختصر متن التلخيص ، وقد وضع عليها شرحا سماه : "عقود الجمان " وعلى المطول وضعت حاشيتا السيد الشريف الجرجانى : "ت ٨١٦ هـ" وعبد الحكيم السيالكوتى الهندى : " ت ١٠٦٧ هـ " وعلى المختصر وضع الشيخ محمد الدسوقى المصرى : " ١٢٣٠ هـ " حاشية .. وكأن الخطيب نفسه قد

---

(١) مفتاح العلوم ٢٢٤

شعر بما فى التلخيص من شدة اختصار فأتبعه بكتاب سماه " الإيضاح لتلخيص المفتاح " ، وهو فيه أقرب إلى روح عبد القاهر إذ نراه يحلل ويوضح ويكثر من الشواهد والأمثلة مبرزا ما فيها من أسرار ودقائق . وقد جمعت الشروح الثلاثة : مختصر سعد الدين ، ومواهب الفتاح ، وعروس الأفراح فى كتاب وضع بهامشه : كتاب الإيضاح للقزوينى ، وحاشية الدسوقى على " المختصر " وعرف هذا الكتاب باسم : " شروح التلخيص " ، ويقع فى أربع مجلدات .

الاتجاه الأدبى : وبالإضافة إلى الاتجاه الفلسفى الذى ظهر فى المفتاح وتلخيصه وشروحه ، وإلى تطبيقات الزمخشرى فى الكشاف ، وجد اتجاه أدبى تمثل فى كتاب : "المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر " لابن الأثير : " ت ٦٣٧ هـ " ، وكتابى : "تحرير التحبير" و " بديع القرآن" لابن أبى الإصبع المصرى : " ت٦٥٤ هـ " وكتاب " الطراز " ليحى بن حمزة العلوى : " ت ٧٠٩ هـ " وقد تناولت هذه الكتب دراسة مسائل البلاغة بطريقة أدبية تذوقية ، تعتمد على تحليل النصوص والشواهد ، والكشف عما فيها من مواطن البلاغة والجمال دون احتفال بالتعاريف والخلافات والأقيسة المنطقية .

البديع والبديعيات : وفى القرن السابع الهجرى ظهرت البديعيات فى الشعر العربى ، وهى قصائد يشتمل كل بيت منها على لون أو أكثر من ألوان البديع ، إما تمثيلا فقط ، وإما جمعا بين التمثيل والتورية باسم الفن الممثل له ، فهى منظومات فى البديع تشبه منظومات العلوم كألفية بن مالك فى النحو ، وكالشاطبية فى القراءات . وأول من سبق إلى هذه البديعيات هو الشاعر المصرى : عل بن عثمان بن على بن سليمان الأربلى ، وهو شاعر صوفى توفى سنة ٦٧٠ هـ ، وقد اشتملت بديعيته على ستة وثلاثين بيتا يتضمن كل بيت منها لونا من ألوان البديع كتب إلى جانبه ، وقد بدأها الأربلى بالغزل ثم خلص منه إلى مدح شخص غير معروف ، ومنها قوله :

بعض هذا الدلال والإدلال   حالى الهجر والتجنب حالى

الجناس اللفظى

ثم تلاه صفى الدين الحلى " ت ٧٥٠ هـ " فنظم بديعيته فى مدح المصطفى صلى الله عليه وسلم معارضا بها بردة البوصيرى وقد عرفت باسم " نهج البردة " ، فهى على وزنها ورويها وغرضها وزادت عليها فى الاحتفال بالبديع ، إذ بلغ عدد أبياتها خمسة وأربعين ومائة بيت ، اشتملت على مائة وخمسين لونا من ألوان البديع ، و لم يفصل الحلى بين علوم البلاغة ، بل تناول مسائلها تحت اسم البديع ، وقد أشار إلى أنه استعان بسبعين كتابا فى تأليف تلك البديعية ، ومنها قوله :

إن جئت سلعاً فسل عن جيرة العلم ... واقْرَ السلام على عرب بذى سلم (١)

براعة المطلع والتجنيس

فقد ضمنت وجود الدمع من عدم ... لهم و لم أستطع مع ذاك منع دمى

تجنيس التلفيق

ومن البديعيات بديعية ابن جابر الأندلسى وكان معاصرا للحلى ، وقد نشأ فى بلاد الأندلس ثم رحل إلى مصر ، ونظم تلك البديعية التى سماها : " الحلة السِّيَرا فى مدح خير الورى " (٢) وشرحها صاحبه ومعاصره أبو جعفر الغرناطى شرحا سماه : "طراز الحلة وشفاء الغلة " ، وتختلف هذه البديعية عن غيرها من البديعيات بأن ناظمها قد اقتصر على ألوان البديع التى عرفت عند الخطيب كما فصل بين ألوان البديع المعنوية واللفظية فلم يخلط بينها ، وتقع البديعية فى مائة وسبعة وعشرين بيتاً ، منها :

بِطَيْبَةَ انزل ويمم سيد الأمم ... وانثر له المدح وانشر أطيب الكلم

براعة استهلال

وابذل دموعك واعذل كل مصطبر ... والحق بمن سار والحظ ما على القلم

الجناس اللاحق

---

(١)سلع : جبل فى المدينة والعلم : الجبل . وذو سلم : جبل شرقى المدينة .

(٢) السيراء : المخططة أو التى يخالطها حرير .

ومنها بديعية عز الدين الموصلى : " ت٧٨٩ هـ " وعدد أبياتها خمسة وأربعون ومائة بيت ، وهو أول من شرع للبديعيات التقيد بالتزام التورية باسم اللون البديعى فزادها هذا الالتزام ثقلا على ثقل ، يقول فى مطلعها مشيرا إلى براعة الاستهلال :

براعة تستهل الدمع فى العلم عبارة عن نداء المفرد العلم

ومنها بديعية ابن حجة الحموى : " ت ٨٢٧ هـ " التىنظمها على طريقة شيخه عز الدين الموصلى ، وتقع فى مائة واثنين وأربعين بيتا ، يشتمل كل بيت على لون من ألوان البديع .. يقول فى مطلعها عن براعة الاستهلال :

لى فى ابتداء مدحكم يا عرب ذى سلم براعة تستهل الدمع فى العلم

ومنها قوله مشيراً إلى الطباق :

بوحشة بدلوا أنسى وقد خفضوا قدرى وزادوا علوا فى طباقهم

وقوله مشيراً إلى التمثيل :

وقلت ردفك موج كى أمثله بالموج قال : قد استسمنت ذا ورم

واستمرت البديعيات ، فرأينا بديعية عائشة الباعونية الدمشقية : " ت ٩٢٢ هـ" وبديعية صدر الدين بن معصوم الحسينى المدنى : " ت ١١١٧ هـ " وقد ألف عليها شرحا سماه " أنوار الربيع فى أنواع البديع " ، ولعبد الغنى النابلسى : " ١١٤٣هـ " بديعيتان ، أولاهما على غرار بديعية الحلى والباعونية ، أى أن أبياتها لا تتضمن أسماء المحسنات البديعية ، وقد سماها " نسمات الأسحار فى مدح النبى المختار " ، وثانيتهما على غرار بديعية الموصلى والحموى ، أى أن أبياتها تتضمن أسماء المحسنات البديعية . ولمحمود صفوت الساعاتى المصرى : " ت ١٢٩٨ هـ " بديعية اشتملت على مائة وخمسين لونا من ألوان البديع فى مائة واثنين وأربعين بيتا ، معارضا بها بديعية ابن حجة ملتزما ما التزمه من التورية باسم اللون البديعى ، ومنها قوله مشيرا إلى براعة الاستهلال :

سفح الدموع لذكر السفح والعلم أبدى البراعة فى استهلاله بدم

ومنها قوله فى التورية :

وكم بكيت عقيقـا والبكاء على بدر وتوريتى كانت لبدرهم

إلى غير ذلك من البديعيات التى استبدت بالشعر منذ أواسط القرن السابع الهجرى ، والتى نستطيع أن نقول عنها : إنها صناعة من العبث ، أضعفت الشعر وجردته من روائعه وهوت به إلى هاوية الإسفاف ،كما جنت على البديع وفنونه وذهبت به مذاهب التشعيب ، فعد منه ما لا يصح أن يكون منه ، حتى كانت الكثرة التى بلغت حد الإملال فضلا عن أن تلك البديعيات ما لت إلى التلخيص الشديد الذىاحتاج إلى الشروح وتوضيح الشروح ، فلم تعد على البديع بدراسة غنية مفيدة ، ولم يجن منها سوى الإفراط والتفريط فى تصنع ألوانه وتكلف مسمياته .

البديع بين الذاتية والعرضية : ظلت فنون البلاغة منذ أن كتب فيها العلماء وألفت المؤلفات وحتى عصر الزمخشرى لا تعرف تقسيما ولا تمييزا ، فكانت تدرس تلك الفنون على أن حسنها حسن ذاتى يقتضيه المقام ويستدعيه الكلام ، وقد مر بك حديث عبدالقاهر عن بعض فنون البديع كالجناس والسجع والمزاوجة والتقسيم وحسن التعليل ، ورأيت كيف يبرز المزايا البلاغية لتلك الفنون ويبين أن الحسن الكامن وراءها حسن ذاتى يرجع إلى المعنى وما يقتضيه المقام . وبعد الزمخشرى رأينا السكاكى يحصر البلاغة فى علمى المعانى والبيان ، جاعلا فنون البديع وجوها يصار إليه لقصد تحسين الكلام ، ثم قسم هذه الوجوه إلى قسمين : قسم يرجع إلى المعنى وقسم يرجع إلى اللفظ ، وجاء بدر الدين بن مالك فأطلق على تلك الوجوه : علم البديع ، وبهذا صارت البلاغة ثلاثة علوم ، ولما جاء الخطيب ولخص المفتاح ثم وضع التلخيص ، فصل البديع فصلا كاملا عن أخويه البيان والمعانى ، وصارت البلاغة عند الخطيب ومن تبعه محصورة فى علمى المعانى والبيان ، أما البديع فصار علم تحسين وتزيين ... وعرفه الخطيب بقوله : " هو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة لمقتضى الحال ووضوح الدلالة " (١) .

---

(١) تلخيص المفتاح ٣١٥ .

وقد جعل هذه المحسنات البديعية نوعين :

١ .-محسنات لفظية : وهى التى يكون التحسين فيها راجعا إلى اللفظ أولا وبالذات ويتبعه تحسين المعنى ثانيا وبالعرض ، وعلامته أنك لو غيرت أحد اللفظين بما يرادفه لزال ذلك المحسن ، ففى قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ (١) ، جناس تام بين " ساعة " و " الساعة " فهو محسن لفظى وعلامة كونه لفظيا أنك لو غيرت كلمة " الساعة " بمرادفها فقلت : ويوم تقوم القيامة ، لزال الحسن الذى خلعه الجناس على الكلام .

٢ -محسنات معنوية: وهى التى يكون التحسين فيها راجعا إلى المعنى أولا وبالذات ، ويتبعه تحسين اللفظ ثانيا وبالعرض ويميز هذا النوع عن الأول، أنك لو غيرت اللفظ بما يرادفه لبقى المحسن كما كان قبل التغيير ، ففى قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى وَأَنَّهُ هو أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾ (٢) . طباق بين ﴿ أضحك وأبكى﴾وبين ﴿ أمت وأحيا﴾ ، والطباق محسن معنوى وعلامة كونه معنويا أنك لو غيرت اللفظ بمرادفه فقلت فى غير القرآن " أسر وأحزن " مثلا ، بقى المحسن وظل الجمال الذى خلعه الطباق على الكلام موجودا وهذا التقسيم تقسيم غير موفق ، لأن فيه فصلا للروح عن الجسد ، إذ الألفاظ أجساد للمعانى ، ولايظهر للألفاظ مزية إلا من خلال النظم والتركيب ، ولذا ستجدنا عند دراسة ألوان البديع فى القسم الثانى ، لن نعتد بهذا التقسيم ولن نقيم له وزناً .

هذا ونظرة المتأخرين – الخطيب وأتباعه – إلى فنون البديع على أنها مجرد محسنات حسنها حسن عرضى يأتى بعد تمام المطابقة ووضوح الدلالة ، نظرة غير سديدة ، ولا تتمشى مع نظرة المتقدمين الذين جعلوا الحسن فى تلك الفنون حسنا ذاتيا يقتضيه المقام ويدعو إليه الحال ، ولذا وجدنا غير واحد من المتأخرين يخالف الخطيب معلنا أن تحسين " البديع " تحسين ذاتى ، وليس عرضيا ، ومن هؤلاء بهاء الدين السبكى ،

---

(١) سورة الروم آية ٥٥.

(٢) سورة النجم الآيتان ٤٣،٤٤.

صاحب عروس الأفراح وأبو جعفر الغرناطى فى مقدمة شرحه لبديعية ابن جابر الأندلسى والشيخ أحمد موسى فى كتابه : " الصبغ البديعى " . يقول السبكى معلقا على تعريف الخطيب السابق : " يحتمل أن يراد بعد معرفة رعاية تطبيقه ووضوح الدلالة ، ويكون المراد : هو قواعد يعرف بها وجوه التحسين ووجوه التطبيق ، ومعرفة التطبيق والوضوح سابقان على معرفة التحسين فيكون المعانى والبيان جزءين للبديع ، ويحتمل أنه قواعد يعرف بها بعد معرفة التطبيق والوضوح وجوه التحسين فلا يكون المعانى والبيان جزئين للبديع ، بل مقدمتين له ، وقد صرحوا بأن المراد هو الأول ، وفى استخراجه من منطوق عبارة المصنف عسر ؛لأنك إذا قلت : عرفت زيدا بعد معرفتى لعمرو ، فالمخبر به معرفة زيد مقيدة بسبق معرفة عمرو . لا معرفة زيد وعمرو " [(١)] . ويقول فى موضع آخر: "والحق الذى لا ينازع فيه منصف أن البديع لا يشترط فيه التطبيق ولا وضوح الدلالة ، وأن كل واحد من تطبيق الكلام على مقتضى الحال ، ومن الإيراد بطرق مختلفة ومن وجوه التحسين قد يوجد دون الآخرين ، وأدل برهان على ذلك أنك لاتجدهم فى شئ من أمثلة البيان يتعرضون إلى بيان اشتمال شئ منها على التطبيق ، ولا تجدهم فى شئ من أمثلة البديع يتعرضون لاشتماله على التطبيق والإيراد، بل تجد كثيرا منها خاليا عن التشبيه والاستعارة والكناية التى هى طرق علم البيان ، هذا هو الإنصاف وإن كان مخالفا لكلام الأكثرين " [(٢)] . ويقول أبو جعفر الغرناطى فى تعريف البلاغة : " هى بلوغ المتكلم فى تأدية المقصود الغاية من رعاية حسن اللفظ وتوفية المعنى بحسب اقتضاء المقام " . ثم يذكر أنها راجعة إلى ثلاثة أشياء .. إلى ما يحترز به عن الخطأ فى خواص التراكيب وهو علم المعانى .. فالبلاغة إذًا لاتحصل إلا لمن استكمل العلوم الثلاثة [(٣)] . ويقول الشيخ أحمد موسى : " إن تعريف بلاغة الكلام الذى ذكره الخطيب بقوله : " هى مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته ، شامل لهذه

---

(١) عروس الأفراح ٢٨٣/٤ .

(٢) شروح التلخيص ٢٨٤/٤ .

(٣) انظر مقدمة طراز الحلة وشفاء الغلة .

الأصباغ مع التوسع فى مفهوم الحال بجعله أعم مما ذكروه حتى ينطبق على أحوال البديع فإذا اقتضى الحال طباقا أو تقسيما أو مزاوجة أو غير ذلك كان الظلام، المشتمل عليها مطابقا لمقتضى الحال ، وخلوه منها غير مطابق فيكون فى الأول بليغا وفى الثانى على خلافه وذلك أمر تقره الفطرة ، ويساعد عليه ما سردناه من شواهد ." [1] . وبهذا يتضح لك أن الحسن الناجم عن فنون البديع حسن ذاتى له مكانته فى البلاغة ويقتضيه المقام ، وهذا ما سنبرزه لك عند دراستنا لكل فن من تلك الفنون البديعية فى القسم الثانى .. أما نظرة الخطيب ومن لف لفه إلى كون هذه الفنون لمجرد الزينه والتذويق وكون حسنها حسنا عرضيا ، فهى نظرة بعيدة عن الصواب تتنافى مع ما تضفيه تلك الفنون على المعانى من جمال ومزايا ..

أصالة البلاغة العربية : وكنت على أن أترك هذا القسم مكتفيا بما قلته ، لأنتقل إلى القسم الثانى فأتناول فنون البديع ومسائله فى دراسة فنية وتحليلية لتلك المسائل كشفا عن دقائقها وتجلية لأسرارها ولطائفها ؛ لولا أننى وجدت لزاما على - خاصة وأن الدارس قد وقف الآن على صورة بينة لنشأة هذه الفنون وتطورها - أن أقف أمام هذه القضية لأجليها للدارس ، فهى قضية تستلزم الوقوف وجديرة بالتأمل والنظر والمراجعة .. ألا وهى أصالة البلاغة العربية .

لقد كثر الكلام وطالت المناقشات حول هذه القضية قديما وحديثا ، وحلا لمن حلا له أن يحط من شأن البلاغة العربية وأن يجعلها صورة وفنونا وعبارة ، مستمدة من بلاغة اليونان وغيرهم من الأمم الأجنبية ، فالبعض يجعل من أرسطو المعلم الأول للمسلمين ليس فقط فى الفلسفة والمنطق بل أيضا فى البلاغة والبيان ، والبعض يغالى ويسرف فى رد الفنون البلاغية التى تحدث عنها العلماء العرب إلى منطق أرسطو وفلسفته .. وانبهار هؤلاء بالثقافات الأجنبية وحبهم لها وشغفهم بها وجريهم

---

(١) الصبغ البديعى ٥٠٧ .

وراءهـــا، ليس فقط فى عصرنا الحديث ، بل هو قديم ، وقد تصدى العلمــــاء لأمثـــال هؤلاء نصحـــاً وإرشـــاداً وإبرازا لفضل العرب وبيانهم وثقافتهم التى فاقت مــــا عنـــد غيرهم من ثقافـــات .

فتعـــالوا ننظر فى هذه القضية وما أثير حولها من تساؤلات ومناقشـــات قديمـــا وحديثـــاً .

ففى القديم نرى الجاحظ يشيد بفضل العرب ولغتهم وثقافتهم ويجعـــل البديـــع مقصوراً عليهم حيث يقول : " والبديع مقصور على العرب ومن أجله فاقت لغتهم كـــل لغة وأربت على كل لسان ، وكذلك الخطابة فإنها عندهم بديهة وارتجال وكأنها إلهام ، وهي عند غيرهم كلم معد وقـــول مزود ، أي عن مشـــاورة ومعاونـــة وعـــن طـــول الفكر "[1].

فنراه يشيد بفضل العرب وتفوقهم في ميدان الفصاحة والبيان ويشير إلى ســـبب هـــذا التفـــوق وهو كثرة البديع فى لغتهم إلى حـــد أن صار ما فى اللغات الأخرى منه لا يعتد به لقلته فيها وكثرته فى لغة العرب ، وهو ينظر فى ذلك إلى عصره الذى كثرت فيه الصور البديعية وتفنن فيها الشعراء ...

وإذا كان الجاحظ يشيد بفضل العرب وتفوقهم ، فإننا نجد ابن قتيبة ينزل تلـــك الثقافات الوافدة فى منزلتها التى ينبغى أن تكون فيها فأين هى من دقائق الكلام فى الدين والفقه والفرائض والنحو ، يقول ابن قتيبة : " ولو أن مؤلف حد المنطق " بلغ زماننا هذا حتى يسمع دقائق الكلام في الدين والفقه والفرائض والنحو ، لعد نفسه مـــن البكـــم أو يسمع كلام رسول الله ﷺ وصحابته لأيقن أن للعرب الحكمة وفصل الخطاب "[2].

---

(١) البيان والتبيين ٤/٥٥ .

(٢) مقدمة أدب الكاتب .

ويمضي ابن قتيبة فيحث هؤلاء الذين أغرموا بتلك الثقافات الوافدة على تأمل كتاب الله وسنة رسوله ﷺ والنظر فى أخبار الصحابة وفى علوم الدين ولغة العرب وآدابها ، والإقلاع عن تلك الثقافات الوافدة، فإنها ترجمة تروق بلا معنى، واسم يهول بلا جسم ، فأولى لهم وأجدر أن ينشغلوا بالدراسات العربية الأصيلة فهي واضحة المعالم ودانية الثمار ...

ومن ابن قتيبة إلى عبد القاهر الذى نراه يثبت الفضل للعربية والسبق للعرب فهم القدوة فى ميدان الكلام والبيان ومن عداهم تابع لهم وقاصر عنهم يقول الجرجانى : " معلوم أن سبيل الكلام سبيل ما يدخله الفاضل وأن للمتفاضل فيه غايات ينأى بعضها عن بعض ومنازل يعلو بعضها بعضًا وأن علم ذلك علم يخص أهله ، وأن الأصل والقدوة فيه للعرب ، ومن عداهم تابع لهم وقاصر فيه عنهم ... "[1].

ومن عبد القاهر إلى ابن الأثير لنراه ثائرًا على الثقافات الأجنبية منكرًا أن يكون لها أى أثر فى كتّاب العرب وعلماء البيان حتى فى أولئك الذين انحدروا من أصل أعجمى وتصدوا للكتابة والإنشاء ... فالعربى البدوى ما كان يعرف جزئيات المنطق ولا تفريعات الفلسفة ، وما كان يخطر بباله شيء منها ، وعلى الرغم من ذلك كله كان يأتى بالسحر الحلال إن قال شعرًا أو تكلم نثرًا ... وتجد فى " المثل السائر " هذه المحاورات التى دارت بينه وبين محبى الثقافات الوافدة والمولعين بها ، وذلك حين وجه إليه سؤال بأن هذا الذى قاله كان فى العرب القدماء فطرة طبعوا عليها وخلقوا فيها كما طبع غيرهم من بنى آدم على فطر مختلفة فالتركي فطر على حسن الرمي ، والصينى على إتقان الصنعة والمغربى على الشجاعة وهكذا ... ويجيب ابن الأثير بقوله : " إن سلمت إليك أن الشعر والخطابة كانا للعرب بالطبع والفطرة ؛ فماذا تقول فيمن جاء بعدهم من شاعر

(١) الشافية : ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ١١٧ .

وخطيب تحضروا وسكنوا البلاد و لم يروا البادية ولا خلقوا فيها وقد أجادوا في تأليف النثر والشعر وجاءوا بمعان كثيرة ما جاءت في شعر غير العرب ولا نطقوا بها ؟ . " ورد بـأن أولئك المحدثين قد وقفوا على ما ذكره علماء اليونان وتعلموا منهم ، ولكنه يجيب بأن هذا شيء لم يكن ولا علم أبو نواس شيئًا منه ولا أبو تمام ولا البحترى ولا أبو الطيب المتنبيى ولا غيرهم ، وكذلك جرى الحكم فى أهل الكتابه كعبد الحميد وابن العميد والصابي وغيرهم ... فقيل له : وما يدريك أن هؤلاء الذين ذكرتهم لم يتعلموا من كتب اليونان ؟ ...

فيضرب المثل بنفسه ويستشهد بذاته قائلاً : هذا باطل بى أنا ، فإنى لم أعلم شيئًا مما ذكره حكماء اليونان ولا عرفته ومع هذا فانظر فى كلامى ، فقد أوردت لك نبذا منه فى هذا الكتاب ، وإذا وقفت على رسائلى ومكاتباتى وهى عدة مجلدات ، وعرفت أنى لم أتعرض لشيء مما ذكره حكماء اليونان في حصر المعاني ، علمت حينئذ أن صاحب هذا العلم من النظم والنثر بنجوة عن ذلك كله ، وأنه لا يحتاج إليه أبدًا ، وفى كتابى هذا ما يغنيك وهو كاف ... " [1].

وبهذا يتضح لك أن علماء السلف قد تصدوا لهؤلاء الذين انساقوا وراء الثقافات الأجنبية ، مبطلين ما رددوه من تأثر الشعراء والكتاب والبيان العربي بتلك الثقافات ، فالعرب هم القدة ... هم أصحاب البيان وأرباب الفصاحة ... ومن عداهم تابع لهم وقاصر عنهم ... العرب لغتهم فاقت كل لغة ولسانهم أربى على كل لسان ...

فإذا ما تركنا القدماء وانتقلنا إلى العصر الحديث وجدنا جدالا يقوى ، ونقاشا يثار ويشتد حول البلاغة ومدى تأثرها بالفلسفة والمنطق والثقافات الوافدة ، فقد أنكرت فئة من الباحثين أصالة البلاغة العربية ، وزعموا أنها مستمدة من الثقافات الأجنبية ، وتزعم هذه الفئة الدكتور طه حسين ، ودار في فلكه كثيرون منهم : إبراهيم سلامة ،

(١) ارجع إلى تلك المحاورة في المثل السائر ٢/٣ وما بعدها .

وأمين الخولى وشوقى ضيف وسلامة موسى ، وغيرهم ... وسنعرض عليك الآن ما ردده هؤلاء وأثاروه ، ثم نعقب بما يبين لك وجه الصحة والصواب فى تلك القضية ...

يرى الدكتور طه حسين أن أرسطو هو المعلم الأول للمسلمين فى علم البيان ، كما كان معلمهم فى الفلسفة والمنطق ، وقد أعلن ذلك فى بحثه الذي طلع به على العالم الإسلامى فى مؤتمر المستشرقين المنعقد فى الثانى عشر من سبتمبر سنة ١٩٣١م بمدينة " ليدن " بعنوان : البيان من الجاحظ إلى عبد القاهر . وفى هذا البحث نرى حملته على الجاحظ ، إذ يقرر أنه تعصب للعرب ضد الأمم الأخرى وخاصة اليونان والفرس ، حيث قصر البديع على العرب ، وهذا يدل على أنه لم يعرف شيئًا عن كتاب الخطابة لأرسطو ، ثم يذكر أنه يناقض نفسه حينما يثبت للعرب وحدهم كل الشأن فى البلاغة ، ثم يعود فيشرك معهم غيرهم من الفرس والهند والروم فى البيان ، ويقول إن قارىء كتاب الجاحظ يخرج بنتائج ثلاث :

١ ــ أنه كان للعرب نقد في العصر الجاهلي دونوه ، وأن هذا النقد كان سليمًا مبنيًا على الذوق أولاً ، ثم انتهى إلى كشف بعض العيوب وإلى استخلاص بعض نصائح قدموها للكتاب والخطباء .

٢ ــ أن أخلاطًا كثيرة كانت تعيش في البصرة والكوفة خدموا الثقافة العربية عن طريق النقل .

٣ ــ أن طبقة الكتاب التي ظهرت فى بلاط الخلفاء فى نهاية القرن الثاني الهجرى ، وكان أغلبهم من الأعاجم ، قد وضعوا معالم يسير عليها الكتاب ، وينسجون على منوالها ، ولذا فإن البيان العربي إلى منصف القرن الثالث الهجرى لا يمكن أن يكون عربيًا صرفًا أو أعجميًا محضًا ، بل هو بيان غير تام أبوابه قائمة على

صحة الحروف ومخارجها . والكلام على سهولة اللفظ والعلاقة بين الألفاظ والمعاني ، فهو نسيج جمعت خيوطه من البلاغة العربية فى المادة واللغة ، ومن البلاغة الفارسية فى الصورة والهيئة ، ومن البلاغة اليونانية فى الملاءمة بين أجزاء العبارة .

ويمضي فيذكر أن العقائد المذهبية وجدلها وفلسفة المتكلمين قد حولت البلاغة إلى فلسفة ومنطق ، مما جعل البحترى يثور على هذا الوضع قائلاً :

كلفتمونا حدود منطقكم — والشعر يغنى عن صدقه كذبه

ولم يكن ذو القروح يلهج بالـ — ـمنطق ما نوعه وما سببه

والشعر لمح تكفى إشارته — وليس بالهذر طولت خطبه

ثم يذكر بعد ذلك دور الفلسفة الإسلامية ونقلها عن الفلسفة الإغريقية ، وموقف ابن سينا وابن رشد من كتاب الخطابة لأرسطو ، وأن تعريب هذا الكتاب وجعله في متناول الفكر العربى ، قد هيأ أسباب التوفيق بين البيان العربى والبيان اليونانى اللذين عاشا متجاورين دون أن يتلاقيا ويتآلفا ، وكان تلاقيهما على يد عبد القاهر الذى قرأ الفصل الخاص بالعبارة فى كتاب ابن سينا وتأمله ، وكان من أثر هذا التأمل أن صار عبد القاهر تلميذا لأرسطو ، فإذا تكلم عبد القاهر عن الاستعارة فهو يشرح ما ذكره أرسطو فى الصورة ، وإذا تكلم فى صور المجاز المرسل فهو يشرح ما ذكره فى إطلاق اسم الجنس على النوع واسم النوع على الجنس ، أما إذا تكلم في المجاز الحكمي فهو من ابتكاراته ، لأن هذا المجاز ليس في كتاب أرسطو ، ويصح أن نسميه المجاز الكلامى ، لأنك إذا قلت مع عبد القاهر : أنبت الربيع البقل ، فهو مجاز لأن الربيع لا ينبت البقل ولكن الذى ينبته هو الله تعالى ، وينفق عبد القاهر جهداً غير قليل فى الدفاع عن مجازه هذا وفى تمييزه عن المجاز المعروف ، ولكن لا شك أن الأساس المعروف الذى بنى عليه هذا التمييز محل نظر. وكأنه يشير إلى عدم تقبله الفروق الدقيقة التى فرق بها عبد القاهر بين المجازين ، ويرى أن الأفضل أن يكونا مجازاً واحداً هو مجاز أرسطو ... وينتهى الدكتور فى

بحثه إلى النتيجة التى أعتقد أنه قد أقرهـا قبل أن يبدأ فيه وعى أن أرسطو كـان المعلم الأول للمسلمين ليس فقط فى ميدان الفلسفة والمنطق ، بل أيضًا فى علم البيان [1].

وكان الدكتور طه حسين مسموع الكلمة فانتشرت مقالته هذه وتغلغلت فـى نفوس الكثير من الدارسين ، فساروا في تياره ونسجوا على منواله ، إذ نـرى الدكتـور إبراهيم سلامة يقرر فى كتابه :" بلاغة أرسطو بين العرب واليونان" أن البيان العربى قـد ابتدأ بالجاحظ حقًا ولكنه بيان مخلوط قد اشتبك فيه النقد مع القاعدة البلاغية ، والتقـت فيه عدة ثقافات أحرزها الجاحظ وعرف بها ، فتمثلت فى نفسه تمثيلاً استخرج عصارته الأخيرة ، وهضمها هضمًا أحال طبيعتها إلى طبيعة أخرى تبـدو فى شـكلها الجديـد بعيدة الصلة بين نهايتها وبين مصادرها الأولى . ثم يتدرج مع علماء البلاغة الذين كـان لهم أثر كبير فى تطور البلاغة العربية صورة وفكرة وقاعدة مبينًا مدى تأثر كـل منهـم بالبلاغة اليونانية وإفـادته بهذا التأثر البلاغـة العربية فى شكلها وموضوعها ، فبينمـا يرى أن الجاحظ تأثر فى بلاغته باليونانية يرى أن ابن المعتز قد عرض لبلاغة عربية المثـل، عربية المأخذ ، يستشهد لها من الكتاب والسنة وما عرف من الأدب الجاهلى ، ثم يقرر أن قدامة تأثر بأرسطو تأثرًا كبيرًا ، ظهر واضحًا فى كتابه : " نقد النثر " وما يحتويه من فكر وألوان ونظريات بلاغية ونقدية ، وقد مر بك أن الكتاب لابن وهب وليس لقدامة ...

ونرى الدكتور يردد كلمتى " النقل والأخذ " فى إصرار منه على أن العرب نقلوا بلاغتهم وأخذوا معظم أبوابها من اليونان ، وتشعر وأنت تقرأ كتابه أنـه يسـلم بهـذا النقل ، إذ يدافع عن العرب مبررًا أن الأخذ أو النقل لم تنقصه الفطنة ، و لم يغب عنه ذكاء العقل العربى الذى تصرف فيما نظر وأخذ ، والذى اقتطع مما نقل فأخذ منه ما يتفق مـع اتجاه أدبه ... وأن العرب أخذوا ما أخذوا عن البلاغة اليونانية ، ولكنهم جـددوا فيهـا وبسطوا بل وقعدوا بما يثبت لهم شخصيتهم العقلية فيما أخذوا ، كما أنهم لم ينقلـوا إلى

---

(١) ارجع إلى مقدمة نقد النثر .

بلاغتهم إلا ما اتفق مع أدبهم ، وقد وجدوا في كتابهم وحده بل فى ميراثهم الأدبى الواسع ما يتحمل هذه القواعد المنقولة .. وبحسب العرب تفردًا فى باب الشخصية أنهم لم ينقلوا آداب غيرهم، بل نقلوا إلى أدبهم ما ينطبق على الآداب اليونانية التى عاشت عليها أوروبا عدة قرون ، ووجدوا فى أدبهم ما يمثل كل قاعدة وما يصح أن يكون مثلاً لكل تطبيق ومعنى ، ذلك أن أدبهم ينزل منازل الآداب الكبرى التى عاش عليها العالم (١).

ويمضى الأستاذ أمين الخولى فى نفس الاتجاه فيقول : " وبالرجوع إلى ما يحفظ الصورة الأصلية لخطابة أرسطو نجد أنه قد تصدى لأبحاث بلاغية كثيرة تكاد تكون جمهرة ما بأيدينا من أبحاث بلاغتنا ، أو هى على الأقل أنواع كثيرة من فنونها الثلاثة ... " (٢) ثم يستمر فى عد جميع أنواب البلاغة وردها إلى كتاب أرسطو . وننتقل إلى الأستاذ سلامة موسى الذى نجده يعتبر المنطق أساسًا من أسس البلاغة ، إذ يذكر في كتابه : " البلاغة العصرية واللغة العربية " ، أن المنطق أساس البلاغة ، وأن البلاغة بفنونها المختلفة الآن ولغتنا العربية تخاطب العواطف دون العقل وهذا ــ في اعتقاده ــ ضرر عظيم ثم لا يلبث أن يصرح بشغفه وحبه لغير العربية فيذكر أن هناك تعابير لغوية كبيرة الضرر على مجتمعنا ، ومن أسوئها فى مصر، وفى عصرنا الحاضر هاتان الكلمتان :" شرق وغرب " فإن كلمة " شرق " توحى إلينا بعداء مع أدباء أمريكا وهم المتمدنون السائدون فى العالم . فعداؤنا يغرس فى نفوسنا كراهية التمدن .. ثم يدعو إلى العامية واتخاذها لغة الكتابة والأدب والانقطاع نهائيًا عن تراثنا ومقومات شخصيتنا ، كما يدعو إلى القضاء على الجزالة والقوة فى الأساليب (٣)..

(١) ارجع إلى بلاغة أرسطو بين العرب واليونان .

(٢) البلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها ص ١٥ .

(٣) ارجع إلى البلاغة العصرية و اللغة العربية .

وهذا عبث وهراء ، فدعوته للعامية لا تستحق مجرد المناقشة ، بل لا تستحق مجرد الذكر هنا ، ودعوته إلى القضاء على الجزالة عبث لا يقال ، لأن الكتابة لا تحيا بغير الأسلوب ، والكتاب الجامع شتات الحكمة يولد ميتًا إذا أعوزه الأسلوب القوى الجزل .

أما الدكتور شوقي ضيف فنراه فى كتابه : " البلاغة تطور وتاريخ " يركب نفس الموجة ، إذ يبالغ في رد ما قاله البلاغيون إلى أرسطو والثقافة اليونانية ، بدل أن يربط هذه الأقوال بعضها ببعض ، ويبرز مدى التأثر والتأثير بين السابق واللاحق ، اقرأ قوله : " وهذا القسم الثالث من كتاب " الخطابة " لأرسطو يقابل ما سماه العرب بالبلاغة ... فقد كان قسمًا عامًا لا يختص بلغة ولا بأمة معينة ، وقد وضع فيه أرسطو ببصيرته النافذة الأصول البلاغية العامة للعبارة بحيث يمكن تطبيقها على جميع الآداب يونانية وغير يونانية ، ومن أجل ذلك اتسع تأثيره فى البلاغة العربية ، وأقبل المتفلسفة بعد نقل هذا الكتاب وكتاب الشعر يحاولون أن يضعوا قواعد البلاغة فى لغتنا على ضوء ما تمثلوه منهما وما ثقفوه من كتابات أرسطو فى المنطق والجدل .. " [1].

ثم اقرأ حديثه بعد ذلك عن قدامة وعبد القاهر وغيرهما فستجد أنه يحاول جاهدًا الربط بين ما قاله هؤلاء العلماء وما جاء عن أرسطو، فقدامة عندما يقول :" الشعر صناعة " فهو قول يستمده مباشرة من مقدمات أرسطو فى كتابه " فن الشعر " ، وعندما يتحدث عن صحة التقسيم ويقول عنها : " أن يستوفى الشاعر جميع الأقسام لما ابتدأ به كقول نصيب :

فقال فريق القوم : لا ، وفريقهم   نعم وفريق قال : ويحك ما ندرى

---

(١) البلاغة تطور وتاريخ ٧٨ .

فليس في أقسام الإجابة عن مطلوب إذا سئل عنه غير هذه الأقسام ." فهو يجلب هذا المصطلح من كلام أرسطو في الخطابة ، إذ على الرغم من أن الجاحظ قد نوه من قبل بحسن التقسيم والتفصيل ، وقد أثبت الدكتور ذلك إلا أنه يظن ظنًا أن قدامة إنما جلب اصطلاحه من حديث أرسطو في " الخطابة " عن صورة تأليف الكلام بذكر الأقسام ودقة عرضها فيه ... وعندما يتحدث عن صحة المقابلات وهي أن يرتب الشاعر معانيه ترتيبًا يوفق فيه بين طائفة منها ويخالف بين طائفة ثانية بحيث تتقابل في وضوح كقول بعض الشعراء :

فوا عجبا كيف اتفقنا فناصح ... وفي ومطوى على الغل غادر

إذ قابل بين النصح والوفاء بالغل والغدر ، فهذا يدخل عند ابن المعتز في المطابقة ، ولكن مما لا شك فيه عند الدكتور أن قدامة استمد هذا المصطلح كما استمد سابقه من أرسطو في الخطابة وحديثه عن تأليف العبارة ، بل وحري بالدكتور أن يورد نص كلام أرسطو كما جاء عند ابن سينا .. وعبد القاهر الذى حلل نظرية النظم ، وجلاها تجلية وساق لها الشواهد والأمثلة وأفاد في ذلك من كلام السابقين وخاصة من كلام الجاحظ وعبد الجبار - كما مر بك - إنما كان يصدر- في رأى الدكتور - عن كلام أرسطو .. يقول فضيلته : " وفي تلخيص ابن سينا لكتاب " الخطابة " لأرسطو قطعة تلتقي بنفس هذه الفكرة ، وهي تمضي على هذا النحو : " وأما اللفظ المتخلخل وهو المقطّع مفردًا مفردا فهو شيء غير لذيذ ، لأنه لا يتبين فيه الاتصال والانفصال في الحدود التي لا تتناهى إليها القضايا وغير القضايا أيضًا التي هي مثل النداء والتعجب والسؤال إذا تمت ، فإن لكل شيء منها حدا وطرفًا يجب أن يفصل عن غيره بوقفة أو نبرة فيعلم ، وإذا كان الكلام مقطعًا ليس فيه اتصالات وانفصالات لم يلتذ به " . ولا نشك في أن عبد القاهر كان يصدر في أثناء كتابته للفكرة السابقة عن كلام أرسطو في الخطابة مما نقلناه ومما يتصل بسببه [1].

---

(١) البلاغة تطور وتاريخ ١٧٢ وارجع إلى الصفحات ٨١ ، ٨٦ ، ٨٧.

تعقيب : ذكرنا فى الصفحات الأولى من هذا الكتاب أن الفنون البلاغية من طباق وجناس واستعارة وكناية وتشبيه وغير ذلك ، قد وردت فى الشعر الجاهلى ، وضربنا لها شواهد كثيرة .. ولما نزل القرآن الكريم على نبينا محمد ﷺ بلسان عربى مبين ، وقد حوى تلك الصور البلاغية التي عرفها العرب في شعرهم ونثرهم ، وأقبل الناس على دراسته وتأمله وتبين أوجه إعجازه ، استخرجوا تلك الصور ، ووقفوا طويلاً لتأملها والنظر فيها وقد مرت بك نشأة هذه الدراسات ومراحل نموها وتطورها ـ والذى نريد أن نقرره الآن أن علماءنا الأوائل الذين تأملوا تلك الفنون فى الشعر وفى القرآن الكريم والحديث الشريف وأقوال الصحابة ، ووضعوا لها التسميات والمصطلحات لم يستمدوها من البلاغة اليونانية ، وأقوى دليل على ذلك أنك تجد المعانى الاصطلاحية لهذه الألوان شديدة الصلة بالمعاني اللغوية الموضوعة لها ، ولكي يتضح لك هذا عد إلى تلك الملاحظات التى كانت تتردد على ألسنة الشعراء قديمًا " لقد قللت جفانك ... لو قلت يشرقن بالدجى لكان أكثر ... باعدت فى القول أين الأنس من الشنب ... ليس لشعره قران" ... فهى بمثابة الجذور التى انبسقت منها فيما بعد مصطلحات : المبالغة ومراعاة النظير ووحدة السياق ، وعد إلى تعريف الخليل بن أحمد : (ت١٧٠ هـ) للمطابقة ، وإلى قول الأصمعى : (إن أصلها من وضع الرجل فى موضع اليد فى مشى ذوات الأربع) ، وإلى حديث أبى عبيدة عن الالتفات بمعنى تنزيل الشاهد منزلة الغائب أو الغائب منزلة الشاهد أى انتقال المتكلم بالكلام من صيغة إلى صيغة ، فهو بمثابة الملتفت الذى يغير اتجاه سيره ... وهكذا تأمل الفنون البلاغية وانظر فى معانيها الاصطلاحية واللغوية فستجد صلة قوية بين المعنيين ، الأمر الذي يؤكد أن تلك المصطلحات عربية أصيلة وليست مستمدة من ثقافات غير عربية ... وبهذا نستطيع القول أن البلاغة فنونًا ومصطلحات ، أى : ألوانًا وتسميات عربية أصيلة ، وجدت فنونًا وألوانًا فى تراثنا العربى وأخذت واشتقت تسميات ومصطلحات من أصل العربية ..

ولذا تصدى علماء السلف لأولئك الذين أنكروا أصالة البلاغة العربية ، واندفعوا يلهثون وراء الثقافات الأجنبية مغرمين بها.. فبينوا لهم أن تلك الثقافات خاوية مما ظنوه موجودًا بها ، وأن البديع مقصور على العرب ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة ، فهم القدوة ومن عداهم تابع لهم وقاصر عنهم ...

ولعل سبب اندفاع هؤلاء الذين اندفعوا وراء الثقافات الأجنبية يرجع إلى أن مراجعة جهود السلف لمعرفة نشأة البلاغة وتطورها يحتاج إلى دقة وجهد للوقوف على مدى التأثر والتأثير بينهم .. وإلى أن للبلاغة اليونانية وخاصة في هذه الفصول التي تتعلق ببناء العبارة وتكوين الجمل قريبة جدًا من البلاغة العربية ، فاستسهل هؤلاء الأمر ، وانقادوا وراء البلاغة اليونانية ، وبدل أن يصبروا ويتأنوا فى مراجعة تراث السلف ، ادعوا تأثر بلاغتنا العربية واستمدادها من تلك الثقافات ...

وعندما ننظر فيما أثاره أولئك المحدثون المنكرون لأصالة البلاغة العربية نجده غير قائم على شيء ذى بال : بل إن مرده إما إلى الاشتباه على هؤلاء والتباس الأمر عليهم ، وإما إلى عدم صبرهم فى مراجعة كتب التراث العربى - كما قلت - فلست أرى داعيًا لحملة طه حسين على الجاحظ وادعائه أنه يتناقض فى القول حيث يقصر البديع على العرب ثم يعود فيشرك معهم غيرهم لأنا إذا عرفنا مراد الجاحظ بذلك ، وقد أوضحناه فيما سبق ، علمنا أنه لا تناقض ، فالأمر إذا مرده إلى اللبس وعدم الفهم الدقيق لمراد الجاحظ ... وأرسطو ليس هو المعلم الأول للمسلمين فى علم البيان — كما زعم — بل إن مسائل البيان نمت وتطورت خلال قرون طويلة، وأثر السابق من علماء المسلمين فى اللاحق حتى استقرت مسائل البلاغة على ما استقرت عليه ... فالمجاز العقلى مثلاً الذى يزعم الدكتور أنه من ابتكار عبد القاهر ، ليس من ابتكاره ، ولو صبر الدكتور وراجع تراث السلف مراجعة دقيقة لوضح له ذلك ولعلم أنه قد ورد عند سيبويه والفراء وابن قتيبة وغيرهم ثم جاء عبد القاهر فأفاد مما ورد عند السلف وشرح وحلل وفرق وبين ، وكذا فعل فى كل ما تحدث عنه من فنون البلاغة ليس فقط فى المجاز العقلى ..

ولكن الدكتور لإصراره على أن يكون أرسطو هو المعلم الأول ، لما لم يجد المجاز العقلي عنده جعله من ابتكار عبد القاهر ليس هذا فحسب بل حاول أن يقلل من شأنه وأن يوهم بأن الفروق التى ذكرها عبد القاهر بين المجازين العقلى واللغوى فروق واهية ومحل نظر وكأنه يريد أن يرده إلى المجاز اللغوى الذي جاء عند أرسطو .

ولو تركنا ما أثاره طه حسين ونظرنا إلى ما أثاره الذين ساروا فى فلكه ونهجوا نهجه وجدنا إصرارًا وإسرافًا وتعنتًا في محاولتهم رد ما قاله علماء العرب إلى أرسطو والربط بين ما تحدث عنه أولئك العلماء وأشاروا إليه وبين كتابات أرسطو فى الخطابة والشعر والمنطق .. فمثلاً عندما يقول قدامة : " الشعر صناعة وكل صناعة لها طرفان ، غاية فى الجودة وغاية في الرداءة وبينهما وسائط " ، يستمد قوله هذا - فى زعم شوقى ضيف من كتابات أرسطو ، فلم لا نقول إنه يستمد من رسالة بشر بن المعتمر التى رواها الجاحظ فقد تحدث فيها عن الشعر والشعراء ، وجعل الأديب فى إحدى منازل ثلاث وسمى الشعر حرفة ... فبشر أقرب لقدامة من أرسطو ، والأولى أن نربط بين رسالة بشر و نقد الشعر ، لا بين نقد الشعر وكتابات أرسطو .. الأمر إذًا يحتاج إلى دقة فى المراجعة والاستنباط وإعمال الفكر فى تأمل تراثنا والربط بين السابق واللاحق ، فبهذا تتحقق أصالة البلاغة وتتأكد ، وهذا ما ينبغى أن نصنعه ، أما أن نجرى وراء هؤلاء ونسرف ونغالى فى الربط بين ما قاله علماؤنا العرب وبين الثقافات الوافدة متهمين بلاغتنا بعدم الأصالة ، فهذا ما ينبغى ألا يكون ... ينبغى أن ينمحى ويزال ...

وإياك أن تفهم أننا ننكر التأثر والتأثير بين الثقافات المختلفة عندما تلتقى ، فهذا شيء واقع ولا ينكره أحد ، والاحتكاك بين الثقافات دائمًا ينشأ عنه تأثر لا ينكر ، ولكن الذى ننكره هو الإسراف والمغالاة فى إثبات التأثر سواء أوجد أم لم يوجد ... وهذا التأثر يختلف بطبيعة الحال من عصر لعصر ، بل من شخص لآخر ، على نحو ما مر بك فى تتبعنا لنمو البلاغة وتطورها ...

وعندما قوى واشتد تأثر البلاغة العربية بالفلسفة والمنطق فى عهـــد الســـكاكى وأتباعه ، ضعفت البلاغة وكثرت التقسيمات والتفريعات ، وتخلت عن الروح الأدبية التى من شأنها تنمية الأذواق وتربية المواهب والملكات ... وذلك أن هذا الاتجاه المنطقى قـــد اهتم بالقاعدة والضبط وتحديد المسائل ، وهذا وحده لا يكفى فى الدراسة البلاغية ، بـــل ينبغى الجمع بين القاعدة الضابطة وبين الشواهد والأمثلة التى تنمى الذوق وتربى الملكـــة والموهبة ...

وعلى كل فإن هذا التأثر لا ينفى أصالة البلاغة العربية التى وقفت فى هذا القسم على نموها وتطورها خلال العصور المختلفة .

★ ★ ★

القسم الثانى

فنون البديع

دراسة تحليلية ونقدية

لمسائل علم البديع

تقـــديم

الحمد لله رب العالمين ، و الصلاة والسلام على رسوله الأمين ، نبينا محمد وعلى آله وصحابته ومن سلك مسلكه ونهج نهجه إلى يوم الدين ....

أما بعد :

فقد وقف الدارس للقسم الأول من هذا الكتاب على أصول البلاغـــة ، وألم بنمـــو الدراسات البلاغية ، و أحاط بمدى التأثر والتأثير بين أولئك الأعلام الذين ألفـــوا فيهـــا ، و اتضحت له أصالة البلاغة العربية .....

أما فى هذا القسم فسنعرض لفنون البديع ومسائله ، و غايتنا هى تجليـــة هـــذه الفنون ، و الكشف عن دقائقها وأسرارها ، و قد عرف الدارس من خلال القســـم الأول رأينا فى تلك الفنون ، و أننا لا نسلم بكونها لمجرد الزينة والزخرف ، بل نقرر أن تحسينها تحسين ذاتى ، يقتضيه المقام ، و يستدعيه الحال ، كما أننا لا نوافق على تقســـيم هـــذه الفنون إلى محسنات معنوية وأخرى لفظية ، إذ لا يتأتى الفصل بـــين اللفـــظ والمعنـــى ، فالألفاظ أجساد للمعانى ، ولا يظهر للفظ مزية إلا من خلال النظم الذى يسلك فيـــه ، وعندما تتأمل الألـــوان البديعية التى وضعت فى القسم المعنوى ، ثم تنظر إلى ألوان القسم اللفظى يتضح لك ضعف هذا التقســـيم ، إذ لا تجد فرقاً بين تلك الألـــوان ، أو بمعنـــى آخر لا تلمس فرقا بين الحسن الذى يضفيه اللون من هذه الألوان على المعنى وتكتســـبه الصياغة والعبارات والحسن الذى يضفيه اللون الآخر .....

ولذا فلن نعتد بهذا التقسيم ، و سيكون هدفنا - كما قلت - تجلية هذه الألوان ، و الكشف عن دقائقها ، و إبراز مكانتها البلاغية ، و بيان وإيضاح أن الزينة المنبعثة منهـــا زينة ذاتية يقتضيها المقام ، و ليست زينة عرضية شكلية تأتى بعد رعاية المطابقة لمقتضـــى الحال ووضوح الدلالة .

فالله عز وجل أســأل أن ينفع بهذا الكتاب طلبة العلم ومحبى المعرفـــة وأن يجزينـــا خير الجـــزاء ويهدينا صراطه المســتقيم . صراط الذين أنعمت عليهم غــــير المغضـــوب عليهم ولا الضالين ...

المؤلف

د / بسيونى عبد الفتاح

بالقصيم - عنيزة

المملكة العربية السعودية

الطـــباق

الطباق ويقال له أيضًا : المطابقة ، و التطبيق والتضـــــاد ، و معنـــاه فـــى اللغـــة : الموافقة ، يقال : طابقت بين الشيئين إذا جمعت بينهما على حذو واحد ، ويقال : طابق البعير ، أى : وضع رجله فى موضع يده ... قال النابغة الجعدى :

وخيل يطابقن بـــالدارعين طبـــا ق الكـــلاب يطـــأن الهراســـــا

الهراس : حطام الشوك ، شبه مشى الخيل بالفرسان وهى تضع أرجلها فى موضـــع أيديها ، بوطء الكلاب حطام الشوك فهى لا تضع أرجلها إلا حيث رفعت أيديها طلبـــا للسلامة ، ولذا قال الأصمعى : « المطابقة أصلها وضع الرجل موضع اليد فى مشى ذوات الأربع » ..وفى النظم الكريم :﴿ **الذى خلق سبع سموات طباقاً** ﴾[1] . أى : محكمـــات متوافقات بعضها فوق بعض من غير مماسة فى نظام بديع عجيب ...

أما فى اصطلاح البلاغيين فمعناه : الجمع بين الشىء وضده فى كلام أو فى بيـــت شعر ، كالجمع بين الليل والنهار ، وبين البياض والسواد ، وبين الحسن والقبح ، وبـــين يسعد ويشقى ويظهر ويبطن ويحيى ويميت ، ويعز ويذل ، وكذلك الجمع بـــين حرفـــين متضادين كالجمع بين « اللام وعلى » فى قوله تعالى : ﴿ **لها ما كســـبت وعليهـــا مـــا اكتسبت** ﴾[2] . ففى « اللام » معنى المنفعة وفى «على » معنى المضرة ، و همـــا متضادان .. وكالجمع بين « فى وعلى » فى قوله عز وجل : ﴿ **وإنا أو إيـــاكم لعلـــى هدى أوفى ضلال مبين** ﴾[3] .

ففى «على » معنى‌الارتفاع والعلو وفى « فى » معنى الانغماس والانحطاط وهمـــا متضادان ... والمراد بالتضاد : تقابل المعنيين ، فالتضاد . هنا تتسع دلالته لتشمل التقـــابل بالتضـــاد والتناقض حسب اصطلاح المنطقيين ، إذ الضدان عند المناطقـــة لا يجتمعـــان

---

(١) سورة الملك آية ٣ .

(٢) سورة البقرة آية ٢٨٦ .

(٣) سورة سبأ آية ٢٤ .

ولكن قد يرتفعان ، كالبياض والسواد ، والمتناقضان عندهم لا يجتمعان ولا يرتفعان كالحياة والموت ، والتضاد فى باب الطباق يشمل الأمرين معا ...

وجه المناسبة بين المعنى اللغوى والمعنى الاصطلاحي : إذا كان المعنى اللغوى للطباق هو الموافقة ، و المعنى الاصطلاحى له هو الجمع بين الضدين فى كلام أو فى بيت شعر ، فهل هناك وجه مناسبة بين المعنيين ؟ .. يرى بعض البلاغيين أنه لا مناسبة بين المعنيين ، و يرى آخرون – وهو الأرجح – أن هناك مناسبة تجمع بينهما ومردها إلى أمرين :

أولهما : أن الذى يجمع بين الضدين فى كلام منثور أو فى بيت شعر ، فهو يوفق بين الضدين فى هذا الكلام ..

ثانيهما : أن الطبق بالتحريك معناه فى اللغة : المشقة ، قال تعالى : ﴿ **لَتَرْكَبُنَّ طبقاً عن طبق** ﴾[1] . أى : مشقة بعد مشقة ، فلما كان الجمع بين الضدين على الحقيقة وفى الواقع شاقا ، بل متعذراً ، سموا كل كلام جمع فيه بين الضدين طباقا ومطابقة وتطبيقا ...

مغزى الجمع بين الأمور المتضادة : ما من ريب فى أن الجمع بين الأمور المتضادة يكسو الكلام جمالا ويزيده بهاء ورونقا ، فالضد – كما قالوا – يظهر حسنه الضد ، ولكن وظيفة الطباق لا تقف عند هذا الزخرف وتلك الزينة الشكلية ، بل تتعداها إلى غايات أسمى ، فلا بد أن يكون هناك معنى لطيف ومغزى دقيق وراء جمع الضدين فى إطار واحد . و إلا كان هذا الجمع عبثا وضربا من الهذيان . ولننظر فى قول الله عز وجل : ﴿ **ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله** ﴾[2]

فقد جمعت الآية الكريمة بين الليل والنهار ، وهما نعمتان من نعم الله على عباده ، ورحمة منه عز وجل بهم ثم ذكرت العلة من جعل الزمان ليلا ونهارا ، لنسكن ليلا

---

(١) سورة الانشقاق الآية ١٩ .

(٢) سورة القصص الآية ٧٣ .

ونسعى ونتحرك نهارا ، و الحركة ينبغى أن تكون لمصلحة وبابتغاء من فضل الله تعالى ، لا إفسادا فى الأرض ، و لذا أوثر التعبير بابتغاء الفضل دون الحركة ، فالحركة تكون للإصلاح وللإفساد ، وابتغاء الفضل لا يكون إلا إصلاحاً ، وفى ذكر العلة كما ترى جمع بين ضدين السكن وابتغاء الفضل ، وَ فى الجمع بين الضدين فى صدر الآية ثم فى عجزها حث للمؤمن ليتأمل هذه النعمة ، لم كان الزمان ليلاً ونهاراً ، سكنا وابتغاء ، وكيف يكون الحال لو كان الزمان نهاراً سرمدا إلى يوم القيامة أو ليلاً سرمداً إلى يوم القيامة ، ولذا دعانا سبحانه وتعالى للتأمل والنظر والتدبر فى قوله عز وجل: ﴿ **قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة ، من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون . قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون** ﴾[1] ... ولنتأمل قوله عز وجل : ﴿ **قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير . تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب** ﴾[2] نجده قد جمع بين أفعال مضادة :(تؤتى وتنزع) و(تعز وتذل) وبين أسماء مضادة :(الليل والنهار) ، (الحى والميت) : وهذا الجمع يبرز مدى قدرة الخالق عز وجل وهيمنته وسلطانه القاهر ، فهو الذى يستطيع أن يؤتى من يشاء من عباده الملك وينزعه ممن يشاء ، متى شاء ، لا راد لمشيئته ، وهو الذى يستطيع إذلال من يشاء ، و إعزاز من يشاء ، متى أراد وكيف شاء دون اعتبار لمقاييس البشر فيمن يستحق العزة ومن يستحق الإذلال ... ثم نلاحظ التدرج فى القدرة والغلبة والقهر والهيمنة ، فإذا كان فى البشر من يستطيع بماله وجاهه وسلطانه أن يعطى ويمنع ، وأن يعز ويذل على وجه من الوجوه ، فقد جاءت الآية الثانية بأمور متضادة ، ينفرد بها المهيمن عز وجل ، وهى إيلاج الليل فى النهار ، و إيلاج

---

(١) سورة القصص الآية ٧١ ، ٧٢ .

(٢) سورة آل عمران الآية ٢٦ ، ٢٧

النهار فى الليل ، وإخراج الحى من الميت وإخراج الميت من الحى ، فمن ذا الذى يدعى قدرة على ذلك ؟ إنها أمور ينفرد بها القادر سبحانه وتعالى . وبهذا يتضح لنا أن الطباق ليس قاصراً على الزينة والزخرف وليس الهدف منه مجرد التذويق الشكلى ، بل يتجاوز ذلك إلى أهداف أسمى وغايات لا تتناهى .....

صور الطباق : يأتى الطباق فى الكلام على أربع صور وهى :

١ - أن يكون بين اسمين، كما فى قوله تعالى: ﴿ **وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود** ﴾[1] ، وقوله عز وجل :﴿ **ومايستوى الأعمى و البصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوى الأحياء ولا الأموات** ﴾[2] وقوله جل علاه :﴿ **ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب** ﴾[3] وقوله تبارك وتعالى : ﴿ **هو الأول والآخر والظاهر والباطن** ﴾[4] ، ومنه قول النبى : " فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته ومن الشبيبه للكبر ومن الحياة للموت ، فو الذى نفس محمد بيده ما بعد الموت مستعتب ولا بعد الدنيا دار إلا الجنة أو النار .. " وقول على - رضى الله عنه وكرم الله وجهه - « إن كثرة النظر إلى الباطل تذهب بمعرفة الحق من القلب ....» .

ومنه قول امرىء القيس :

مكر مفر مقبل مدبر معا ... كجلمود صخر حطه السيل من عل

وقول القاضى الأرجانى :

ولقد نزلت من الملوك بما جد ... فقر الرجال إليه مفتاح الغنى

وقول لآخر

إذا نحن سرنا بين شرق ومغرب ... تحرك يقظان التراب ونائمه

---

(١) سورة الكهف الآية ١٨

(٢) سورة فاطر الآيات ١٩-٢٢ .

(٣) سورة البقرة الآية ١٧٩..

(٤) سورة الحديد الآية ٢ .

ولا يخفى عليك الطباق فى هذه الشواهد وأنه قد وقع بين اسمين كما نرى :

٢ - أن يكون بين فعلين ، كما فى قوله تعالى : ﴿ **وأنه هو أضحك وأبكى وأنه هو أمات وأحيا** ﴾[١] ، و قوله تبارك وتعالى : ﴿ **قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء** ﴾[٢] .

ومنه قول النبى للأنصار " إنكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع " . فقد طابق بين الفعلين : تكثرون وتقلون ، وهناك طباق أيضًا بين ((الفزع)) و((الطمع)) ، ولكنه طباق خفى ، كما سيأتى .

ومن أقوالهم ... قول بشار :

إذا أيقظتك حروب العدى فنبه لها عمراً ثم نم ..

وقول الفرزدق .

لعن الإله بنى كليب إنهم لايغدرون ولا يفون لجار

يستيقظون إلى نهيق حمارهم وتنام أعينهم عن الأوتار[٣]

وقول الحماسى :

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد لنفسى حياة مثل أن أتقدما

وقول لآخر :

لئن ساءنى أن نلتنى بمساءة لقد سرنى أنى خطرت ببالك

فالطباق فى هذه الشواهد قد وقع بين فعلين ..

---

(١) سورة النجم آيتا ٤٣ ، ٤٤ .

(٢) سورة آل عمران الآية ٢٦ .

(٣) بنو كليب : قوم جرير وقوله : " لا يغدرون " : أى . لا يخونون عدوهم لعجزهم عنه . والأوتار : جمع وتر وهو الثأر .

٣ - أن يكون بين حرفين ، كقوله تعالى : ﴿ **لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما كسبت** ﴾[١] وقوله عز وجل :﴿**ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف**﴾[٢] ﴿ **وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين** ﴾[٣]

وقول مجنون ليلى :

على أننى راضٍ بأن أحمل الهوى   وأخلص منـــه لا علـــيّ ولا ليـــا

فالطباق فى هذه الشواهد بين ((على)) و ((اللام)) فى آية سورة البقـــرة وبـــين ((على)) و ((فى)) فى آية سبأ ، لأن فى ((على)) معنى المضرة وفى اللام معنى المنفعة وكذا فى ((فى)) معنى الاســتفال و فى ((على)) معنـــى الارتفـــاع ، و معلـــوم أن الحروف لا يظهر لها معنى إلا مع غيرها فللحروف معان متعددة قد تتضاد وقد تتداخـــل وقد تلتقى والمرجع فى ذلك هو الاستعمال ، لأن الحروف لا تستقل بنفسها ولا تظهـــر معانيها إلا بالاستعمال .

٤ - أن يكون بين اسم وفعل ، كما فى قولـــه تعـــالى ﴿ **أو مـــن كـــان ميتـــاً فأحييناه** ﴾[٤] وقوله عز وجل : ﴿ **رب أرنى كيف تحيى الموتى** ﴾[٥]

ومنه قول طفيل :

بساهم الوجه لم تقطـــع أباجلـــه   يصان وهو ليوم الروع مبذول[٦]

وقول الآخر :

قد كان يدعى لابس الصبر حازما   فأصبح يدعى حازما حين يجـــزع

---

(١) سورة البقرة آية ٣٨٦ .

(٢) سورة البقرة آية ٢٢٨ .

(٣) سورة سبأ آية ٢٤ .

(٤) سورة الأنعام آية ١٢٢

(٥) سورة البقرة آية ٢٦٠ .

(٦) ساهم الوجه : متغيره من كثرة الجرى صفة للفرس . و الأباجل : جمع أبجل وهو عرق فى الفرس والبعير .

فالطباق فى هذه الشواهد بين : ((ميتا وأحييناه)) ، و ((تحيى والموتى)) و ((يصان ومبذول)) ، و ((الصبر ويجزع)) فهو بين اسم وفعل كما ترى .

هذا والطباق كما يكون بألفاظ استعملت فى معانيها الحقيقية ، يكـــون كذلــك بألفاظ استعملت في معان مجازية وعندئذ يكون الطباق فى كلا المعنيين ، الحقيقى غـــير المراد و المجازى المراد .. كما مر بنا فى الآية الكريمة : ﴿ **أو من كان ميتا فأحييناه** ﴾ أى ضالا فهديناه ، فالمعنيان الحقيقيان وهما الموت والحياة متضادان ، والمعنيان المجازيان وهما الضلال والهدى متضادان أيضًا ، وكما فى قول الشاعر :

حلو الشمائل وهو مـــر باســل … يحمى الذمار صبيحة الإرهـــاق

وقول الآخر :

إذا نحن سرنا بين شرق ومغـــرب … تحرك يقظان الـــتراب ونائمـــه

فالمراد بحلاوة الشمائل : لين الجانب ، و المراد بالمرارة : الشدة وكذا المراد بيقظـــان التراب : متحركه . وبالنائم : الساكن ، فالتضاد محقق بين المعانى الحقيقية غير المرادة وبين المعانى المجازية المرادة ...

ومنه قول الآخر :

لقد أحيا المكـــارم بعـــد مـــوت … وشاد بناءهـــا بعـــد انهـــدام

إذ المراد : لقد أكثر العطاء فى وقت قل فيه العطاء ، فبين ((الإحياء والموت)) وبين ((التشييد والانهدام)) طباق فى معانيها الحقيقية والمجازية على حد سواء .. أما إذا كان الطباق بين المعانى الحقيقية فقط دون المجازية المرادة فهو من إيهام التضاد الآتى بيانه .

الطباق المعنوى : ويسمى أيضًا بالطباق الخفى ، ومعظم البلاغيين جعلـــوه ملحقـــا بالطباق نظرا لخفاء التضاد فيه . وقد عرفوه بأنه ((الجمع بين أمر و ما يتعلق بمقابله)) .. نحـــو قوله تعالى : ﴿ **قالوا ما أنتم إلا بشـــر مثلنا وما أنزل الرحمن من شىء إن أنتم**

إلا تكذبون . قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون ﴾[1] ، فقوله : ﴿ **إنا إليكم لمرسلون** ﴾ ، يستلزم الصدق المضاد للكذب فى قوله ((إن أنتم إلا تكذبون .)) والمعنى ربنا يعلم إنا لصادقون ، فقد جمع فى الآية بين الكذب وبين ما يتعلق بمقابله وهو ﴿ **إنا إليكم لمرسلون** ﴾ ...

ومنه قوله تعالى ﴿ **مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً** ﴾[2] ، فقد جمع بين الإغراق وما يتعلق بالإحراق وهو دخول النار ، إذ دخول النار يتسبب عنه الإحراق المقابل للإغراق .. وقوله عز وجل : ﴿ **محمد رسول الله والذين منه أشداء على الكفار رحماء بينهم** ﴾[3] فما يقابل الشدة هو اللين ، والآية لم تجمع بين الشدة واللين بل جمعت بيت الشدة وما يتعلق باللين وهو الرحمة . و قوله تعالى : ﴿ **ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله** ﴾[4] فالليل والنهار بينهما طباق ظاهر ، والسكن وابتغاء الفضل بينهما طباق خفى ، إذ المقابل للسكن هو الحركة و ابتغاء الفضل يستلوم الحركة المضادة للسكن ، و قد مر بنا سر العدول عن الحركة إلى ابتغاء الفضل فى الآية الكريمة :

ومنه قول القائل :

لهم جل مالى إن تتابع لى غنى وإن قل مالى لم أكلفهم رفدا

فتتابع الغنى يستلزم كثرة المال المضادة لقوله : ((قل مالى)) .

وقول الآخر :

يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ومن إساءة أهل السوء إحسانا

---

(١) سورة يس ١٥ ، ١٦

(٢) سورة نوح ٢٥ .

(٣) سورة الفتح ١٩ .

(٤) سورة القصص ٧٣ .

فالذى يضاد الظلم هو العدل لا المغفرة ، و لكن لما كانت المغفــــرة تجــاوزا عـــن المجازاة ، و العدل مجازاة بالمثل ، كانت المغفرة قريبة من العدل ، فالجمع بينها وبين الظلم جمع بين المعنى و ما يتعلق بمقابله ، فهو من الطباق الخفى ، أما الطبـــاق بـــين الإســـاءة والإحسان فى البيت فهو طباق ظاهر .

ومن فاسد الطباق الخفى قول ابى الطيب المتنبى:

لمن تطلب الدنيا إذا لم ترد بهـــا سرور محـــب أو إســـاءة مجـــرم

ووجه فساده : أن الذى يضاد المحب هو المبغض ، و ليس هنالك تلازم بين المجـــرم والمبغض ، فالمجرم قد لا يكون مبغضا إلا أن يقال : إن بين الإجـــرام والبغـــض تلازمـــا ادعائيا ، و كأن الشاعر يدعى أن المجرم لا يكون إلا مبغضاللمحب لمنافاة حاله لحاله ، فإن قيل هذا لا يكون الطباق فاسدا .. وفى البيت طباق خفى آخر صحيح بـــين الســـرور والإساءة ، فالسرور يضاد الحزن ، و قد جمع بين الســـرور وبين الإساءة التـــى تســـتلزم الحزن عادة .

ومن الطباق الخفى أيضًا قه ل أبى تمام :

مها الوحش إلا أن هاتا أو انـــس قنا الخط إلا أن تلـــك ذوابـــل

حيث طابق بين ((هاتا)) اسم إشارة للقريب وبين ((تلك)) اسم إشارة للبعيد .. ويمكن أن يعد الطباق بين الحـــروف من الطباق الخفى ، لأن الحـــروف لا تظهر معانيها إلا بالاستعمال كما ذكرنا .

★ ★ ★

طباق الإيجاب وطباق السلب : إذا كان المعنيان المتضادان مثبتين معا ، كما في الشواهد السابقة أو منفيين معا كما في قوله تعالى : ﴿ **ثم لا يموت فيها ولا يحيى** ﴾[1] .. وكما في بيت الفرزدق السابق :

لعن الإله بني كليب إنهم لايغدرون ولا يفون لجار

سمى الطباق : طباق الإيجاب .. أما إذا كان أحد طرفى الطباق مثبتا و الآخر منفيا، وهذا يعنى أن المعنى يكون واحدا ويستعمل مرة مثبتا وأخرى منفيا ، أو مرة مأمورا به وأخرى منهيا عنه فى كلام واحد ... إذا كان الطباق كذلك سمى طباق السلب ، ومن شواهده قوله تعالى : ﴿ **قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون** ﴾[2] وقوله عز وجل : ﴿ **ولكن أكثر الناس لا يعلمون . يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا** ﴾[3] .

فقد استعمل العلم فى الآيتين مرة مثبتا وأخرى منفيا ...ومنه قوله تعالى : ﴿ **وما رميت إذ رميت** ﴾[4] ، فالفعل ((رمى)) جاء مثبتا مرة ومنفيا أخرى وقوله عز وجل: ﴿ **ثم من مضغة مخلفة وغير مخلقة لنبين لكم** ﴾[5] فمخلقة جاءت فى الآية مثبتة ومنفية .. وقوله تعالى ﴿ **ومن الناس من يقول آمنا وما بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون** ﴾[6] فقد طابق بين ﴿ **آمنا** ﴾ و ﴿ **ماهم بمؤمنين** ﴾ وبين ﴿ **يخادعون** ﴾ و﴿ **ما يخدعون** ﴾ وتكمن بلاغة الطباق فى هذه الآية الكريمة فى أنه قد كشف عن عقيدة هؤلاء وجلى نفاقهم وأبرز خداعهم وكذبهم ، كما أن فيه أقوى رد على ما ادعوه من الإيمان ، و أبلغ زجر لما يفعلونه من الخداع والمكر.. ومنه قوله تعالى :﴿ **والذين تدعون من دون الله**

---

(١) سورةالأعلى آية ١٣ . .
(٢) سورة الزمر آية ٩ .
(٣) سورة الروم آية ٦ ، ٧ .
(٤) سورة الأنفال آية ١٧ .
(٥) سورة الحج آية ٥ .
(٦) سورة البقرة آية ٨ ، ٩ .

لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ﴾[1] ، حيث جمع بين ﴿**لا يخلقون** ﴾ ، ﴿ **وهم يخلقون** ﴾ وفيه إبراز وتجلية لعجزهم وهوانهم .. ومنه قول عز وجـل : ﴿ **فـلا تخشـوا النـاس واخشونِ** ﴾ [2] وقوله تعالى : ﴿ **فلا تقل لهما أفٍّ ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً**﴾[3] فقد ذكر الفعـل فى الآيتين مرة مأمورا به: ﴿ **قل لهما** ﴾ و ﴿ **اخشونِ** ﴾ ومرة منهيـا عنه ﴿ **لا تقل لهما** ﴾ ، و ﴿ **لا تخشوا** ﴾ ومن أقوالهم : قول أبى تمام :

إلى سالم الأخلاق من كل عـائب ... وليس له مال على الجـود سـالم

حيث جمع بين ((سلامة الأخلاق)) و ((عدم سلامة الأموال)) .

وقول مسلم بن الوليد :

هى البدر يغنيها تـودد وجههـا ... إلى كل من لاقت وإن لم تـودد

فقد طابق بين ((تودد)) و ((لم تودد)) .. وقول الآخر :

لا تلمنى علـى التـى فتنتنـى ... وأرتنـى القبيـح غـير قبيـح

طابق بين ((قبيح)) و ((غير قبيح)) ... وقول امرىء القيس :

جزعت ولم أجزع من البين مجزعا ... وعزيت قلبى بالكواعب مولعـا

طابق بين ((جزعت)) و ((لم أجزع)) ... وقول الحماسى :

وننكر إن شئنا على الناس قولهم ... ولا ينكرون القول حين نقـول

طابق بين ((ننكر)) و ((لا ينكرون)) ... وقول الآخر :

خلقـوا ومـا خلقـوا لمكرمـة ... فكأنهم خلقـوا ومـا خلقـوا

رزقوا وما رزقـوا سمـاح يـد ... فكـأنهم رزقـوا ومـا رزقـوا

---

(١) سورة النحل آية ٢٠.

(٢) سورة المائدة آية ٤٤ .

(٣) سورة الإسراء آية ٢٣ .

فقد طابق بين ((خلقوا و ما خلقوا)) وبين ((رزقوا و ما رزقوا)) وقد أبرز الطباق وجلى ما أراده الشعراء من معانى المدح والغزل والفخر والهجاء فى الأبيات المذكورة .

وبهذا يتضح أن طباق السلب قد يكون بين فعلين أحدهما مثبت والآخر منفى ، أو أحدهما مأمور به والآخر منهى عنه ، و قد يكون بين اسمين حيث يثبت الاسم مرة وينفى مرة أخرى ، و قد يكون بين فعل واسم من مادة واحدة أحدهما مثبت والآخر منفى .. كما رأينا فى الشواهد . وهذا هو رأى جمهور البلاغيين وهو المشهور والراجح[1] .

وقد حصر بعض البلاغيين طباق السلب فى الأفعال دون الأسماء ، و من هؤلاء الخطيب القزوينى الذى عرفه بقوله : ((هو الجمع بين فعلى مصدر واحد مثبت ومنفى أو أمر ونهى))[2] ... وهذا ليس برأى فالصواب رأى جمهور البلاغيين الذى ذكرناه أولا ...

★ ★ ★

---

(١) انظر الصناعتين ٤٢١ .

(٢) بغية الإيضاح جـ ٤ ص ٧ .

طباق التدبيج : التدبيج فى اللغة : التزيين ، يقال : دبج الأرض أى : زينها وفى اصطلاح البلاغة : يختص بالألوان التى تذكر بقصد الكناية أو التورية فقد عرفوه بأنه ذكر لونين أو ألوان بقصد الكناية أو التورية فى معنى من المعانى كالمديح والفخر والغزل والوصف و نحو ذلك .

ومن أمثلته قول أبى تمام فى رثاء محمد بن حميد :

تردى ثياب الموت حمرا فما أتى　　　لها الليل إلا وهى من سندس

فقد كنى عن الاستشهاد بارتداء الثياب الحمراء ، ثم كنى عن دخول الجنة بلبس السندس الأخضر ، وجمع بين الحمرة أو الخضرة على سبيل الطباق ...

ومنه قول عمرو بن كلثوم فى الفخر بقومه :

وأنا نورد الرايات بيضا　　　ونصدرهن حمرا قد روينا

فقد كنى بالرايات البيضاء عن شجاعتهم وقوتهم و أنهم لا يخافون العدو ولا يعبأون به ، بل يلقون الأعداء بوجوه وضاحة وثغور باسمة ، وهذا عنوان شجاعتهم وقوتهم ، ثم كنى باحمرار الرايات عن كثرة القتلى من الأعداء فالرايات قد ارتوت بدمائهم فصبغت باللون الأحمر ... والطباق فى البيت بين ((الحمرة والبياض)) .

ومنه قول ابن حيوس مادحا :

إن ترد علم حالهم عن يقين　　　فالقهم يوم نائلٍ أو نزالِ

تلق بيض الوجوه سود مثار النقـ　　　ـع خضر الأكناف حمر النصال(١)

كنى ((ببيض الوجوه)) عن كرمهم ، و ((بسود مثار النقع خضر الأكناف، حمر النصال)) عن شجاعتهم ، و الطباق فيه بين البياض والسواد والخضرة والحمرة ،

---

(١) النائل : العطاء ، والنزال : مصدر نازل أى : قابله فى الحرب وقاتله والأكناف : جمع كنف وهو الجانب ، وخضرتها كناية عن سواد دروعها والعرب تسمى الضارب إلى السواد أخضر ، والنصل ، حديدة الرمح والسهم والسكين وربما سمى السيف نصلا .

ونلاحظ فى البيتين محسناً بديعياً آخر وهو اللف والنشر حيث ذكر متعددا : ((يوم نـائل ويوم نزال)) ، ثم ذكر ما لكل بلا تعيين ، فبيض الوجـوه يرجع إلى يوم نائلهم ومـا بعده يرجع إلى يوم نزالهم ... والتدبيج فى الأبيات السابقة يسمى تدبيج الكنايـة ، أمـا تدبيج التورية فكقول الحريرى : ((فمذ ازور المحبوب الأصـفر واغبر العيش الأخضـر اسود يومى الأبيض وابيض فودى الأسود ، حتى رثى لى العدو الأزرق ، فياحبذا المـوت الأحمر))[1]، فقد ورى بالمحبوب الأصفر عن الذهب ، أما بقية الألوان فكنايات خضـرة العيش: كناية عن طيبه، وبياض اليوم: كناية عن السرور وسواد الفود: كناية عن الشباب والقوة ، والعدو الأزرق : كناية عن شدة عداوته ، والموت الأحمر : كناية عـن المـوت الجديد الطارىء ... وبهذا تكون العبارة قد جمعت بين تدبيج التورية وتدبيج الكناية ...

ومن طباق التدبيج فى النظم الكريم قوله : تعالى : ﴿ **ألم تـر أن الله أنـزل مـن السماء ماء فأخر جنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جدد بيـض وحمـر مختلـف ألوانها وغرابيب سود** ﴾[2] فألوان الجبال المذكورة فى الآية كناية عن المشتبه والواضح من الطرق ، لأن الجادة البيضاء هى الطريق الواضح الذى كثر سلوكه والسير فيه ، ولـذا قيل : ركب بهم المحجة البيضاء ، ودون البيضاء الحمراء ودون الحمراء السوداء ، فهـى فى الخفاء والالتباس ضد البيضاء فى الظهور والوضوح .

ذكر الألوان بقصد الحقيقة أو المجاز : اختلف العلماء فى ذكر الألوان بقصد الحقيقة أو المجاز ، هل يعد من التدبيج ؟ أم أن التدبيج مقصور على ذكر تلك الألـوان بقصـد الكناية والتورية فقط ؟ . والرأى الصواب أن ذكر الألوان بقصـد الحقيقة كما فى قول ذى الرمة :

كحلاء فى برج صفراء فى نعج كأنها فضة قد مسـها ذهـب

(١) ازور : بعد ، وابيض الفود : كناية عن الضعف ، و الفودان . شعر جانبى الرأس مما يلى الأذن ، والعدو الأزرق : الخالص العداوة .
(٢) سورة فاطر ٢٧ .

يعد من التدبيج أيضًا ، فهو يشمل ذكر الألوان بقصد الحقيقة أو الكناية أو التورية . أما ذكرها بقصد المجاز فهو من إيهام التضاد الآتى بيانه .

ما يلحق بالطباق : ألحق البلاغيون بالطباق أمرين :

أولهما : الطباق الخفى أو المعنوى ، وقد سبق بيانه .

ثانيهما : إيهام التضاد وهو التعبير عن المعانى غير المتقابلة بألفاظ تتقابل معانيها الحقيقية . كما فى قول دعبل الخزاعى :

لا تعجبى يا سلم من رجل ... ضحك المشيب برأسه فبكى

فالمراد بالضحك : ظهور الشيب ظهوراً تاماً ، وهذا المعنى المجازى لا يقابل البكاء ، ولكن المعنى الحقيقى للضحك يقابل المعنى الحقيقى للبكاء ...

ومنه قول الآخر :

وقد أطفأوا شمس النهار وأوقدوا ... نجوم العوالى فى سماء عجاج

فالمراد بالإطفاء : إثارة الغبار حتى يغطى ضوء الشمس ، والمراد بإيقاد نجوم العوالى : إشهار السيوف وتشريع الرماح، وهذان المعنيان المجازيان المرادان لا تقابل بينهما، و لكن التقابل بين المعنيين الحقيقيين لكل من الإطفاء والإيقاد فهو من قبيل إيهام التضاد .

ومنه قول البحترى فى وصف بركة المتوكل :

فحاجب الشمس أحيانا يضاحكها ... وريق الغيث أحيانا يباكيها

فالمراد بالمضاحكة : الإشراق واللمعان ، والمراد بالمباكاة سقوط الأمطار وهطولها .. وهذان المعنيان المجازيان لا تقابل بينهما ولكن التقابل بين المعنيين الحقيقيين للمضاحكة والمباكاة .

ومنه قول أبى تمام :

ما إن ترى الأحساب بيضا وضحا ... إلا بحيث ترى المنايا سودا

استعار البيض الوضح لنقاء الأحساب ، وكنى عن القتل فى الحرب بالمنايا السود، فلا تضاد بين المراد بالبيض والسود فى البيت ، ولكن معنييهما الحقيقيين متضادان .. وكذا قوله فى وصف الشيب :

له منظر فى العين أبيض ناصع ولكنه فى القلب أسود أسفع(١)

وقوله :

وتنظرى خبب الركاب ينصها محي القريض إلى مميت المال(٢)

استعار الأسود الأسفع : للحزن الشديد ، واستعار الإحياء للمحافظة على استمرار الإنشاد والإماتة للإنفاق . فالمعانى المرادة فى البيتين لا تضاد بينها ، ولكن التضاد بين معانيها الحقيقية .

ترشيح الطباق : الترشيح فى اللغة معناه التقوية ، و ترشيح الطباق أن يوجد بجانب التضاد بين المعنيين صورة أخرى من صور البديع أو لون من ألوان البلاغة ، فيتقوى الطباق بذلك ، ويكتسى الكلام طلاوة وبهاء ، ويزداد المعنى وضوحاً وبياناً .. من ذلك قوله تعالى : ﴿ **تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب** ﴾(٣) ، فقد اقترن الطباق بصورة بديعية أخرى وهى العكس ﴿ **تولج الليل فى النهار ... النهار فى الليل ... الحى من الميت ... الميت من الحى** ﴾، كما اقترن بمبالغة التكميل التى تليق بالقدرة الإلهية ، ففى العطف بقوله تعالى : ﴿ **وترزق من تشاء بغير حساب** ﴾ دلالة على أن من قدر على تلك الأفعال التى لا يقدر عليها غيره فهو قادر على أن يرزق من يشاء من عباده بغير حساب ، وهذه مبالغة التكميل المشحونة بقدرة الله الخالق تبارك وتعالى .

---

(١) الأسود الأسفع : الأسود الضارب إلى حمرة .

(٢) تنظرى . بمعنى انتظرى . والخبب : تراوح الفرس فى عدوه بين يديه ورجليه بأن يقوم على إحداهما مرة وعلى الأخرى مرة . والركاب : الإبل وينصها : يحثها حثاً شديداً . والقريض : الشعر .

(٣) سورة آل عمران الآية ٥٧ .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ **ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله** ﴾[1] . فقد اجتمع فى الآية الطباق واللف والنشر ..وقوله عز وجل : ﴿ **ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً** ﴾[2] ، فقد اقترن الطباق بين الخوف والطمع بصحة التقسيم إذ ليس فى رؤية البرق إلا الخوف من الصواعق والطمع فى الأمطار ولا ثالث لهذين القسمين .. وقوله تعالى : ﴿ **وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به** ﴾[3] ، فقد طابق بين الأمن والخوف وأقرن الطباق بالجناس بين الأمر والأمن .... ومن أقوالهم ... قول امرىء القيس :

مكر مفر مقبل مدبر معا　　　كجلمود صخر حطه السيل من

فقد طابق بين الكر والفر ، وبين الإقبال والإدبار ، ثم أقرن ذلك بالتكميل ((معا)) الذى زاد المعنى بهجة وقوة . إذ أفاد شدة القرب فى حالتى الإقبال والإدبار وحالتى الكر والفر ، فأنت تراه مكرا فى حال الفرار ومفرا فى حال المكر ، و تراه مقبلا حال رؤيتك له مدبرا .. وهذا بفضل مبالغة التكميل فى قوله : ((معا)) ... ثم استطرد بعد تمام المطابقة وكمال التكميل إلى التشبيه على سبيل الاستطراد البديعى ، وبهذا اشتمل البيت على الطباق والتكميل والاستطراد ...

وقول ابن حيوس :

إن ترد علم حالهم عن يقين　　　فالقهم يوم نائل أو نزال

تلق بيض الوجوه سود مثار　　　ع خضر الأكناف حمر النصال

فقد قرن طباق التدبيج فى البيتين باللف والنشر كما وضحنا لك

★ ★ ★

(١) سورة القصص الآية ٧٣ .

(٢) سورة الروم الآية ٢٤ .

(٣) سورة النساء الآية ٨٣ .

المقابلة

وقد اختلف البلاغيون فى المقابلة ، فبعضهم جعلها فناً مستقلاً و بعضهم جعلها من الطباق ، لأنها عبارة عن طباق متعدد ، فالطباق إذا جاوز ضدين صار مقابلة ... وهذا هو الراجح ... وعليه فالمقابلة : أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو بمعان متوافقة ثم بما يقابلها على الترتيب ... والمراد بالتوافق خلاف التقابل فلا يشترط فيها التناسب - كما فى مراعاة النظير الآتى بيانه - بل المراد ألا تكون تلك المعانى متضادة ، وهذا هو المقصود بالتوافق ... وتبدأ المقابلة بطباقين أو بطباق وملحق به ثم تتصاعد إلى أن تبلغ إلى مقابلة ستة معان بستة معان أخرى ومن شواهدها قوله تعالى : ﴿ **فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً جزاء بما كانوا يكسبون** ﴾[1] ، فقابل الضحك والقلة بالبكاء والكثرة ... وقوله عز وجل : ﴿ **يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر** ﴾[2]، قابل إرادة اليسر بعدم إرادة العسر .. وقوله تعالى : ﴿ **فرح المخالفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله** ﴾[3] ، قابل الفرح والقعود بالكراهية والجهاد ، وهذا ينم عن عداوة المنافقين وشدة حقدهم فسرورهم كامن فى القعود والتخلف ، وحزنهم وكراهيتهم فى الجهاد لإعلاء كلمة الحق ... ومن ذلك قول النبى " إن الرفق لا يكون فى شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه " وقوله عليه الصلاة والسلام للأنصار : " إنكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع " ... وقول عمران الطلحى للمنصور وقد وجه إليه قوله : ((بلغنى أنك بخيل)) ، فقال : يا أمير المؤمنين : ((ما أجمد فى حق ولا أذوب فى باطل)) .. وقول النابغة الذبيانى :

فتى تم فيه ما يسر صديقه ... على أن فيه ما يسوء الأعاديا

---

(١) سورة التوبة الآية ٨٢

(٢) سورة البقرة الآية ١٨٥

(٣) سورة التوبة الآية ٨١

وقول المعرى :

يا دهـــر يـــا منجـــز إيعـــاده   ومخلـــف المـــأمول مـــن وعـــده*

ولا يخفى عليك ما فى الشواهد من مقابلة معنيين بمعنيين ..

ومنه قول الآخر :

فوا عجباً كيف اتفقنـــا فنـــاصح   وفى ومطوى على الغـــل غـــادر

فقد قابل ((النصح والوفاء بالطى على الغل و الغدر)) .

ومن مقابلة ثلاثة معان بثلاثة معان ، قوله تعالى : ﴿ **يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث** ﴾[1] وقوله عز وجل : ﴿ **لكيلا تأســـوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم** ﴾[2] فقد قابل الأمر بالمعروف بالنهى عن المنكـــر ، وحل الطيبات لهم بتحريم الخبائث عليهم .. والأسى على ما فات بالفرح بما آتى .. ومنه قول المتنبى :

فلا الجود يفنى المال والجد مقبل   ولا البخل يبقى المال والجد مدبـــر

فقد قابل الجود و الإفناء و الإقبال بالبخل و الإبقاء و الإدبار .

ومن مقابلة أربعة بأربعة ، قوله عز وجل : ﴿ **فأما من أعطى و اتقـــى و صـــدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ، و أما من بخل واستغنى و كذب بالحســـنى فسنيســـره للعسرى** ﴾[3] ، فقابل الإعطاء والاتقاء والتصديق والتيسير لليسرى ، بالبخل والاستغناء والتكذيب والتيسير للعسرى .. ومنه قول أبى بكر – رضى الله عنه – فى وصيته عنـــد الموت: ((هذا ما أوصى به أبو بكر عند آخر عهده بالدنيا خارجاً منهـــا ، وأول عهـــده بالآخرة داخلاً فيها ..)) فقد قابل أولاً بـــآخر والدنيـــا بـــالآخرة وخارجـــاً بداخـــل ومنها بفيها .

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٥٧ .

(٢) سورة الحديد الآية ٢٣ .

(٣) سورة الليل الآية ٥ ، ٦ .

ومنه قول أبى تمام :

يا أمة كان قبح الجور يسخطها دهرا فأصبح حسن العدل يرضيها

وقول جرير :

وباسط خير فيكم بيمينه وقابض شر عنكم بشماله

ومن مقابلة خمسة معان بخمسة معان ، قول صفى الدين الحلى :

كان الرضا بدنوى من خواطرهم فصار سخطى لبعدى عن

فقابل ((كان و الرضا والدنو ومن وخواطر)) بـ ((صار والسخط والبعد وعن وجوارهم)) ... ونلاحظ أنه لا تضاد بين الجوار والخواطر إلا على اعتبار أن الخواطر تجول داخل فكر الإنسان ، و الجوار يكون خارجاً عن فكره ... وهذا جار على مذهب من يرى أن المقابلة تكون بالأضداد وبغيرها ...

وأقصى ما تصل إليه المقابلة - كما قلنا - مقابلة ستة معان بستة معان أخرى .. كما فى قول عنترة :

على رأس عبد تاج عزيزينه وفى رجل حر قيد ذل يشينه

هذا وليست العبرة بكثرة المقابلة ، بل المقابلة الجيدة ما جرت مجرى الطبع و لم تأت متكلفة ، و إلا كانت سبباً من أسباب اضطراب الأسلوب وتعقيده ...

رأى السكاكى فى المقابلة : يرى السكاكى أن المقابلة أن تجمع بين شيئين متوافقين أو أكثر وضديهما أو أضدادها ، ثم إذا شرطت هنا شرطاً شرطت هناك ضده ، كما فى قوله تعالى ﴿ **فأما من أعطى واتقى** ...﴾ الآيتان فإنه لما جعل التيسير مشتركاً بين الإعطاء والاتقاء و التصديق جعل ضده و هو التعسير مشتركاً بين أضداد تلك المعانى وهى المنع والاستغناء والتكذيب ... ولذا عاب النقاد المقابلة فى قول أبى دلامة :

ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا وأقبح الكفر والإفلاس بالرجل

حيث اشترط فى حسن الدين والدنيا الاجتماع ، ولم يشترط فى قبح الكفر والإفلاس ضده ، بل شرط فيهما الاجتماع أيضا ... والبيت معيب من زاوية أخرى ، وهى أن قافيته مستدعاة لأجل الوزن ومتنافية مع المعنى ، لأن ما ذكره غير مختص بالرجال .. وقد فضل النقاد على هذا البيت قول المتنبى :

أزورهم وسواد الليل يشفع لى　　　وأنثنى وبياض الصبح يغرى بى

بتمكن القافية وسهولة النظم وكثرة المقابلة ، فهى فى بيت المتنبى مقابلة خمسة معان بخمسة معان ، وفى بيت أبى دلامة مقابلة ثلاثة بثلاثة .. ولكن بيت أبى دلامة يفوق بيت المتنبى بجودة المقابلة ، فإن ضد الليل المحض هو النهار لا الصبح[1] ...

ما الفرق بين الطباق والمقابلة ؟ والفرق بين الطباق والمقابلة يأتى من وجهين :

الأول : أن الطباق جمع بين ضدين ، أما المقابلة فتكون غالبا بالجمع بين أربعة أضداد، ضدان فى صدر الكلام وضدان فى عجزه ، وقد تصل إلى الجمع بين اثنى عشر ضداً ، ستة فى الصدر وستة فى العجز على نحو ما رأينا فى الشواهد .

الثانى : أن الطباق لا يكون إلا بالأضداد أما المقابلة فتكون بالأضداد وبغيرها ، ولكنها بالأضداد تكون أعلى رتبة وأعظم موقعاً ، وعندما تقع المقابلة بغير الأضداد ، فلابد أن يكون هنالك اعتبار للتقابل على نحو ما ..كما رأينا فى بيت صفى الدين الحلى :

كان الرضا بدنوى من خواطرهم　　　فصار سخطى لبعدى عن جوارهم

---

(١) انظر بغية الإضاح حـ ٤ ص ١٥ .

مراعاة النظير

وفن مراعاة النظير قوامه الجمع بين الأمور المتناسبة ، ولذا يسمى أيضًا بالتناسب والائتلاف والتوفيق والتلفيق والمؤاخاة بين المعانى ... وقد عرفه البلاغيون بأنه : الجمع بين أمرين متناسبين أو أمور متناسبة بغير التضاد .. فهو عكس الطباق الذى يقوم على أساس الجمع بين الأمور المتضادة ... وهذا اللون من البديع أشار إليه الشعراء فى العصر الأموى وإن لم يسموه بهذه التسمية ، فقد روى أنه اجتمع نصيب والكميت وذو الرمة، فأنشد الكميت :

أم هل ظعائن بالعلياء يافعة وإن تكامل فيها الأنس والشنب(١)

فعقد نصيب عقدة ، فقال له الكميت : ماذا تحصى ؟ قال : خطأك ، فإنك باعدت فى القول ، أين الأنس من الشنب ؟ ألا قلت كما قال ذو الرمة :

لمياء فى شفتيها حوة لعس وفى اللثات وفى أنيابها شنب(٢)

فنصيب أدرك أن الكميت لم يراع التناسب حيث جمع بين أمرين متباعدين ، وأوضح له أن الصواب فى مثل هذا هو بيت ذى الرمة الذى جمع فيه بين الشفتين واللثات والأنياب وهى أمور متناسبة ، وكذلك الحوة واللعس والشنب ...ومن شواهد هذا الفن فى النظم الكريم قوله تعالى : ﴿ **الشمس والقمر بحسبان** ﴾(٣)، حيث جمع بين الشمس والقمر وهما متناسبان .وقوله عز وجل : ﴿ **والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم** ﴾(٤)، فالذهب والفضة نقدان متناسبان ، ومثله قوله تعالى : ﴿ **يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان** ﴾(٥)، ﴿ **كأنهن**

---

(١) الشنب : ماء ورقة وبرد وعذوبة فى الأسنان .

(٢) اللمى : سمرة فى الشفة . والحوة : حمرة مشوبة بسواد . واللعس سواد مستحب فى الشفة .

(٣) سورة الرحمن آية ٥ .

(٤) سورة التوبة آية ٣٤ .

(٥) سورة الرحمن آية ٢٣ .

الياقوت والمرجان ﴾[1] فاللؤلؤ والمرجان والياقوت أمور متناسبة لكونها معادن نفيسة مقترنة في الأذهان ..ومن أقوالهم ، قول البحترى يصف إبلاً هزيلة :

كالقسى المعطفات بل الأسـ ـهم مبرية بل الأوتار

فقد شبه تلك الإبل الهزيلة بالقسى في الرقة والهزال ، ثم أضرب إلى الأسهم وهى أرق ، ثم إلى الأوتار وهى أشد رقة ، وكل من القسى والأسهم والأوتار أدوات متناسبة ... وقول ابن رشيق :

أصح وأقوى ما سمعناه في الندى من الخبر المأثور منذ قديم

أحاديث ترويها السيول عن الحيا عن البحر عن كف الأمير تميم

فقد جمع بين الصحة والقوة والسماع والخبر المأثور والأحاديث والرواية وتلك الأمور يدرك المناسبة بينها من ألم بعلم مصطلح الحديث ...ثم جمع بين السيول والحيا والبحر وكف الأمير تميم ، ونلاحظ في هذه الأمور صحة الترتيب في العنعنة إذ جعل الرواية لصاغر عن كابر كما يقع في سند الحديث ، فالسيول أصلها المطر والمطر أصله البحر ، والبحر أصله كف الأمير مبالغة وادعاء ... وقول البهاء زهير :

لم يقض زيدكم من وصلكم وطره ولا قضى ليله في هجركم سحره

تركتم خبرى في الهجر مبتدأ وكل معرفة لى في الهوى نكرة

فقد جمع بين الخبر والمبتدأ والمعرفة والنكرة وهى أمور متناسبة يدرك التناسب بينها من ألم بمسائل علم النحو ويمكن أن يضاف إلى هذه الأمور (زيد) الذى كثر الاستشهاد به وتردده في علم النحو ...

فإذا لم يراع المتكلم الجمع في كلامه بين الأمور المتناسبة عد ذلك عيباً وخطأ ، كما رأينا في قول الكميت السابق ...وكما في قول أبى نواس :

وقد حلفت يميناً مبرورة لاتكذب

---

(١) سورة الرحمن آية ٥٨ .

بـــــرب زمـــزم والحـــــو ض والصفـــا والمحصــــب

فإن الحوض لا يتناسب مع زمزم والصفا والمحصب ، وإنما يذكر الحوض مع الصراط والميزان وما يجرى مجراهما مما هو منوط بيوم القيامة ، أما زمزم والصفا والمحصب ، فتذكر مع الركن والحطيم وما يـــجرى مجراهما .. هذا وقد يلحق الشاعر بالأمور المتناسبة أمراً لا يتلاءم معها فى الحقيقة والواقع ، وإنما يتلاءم معها فى الخيال والتصور ، وهو يهـــدف من وراء ذلك إلى غرض بلاغى كالمبالغة فى المديح وغيره من المعانى ، على نحو ما مر بك فى بيتى ابن رشيق إذ ألحق كف الأمير بالسيل والحيا والبحر وجعله أصلاً لتلك الأمــــور وذلك مبالغة فى كرم الأمير وعطائه ...

وانظر إلى قول محمد بن وهيب :

ثلاثة تشرق الدنيـــا ببهجتهـــا شمس الضحى وأبـــو إســحاق

تجـــده قد جمع بين الشمس والقمـــر ولايخفىعليك ما بينهما من تناســـب ، أمـــا أبو إسحاق فلا يتناسب معهما فى الواقع وإنما يتناسب معهما فى خيال الشـــاعر الـــذى ســـوى بينه وبينهما فى الإشـــراف والبهجة .. وكذا قد يجمع الشـــاعر بين عدة أمور لا تتناسب فى الحقيقة والواقع ، وإنما تتناسب فى خياله ، ويتحقق من وراء الجمع بينهـــا مقصد من المقاصد .. من ذلك قول الشاعر :

إذا لم يكن للمرء فى الخلق مطمع فذو التاج والسقاء والذر واحد

فمن ذا الذى يجمع بين الملك صاحب التاج والسلطان وبين من يقوم بسقاية الناس . ومن ذا يسوى بينهما وبين الذر ، إنها أمور لا تتناسب فى الواقع ، ولكن خيال الشـــاعر سوى بينها ، فالجمع بين الثلاثة من صنع الخيال المحض ، الذى أبرز أن من لا مطمع له فى الدنيا وأهلها يتساوى عنده الملك ذو السلطان والسقاء والذر .

إيهام التناسب : ألحق البلاغيون بمراعاة النظير ، إيهام التناسب وهو أن يكون اللفظ له معنيان أحدهما مراد والآخر غير مراد ويكون المعنى غير المراد هو الذى يتناسب مـــع الأمور التى ذكرت معه .. من ذلك قوله تعالى : ﴿ **الشمس والقمر بحســـبان والنجـــم**

والشجر يسجدان ﴾[1] فالنجم له معنيان أحدهما غير مراد فى الآية الكريمة وهو الكوكب الذى يتلاءم مع الشمس والقمر ، والثانى مراد وهو النبات الذى لا ساق له وهو بهذا المعنى المراد يتناسب مع الشجر المذكور بعده... فالنجم بمعنى النبات لا يتناسب مع الشمس والقمر ، ولكنه يتناسب معهما إذا كان بمعنى الكوكب وهذا المعنى غير مراد فى الآية الكريمة .. وخلاصة القول : أن بين النجم فىالآية وبين الشمس والقمر إيهام التناسب ، أما النجم والشجر فبينهما مراعاة النظير ...

تشابه الأطراف : ومن مراعاة النظير ما يسميه بعض البلاغيين بتشابه الأطراف وهو أن يختم الكلام بما يتناسب مع أوله فى المعنى ...

كقوله تعالى : **﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾**[2] ، فقد ختمت الآية بما يناسب أولها ، إذ **﴿ اللطيف ﴾** يلائم **﴿ لا تدركه الأبصار ﴾** ، و ﴿ الخبير ﴾ يلائم **﴿ وهو يدرك الأبصار ﴾** لأن من يدرك الشيء يكون خبيراً به .. ومنه قوله تعالى : **﴿ له ما فى السموات وما فى الأرض وإن الله لهو الغنى الحميد ﴾**[3] ، فإن الذى يملك ما فى السموات وما فى الأرض يكون غنياً عن كل ما عداه ، ولما كان ما فى السموات وما فى الأرض مخلوقاً لمنفعة العباد ، كان الخالق المنعم مستحقاً للحمد من المنعم عليهم .. ومنه قوله تعالى : **﴿ ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض والفلك تجرى فى البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرءوف رحيم ﴾** [4] ، لأن الذى أنعم هذا الإنعام ، سخر ما فى الأرض ، وسخر الفلك تجرى فى البحر ، ويمسك السماء أن تقع على الأرض ، من يفعل ذلك يكون رءوفاً رحيماً بعباده ... ومما يروى أن أعرابياً سمع قارئاً يقرأ قول الله عز وجل :

(١) سورة الرحمن آية ٥ ، ٦

(٢) سورة الأنعام آية ١٠٣

(٣) سورة الحج آية ٦٤

(٤) سورة الحج آية ٦٥ .

﴿ **فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم** ﴾ [(١)] ، فوضع القارىء : ﴿ **غفور رحيم** ﴾ مكان : ﴿ **عزيز حكيم** ﴾ قائلاً : ﴿ **فاعلموا أن الله غفور رحيم** ﴾ ، فقال الأعرابى ، و لم يكن يقرأ القرآن : ((إن كان هذا كلام الله فلا ، الحكيم لا يذكر الغفران عند الزلل ، لأنه إغراء عليه)) ، فختام الآية بالعزة والحكمة يناسب ذكر الزلل بعد وضوح الحق وتبينه ... وروى أن الرسول ، كان يملى على زيد بن ثابت قوله تعالى : ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر**﴾[(٢)] وهنا قال أحد الصحابة : ((فتبارك الله)) ، فابتسم النبى ثم قال : ((بها ختمت)) ، و ختام الآية الكريمة ﴿ **فتبارك الله أحسن الخالقين** ﴾ ... وورد أن أعرابياً سمع رجلاً يقرأ قوله تعالى : ﴿ **وحملناه على ذات ألواح ودسر . تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كفر** ﴾[(٣)] ، فقرأها القارى بفتح الكاف ، فقال الأعرابى : لا يكون ، فلما قرأها القارىء بضم الكاف وكسر الفاء قال الأعرابى : يكون ...

هذا وقد يكون التناسب بين ختام الآية وبين ما ذكر فى أولها دقيقاً خفياً ، لا يدرك إلا بالتأمل وإطالة النظر ، على نحو ما نرى فى قوله تعالى : ﴿ **إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم** ﴾[(٤)] ، فإن قوله : ﴿ **وإن تغفر لهم** ﴾ ، يوهم أن الفاصلة ﴿ **الغفور الرحيم** ﴾ ، ولكن عند التأمل وإنعام النظر يتضح أن الفاصلة ينبغى أن تكون ما عليه النظم الكريم ، لأنه لا يقدر على تعذيب من يشاء ، والغفران لمن يشاء من عباده إلا العزيز الذى لا يغالب ، وهو عندما يفعل ذلك ففى فعله الحكمة وإن خفيت تلك الحكمة على بعض خلقه ، فالمناسب إذاً هو أن تختم الآية بما ختمت به ...

---

(١) سورة البقرة آية ٢٠٩

(٢) سورةالمؤمنون آية ١٤ .

(٣) سورة القمر آية ١٣ ، ١٤ .

(٤) سورة المائدة آية ١١٨ .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون . هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم** ﴾[1] ، فالمتبادر إلى الذهن أن تختتم الآية بالقدرة : ﴿ **وهو على كل شيء قدير** ﴾ ، ولكن عند تأمل النص الكريم وإنعام النظر فى سياقه يظهر ويتضح أن المناسب هو ما ختمت به الآية : ﴿ **وهو بكل شيء عليم** ﴾ ، لأن تقدم ذكر خلق الأرض والسماء والتصرف فى العالم العلوى والسفلى وغير ذلك من الإحياء والإماتة ثم الإحياء ، كل هذا يدل على صدور تلك الأشياء عن العلم الكامل التام المحيط بجميع الأشياء ....[2] وكذلك القول فى قوله تعالى : ﴿ **لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير . قل إن تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما فى السموات وما فى الأرض الله على كل شيء قدير** ﴾[3] ، فإن النظرة العجلى فى الآية الثانية توهم أن تكون الفاصلة . ﴿ **وهو بكل شيء عليم** ﴾ ولكن بإنعام النظر وإطالة التأمل فى سياق النظم الكريم يتضح أن المناسب هو ختم الآية بالقدرة ، فاتخاذ المؤمنين الكافرين أولياء من دون المؤمنين لا يكون إلا بزعم المتخذ أن الكافر يملك ويقدر على ما لا يقدر عليه المؤمن من نفع ، ولذا حذر الله من يفعل ذلك من المؤمنين وبين لهم أن إليه مصيرهم ، وأنه عليم بهم وبما يخفون ويبدون بل هو عليم بما فى السموات وما فى الأرض وهو وحده القادر على تحقيق النفع لهم ، فينبغى على المؤمن أن يلجأ إلى قدرته تعالى وأن يستظر بها ، و ألا يوالى أعداءه الكافرين، إذ لا قدرة لهم على نصره ، و إنما القادر هو الله ... وبهذا يتضح أن ختام الآية بالقدرة ﴿ **والله على كل شيء قدير** ﴾ هو المناسب لسياق النظم الكريم ...

(١) سورة البقرة آية ٣٨ ، ٣٩ .

(٢) انظر البحر المحيط جـ ١٢٦/١

(٣) سورة آل عمران آية ٢٨ ، ٢٩

إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التى تدق فيها المناسبة ، وتخفى على النظرة العجلى، وتحتاج إلى إطالة التأمل وإنعام النظر . والتى لا يتسع المقام هنا للإحاطة بها .

ومما خفى فيه وجه المناسبة بين إبتداء الكلام وآخره من أقوال البشر . ما روى أن أبا الطيب المتنبى أنشد سيف الدولة قصيدته التى مطلعها :

على قدر أهل العزم تأتى العزائم ... وتأتى على قدر الكرام المكارم

فلما بلغ إلى قوله :

وقفت وما فى الموت شك لواقف ... كأنك فى جفن الردى وهو نائم

تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ... ووجهك وضاح وثغرك باسم

قال سيف الدولة : قد انتقدتهما عليك كما انتقد على أمرىء القيس قوله :

كأنى لم أركب جواداً للذة ... ولم أتبطن كاعباً ذات خلخال

ولم أسبأ الزق الروى ولم أقل ... لخيلى كرى كرة بعد إجفال[1]

فبيتاك لم يلتئم شطراهما ، كما لم يلتئم شطرا بيتى امرىء القيس وكان ينبغى له أن يقول

كأنى لم أركب جوادا ولم أقل ... لخيلى كرى كرة بعد إجفال

ولم أسبأ الزق الروى للذة ... ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال

وكذلك كان ينبغى لك أن تقول :

وقفت وما فى الموت شك ... ووجهك وضاح وثغرك باسم

تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ... كأنك فى جفن الردى وهو نائم

---

(١) أتبطن : أجعلها بطانة أى : بطنى فوق بطنها : والكاعب : التى برز ثديها .. والزق : وعاء الخمر ...وسبأها : اشتراها لا للبيع ولا للتجارة بل للشراب ، و الروى : المملوء، و الكر : الرجوع على العدو ، والإجفال : الانهزام .

فقد خفى على سيف الدولة وجه المناسبة فى البيتين ، و توهم أن المناسب أن يقرن وقوفه والموت لا شك فيه لواقف بوضوح الوجه وابتسامة الثغر ، لأن هذا يدل على تناهى شجاعته إذ يضحك فى مقام البكاء ، ويشرق وجهه حين يشتد العبوس وتكفهر الوجوه ... وأن يقرن مرور الأبطال كلمى مهزومين بسلامته كأنه فى جفن الردى وهو نائم ، لأن ذلك أدل على إرادة الله له الحفظ وتقديره له السلامة .. كما أن الذين انتقدوا بيتى امرىء القيس ، قد خفى عليهم وجه المناسبة فى البيتين ، و توهموا أن المناسب أن يقرن ركوب الجواد بقوله للخيل كرى ليكون الحديث عن الخيل فى الشطرين ... وأن تقرن لذة الشراب بلذة النساء فى البيت الثانى ... ولكن المتنبى بين لسيف الدولة ما خفى عليه من المناسبة إذ قال له : ((إن صح أن الذى استدرك على امرىء القيس هذا أعلم بالشعر منه ، فقد أخطأ امرؤ القيس وأخطأت أنا ، ومولانا يعلم أن الثوب لا يعلمه البزاز كما يعلمه الحائك ، لأن البزاز يعرف جملته والحائك يعرف جملته وتفاصيله ، لأنه أخرجه من الغزلية إلى الثوبية ... وإنما قرن امرؤ القيس لذة النساء بلذة الركوب للصيد ، وقرن الشجاعة فى منازلة الأعداء بالسماحة فى شراء الخمر للأضياف للتضايف بين كل فريقين . وكذلك لما ذكرت الموت فى صدر البيت الأول ، أتبعته بذكر الردى فى آخره ليكون أحسن تلاؤما ، ولما كان فى وجه الجريح المنهزم عبوساً وعينه باكية ، قلت : ((ووجهك وضاح وثغرك باسم)) لأجمع بين الأضداد فى المعنى ... و قد راق ذلك سيف الدولة وأعجب به ووصله بخمسمائة دينار ... [1]

---

(١) انظر يتيمة الدهر ١/١٥

الإرصــــاد

الإرصاد ويسمى أيضا باسم : التسهيم، والتوشيح والتبيين والتــوأم ... وقــد عرفوه بقولهم : ((أن يجعل قبل العجز من الفقرة أو البيت ما يدل على العجز إذا عــرف الروى))... فهو قريب من مراعاة النظير الذى سبق بيانه ، لأنه لايدل على العجز إلا ما كان بينه وبين العجز مناسبة ، وكان شديد الصلة به ، بل كثيراً ما يكون الــدال علــى العجز هو نفس لفظ العجز ...

ومن شواهده قوله تعالى : ﴿ **وما كان الله ليظلمهم ولكن كــانوا أنفســهم يظلمون** ﴾[1] وقوله عز وجل : ﴿ **وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم فيمــا فيــه يختلفــون** ﴾[2] فالإرصــاد فــى الآيتــين قوله : ﴿ **ليظلمهم** ﴾ ، وقوله : ﴿ **فاختلفوا** ﴾ ، لأنهما دلا على أن مادة العجز مــن مادة ﴿ **الظلم** ﴾ و ﴿ **الاختلاف** ﴾ ، فعندما نقف على الفاصلة وهى النون من سـياق الآيات الكريمة نعرف أن العجز : ﴿ **يظلمون** ﴾ و﴿ **يختلفون** ﴾ ...

ومنه قول زهير :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولاً لا أبــالك يســأم

فقد دل قوله :(سئمت تكاليف الحياة) على قافية البيت وكشف عنها ..

وقول البحترى :

أحلت دمى من غير جرم وحرمت بلا سبب يوم اللقاء كلامــى

فليــس الــذى حللتــه بمحلــل وليس الذى حرمتــه بحــرام

---

(١) سورة العنكبوت آية ٤٠ .

(٢) سورة يونس آية ١٩

فالقارىء عندما يقرأ الشطر الأول من البيت الثانى يدرك بقية البيت بلا كبير عناء ... ومنه قول عمرو بن معد يكرب

إذا لم تستطع شيئاً فدعه   وجاوزه إلى ما تستطيع

فقد دل قوله : ((لم تستطع)) على عجز البيت وكشف عنه ...وقول عدى بن الرقاع:

تزجى أغن كأن إبرة روقه   قلم صاب من الدواة مدادها

فقوله : ((قلم أصاب من الدواة)) دل على أن قافية البيت لابد أن تكون مدداداً ...

بلاغة الإرصاد : وتكمن بلاغة الإرصاد فى دلالته على آخر الكلام قبل الوصول إليه ، فالكلام الجيد مادلت موارده على مصادره وكشف أوله عن آخره ، حتى قال الخبراء بفن القول :((البلاغة أن يكون أول كلامك دالاً على آخره ، وآخره مرتبطا بأوله)) ...ولذا افتخر ابن نباتة بقوله :

خذها إذا أنشدت فى القوم من طرب   صدورها عرفت منها قوافيها

ينسى لها الراكب العجلان حاجته   ويصبح الحاسد الغضبان يطريها

وتحكى لنا كتب التراث حكايات عن فطنة الشعراء ونقاد الكلام وكيف كانوا يدركون الشطر الثانى كله ، وليس القافية وحدها بمجرد سماع الشطر الأول من البيت... من ذلك ما روى أن جريرا أنشد بحضرة الفرزدق قصيدته التى هجا بها الراعى النميرى والتى يقول فيها :

فغض الطرف إنك من نمير   فلا كعبا بلغت ولا كلابا

فلما انتهى إلى قوله :

لها برص بجانب أسكتيها

أدرك الفرزدق تمام البيت ، فوضع يده على عنفقته وكان بها شـــيب ، وقـــال : قبحك الله قبل أن يتلفظ جرير بعجز البيت وهو :

كعنفقة الفرزدق حين شابا

ومنه ما روى أن ابن أبي ربيعة جلس إلى ابن عباس – رضى الله عنه – فـــابتدأ ينشده :

تشـــط غـــــدا دار جيراننـــــا ...

فقال له ابن عباس :

و للـــدار بعـــد غـــد أبعــــــد

فقال له عمر بن أبي ربيعة : ((هكذا صنعت)) ...

فقد فطن ابن عباس – رضى الله عنه – إلى الشطر الثانى من البيت قبل أن ينطق به ابن أبي ربيعة .. وإلى هذا ترجع بلاغة الإرصاد ، حيث يدل ابتداء الكلام علـــى آخـــره وتنبئ موارده عن مصادره ، و يكشف أوله عن آخره ؛ ويرتبط آخره بأوله ...

العكس والتبديل

اختلف العلماء فى هذا اللون ، فبعضهم سماه ((العكس)) أو ((المعكوس)) وبعضهم سماه ((التبديل)) ، وبعضهم سماه ((القلب)) ، وبعضهم فرق بين شواهده وأمثلته فجعل بعضها ((عكسا وتبديلا)) وبعضها ((قلبا)) ... ومنهم من جعله جاريا مجرى الطباق ، ومنهم من جعله ضربا من ضروب التجنيس ، ومنهم من جعله من باب رد الأعجاز على الصدور ... وليس وراء هذه الاختلافات كبير فائدة ، فالذى يعنينا هو دراسة شواهد هذا اللون وصوره وتحديد مفهومه ..

وقد عرفه الخطيب القزوينى بقوله : ((أن يقدم فى الكلام جزء ثم يؤخر)) وجعله قاصراً على الألفاظ دون الحروف وسمى ما يجرى منه فى الحروف قلباً ... فالعكس فى الألفاظ يقع على وجوه :

منها أن يقع العكس بين أحد طرفى جملة وما أضيف إليه كما فى قولهم : ((شيم الأحرار أحرار الشيم)) ، ((كلام الملوك ملوك الكلام)) ، ((عادات السادات سادات العادات)) ، وقيل فى أبى حيان التوحيدى : ((إنه أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء)) ، وقال الحسن بن سهل : ((لا خير فى السرف ولا سرف فى الخير)) ...وإذا ما تأملنا ودققنا النظر ، وجدنا أثر الصنعة باديا على أمثلة هذا الوجه من وجوه العكس والتبديل .

ومنها أن يقع بين متعلقى فعلين فى جملتين ، وهذا الوجه كثير الورود فى الكلام الجيد والتراكيب البليغة، وهو خال - غالبا - من التكلف، ومنه قوله تعالى: **﴿ تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى ﴾**(1) ... **وقول الحماسى :**

رمى الحدثان نسوة آل حرب ... بمقدار سمدن له سمودا
فرد شعورهن السود بيضا ... ورد وجوههن البيض سودا(2)

ومنها أن يقع بين لفظين فى طرفى جملتين . وهذا الوجه أكثر ورودا من الوجهين السابقين ، ومنه قوله تعالى : **﴿ هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ﴾**(3) ، وقوله عز وجل :

---

(1) سورة آل عمران الآية ٢٧ .

(2) حرب : جد معاوية بن أبى سفيان والحدثان : الدهر وسمدن : ذهلن .

(3) سورة البقرة الآية ١٨٧ .

﴿ لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن ﴾[1] وقوله عز قائلاً :**﴿ ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء ﴾**[2] ...

ومنه قول المتنبى :

فلا مجد فى الدنيا لمن قل مالــــه ولا مال فى الدنيا لمن قل مجـــده

وقول الآخر :

قد يجمـــع المـــال غـــير آكلــه ويأكل المال غـــير مـــن جمعــه

ويقطع الثـــوب غـــير لابســه ويلبس الثوب غير مـــن قطعــه

وقول الشريف الرضى :

أسف بمـــن يطــير إلى المعــالى وطار بمـــن يســف إلى الدنايــا

وقول الآخر

إن الليـــالى للأنـــام منــــاهل تطوى وتنشر دونهـــا الأعمـــار

فقصارهن مع الهمــــوم طويلــة وطواهن مع الســـرور قصـــار

ومنها ما يقع بعكس جميع ألفاظ الكلام ، كما فى قول القائل :

عدلوا فما ظلمــــت لهــم دول سعدوا فما زالـــت لهــم نعــم

بذلوا فما شـــحت لهــم شــيم رفعوا فمـــا زلــت لهــم قــدم

وهو مدح فإذا عكست كلماته صار ذماً إذ يصبح بعد العكس

نعم لهم زالـــت فمـــا ســعدوا دول لهم ظلمت فمـــا عدلــوا

قدم لهـــم زلـــت فمـــا رفعــوا شــيم لهــم فمــــا بذلـــوا

ومنها ما يقع بغير الوجوه المذكورة ، كما فى قول ابن الرومى :

طواه الردى عنى فأضحى مزاره بعيدا على قرب قريباً على بعـــد

فقد وقع العكس والتبديل فى خبر أضحى المتعدد ، ولم يقع بعكس جميع الألفـــاظ كما فى الوجه الرابع ولا فى الجملتين كالوجه الثالث ولا فى متعلقى فعلـــين كالوجــه

---

(١) سورة الممتحنة الآية ١٠

(٢) سورة الأنعام آية ٥٢ .

الثانى، ولا بين أحد طرفى جملة وما أضيف إليه كالوجه الأول ... ومنه الآخر :

لست أدرى أذهب فـــى فضـــة   شخصها أم فضـــة فـــى ذهـــب

فقد وقع العكس والتبديل معمولاً للفعل أدرى ...

أما العكس فى الحروف فقد سمـــــاه بعـــض البلاغيـــين كـــالخطيب والســـكاكى ((القلب)) وعرفوه بأن يكون الكلام بحيث لو عكس كان الحاصل من عكسه هو ذلـــك الكلام بعينه ... ولا يضر فى القلب مـــــد المقصـــور أو قصـــر الممـــدود ولا تخفيـــف المشدد أو تشديد المخفف ، وكذلك لا يضر جعل الألف همزة أو الهمزة ألفا أو تبديـــل بعض الحركات والسكنات ، فكل ذلك جائز فيه ...

ومن شواهد قوله تعالى : ﴿ **وكل فى فلك** ﴾[1] وقوله عـــز وجـــل : ﴿ **وربـــك فكبر** ﴾[2] ، فهاتان الآيتان تستقيم قراءتهما طردا وعكسا ... ومـــن ذلـــك قولهـــم : ((أرض خضراء)) ، و قول عماد الدين الكاتب للقاضى الفاضل :((سر فلا كبـــا بـــك الفرس)) و جواب القاضى له : ((دام علا العماد)) ، فهذا الأقوال تستقيم قراءتها طـــرداً وعكسا ... ومنه قول القاضى الأرجانى :

مودتـــه تـــدوم لكـــل هـــول   وهـــل كـــل مودتـــه تـــدوم

فتستطيع أن تقرأ هذا البيت عكسا كما تقرؤه طرداً . والقلب فى الشواهد المذكورة قلب للجملة كلها أو للكلام بأســـره واستقامة قراءته عكسا وطرداً ، وهناك نوع آخـــر من القلب وهو قلب الكلمة الواحدة لتفيد معنى آخر يقصد إليه الشاعر أو المتكلم الـــذى يصرح عادة بهذا القلب وينص عليه . من ذلك قول الشاعر :

كيف السرور بإقبال وآخــــره   إذا تأملتـــه مقلـــوب إقبـــــال

فمقلوب ((إقبال)) : لا بقاء ، والشاعر يريد أن الإقبال لا بقـــــاء لـــه ، فكيـــف يسر به ... ومنه قول الآخر :

جاذبتها والريح تجذب عقربـــــا   من فوق خد مثل قلب العقرب

---

(١) سورة يس آية ٤٠

(٢) سورة المدثر آية ٣

وطفقت ألثم ثغرهـــا فتمنعـــت وتحجبت عنى بقلب العقـــرب

فقلب العقرب فى البيت الأول مشبه به حيث شبه خدها به فى الحمرة أمـــا قلـــب العقرب فى البيت الثانى فالمراد به : البرقع ، لأن لفظ العقرب إذا قلب صـــار برقعـــا ، والمعنى: وضعت البرقع على وجهها حياء وتمنعا ...

هذا وقد يكون العكس للمعنى دون الألفاظ والحروف ، كما فى قول القطامى :

قد يدرك المتأنى بعض حاجتـــه وقد يكون مع المستعجل الزلل

فقد جاء بعده من عكس هذا المعنى حيث قال :

وربما فات بعض القوم أمرهـــم مع التأنى وكان الحزم لو عجلوا

ومن ذلك قول أبى الشيص :

أجد الملامة فى هـــواك لذيـــذة شغفا لذكرك فيلمنـــى اللـــوم

فقد أخذ هذا المعنى أبو الطيب المتنبى وعكسه حيث قال :

أأحبه و أحـــب فيـــه ملامـــة إن الملامة فيـــه مـــن أعدائـــه

فأبو الشيص يحب اللوم ، لأنه يذكره بحبيبه ، والمتنبى يكرهه لأنه لا يستطيع أن يحب صاحبه ويحب اللوم فيه ...

ومنه قول أبى تمام :

كريم متى أمدحه أمدحه والورى والورى معى وإذا ما لمته لمته وحدى

أخذه ابن طاهر وعكس معناه حيث قال :

يشـــترك العـــالم فـــى ذمـــه لكننـــى أمدحـــه وحـــدى

وهذا - كما هو واضح - أقـــرب إلى الســـرقات الشـــعرية منـــه إلى العكـــس والتبديل ...

التـــورية

التورية فى اللغة مصدر ورى ، يقال : ورى الحديث إذا أخفـــاه وأظهـــر غـــيره ، وويت الخبر : جعلته ورائى وســـترته وأظهرت غيره ، وكأن المتكلـــم يجعـــله وراءه بحيث لا يظهر ... وأما فى الاصطلاح البلاغى فالتورية أن يطلق لفظ له معنيان ، قريـــب وبعيد ، ويراد البعيد منهما ، اعتماداً على قرينة خفية ...ويسمى هذا الفن أيضاً باســـم الإيهام ، والمغالطة المعنوية والأحاجى والألغـــاز[1] ...

ومن أمثلتها قول سراج الدين الوراق :

أصون أديم وجهى عـــن أنـــاس　　　لقاء المـــوت عندهـــم الأديـــب

ورب الشـــعر عندهـــم بغيـــض　　　ولو وافى به لهـــم ((حبيـــب))

فلفظ ((حبيب)) فى البيت الثانى له معنيان ، أحدهما المحبوب وهو المعنى القريـــب الذى يتبادرإلى الذهن ، والثانى : اسم أبى تمام وهو حبيب بن أوس الطائى ، وهذا هـــو المعنى البعيد الذى أراده الشاعر ، وقد ورى عنه بالمعنى القريب .. ومنها قولـــــه عـــز وجـــل ﴿ **وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلـــم مـــا جرحتـــم بالنهـــار** ﴾[2] ، فلفـــظ ﴿ **جرحتم** ﴾ فى الآية الكريمة له معنيان : قريب ظاهر غير مراد وهو إحداث تمزق فـــى الجسد ، والثانى بعيد خفى مراد وهو ارتكاب الذنوب واقتراف المعاصى ... ومنها قـــول أبى العلاء المعرى :

وحرف كنون تحت راء ولم يكـــن　　　بدال يؤم الرسم غـــيره النقـــط

فألفـــاظ هذا البيت مبنية على التورية ، إذ معناه : أن هذه الناقة لضعفها وهزالهـــا ، قد انحنت وتقوست وصارت شبيهة بحرف النون فى تقوسها ، تحت رجل يضرب رئتيها ولا يرفق بها فى الســـير فهو غير دال ، يؤم بها دارا غير المطر رســـمها فالمعنى القريب

---

(١) انظر الطراز حـــ ٣ ص ٦٢

(٢) سورة الأنعام آية ٦٠ .

الظاهر غير المراد ((للحرف)) : أحد حروف الهجاء و للراء والدال : الحرفان المعروفان ، وللرسم : رسم الأحرف وكتابتها ، و للنقط : تنقيط الأحرف .. والمعنى البعيد لهذه الألفاظ : ((للحرف)) الناقة ، و ((والراء)) : اسم فاعل من رأى أى : ضرب الرئة ، و ((الدال)) : اسم فاعل من دلا يدلو إذا رفق فى المسير ، و((الرسم)): أثر الديار و ((النقط)) المطر ...وتلك المعانى البعيدة هى المرادة وقد ورى عنها الشاعر بالمعانى القريبة ، فبدت فى صورة حسنة لطيفة ، كما يبدو وجه الحسناء من وراء البرقع ...

وبهذا يتضح أن التورية لفظ مفرد له معنيان إما بالاشتراك أو التواطؤ ، أحد المعنيين قريب ظاهر غير المراد ، و الآخر بعيد خفى مراد ، والمتكلم يوهم السامع أول الأمر أنه يريد المعنى القريب وعند التأمل يتضح أنه يريد المعنى البعيد ، ولذا سمى هذا النوع أيضاً باسم الإيهام .

أنواع التورية : ذكر الخطيب القزوينى أن التورية نوعان : مجردة و مرشحة ، وأضاف المتأخرون نوعين آخرين : المبينة والمهيأة ، وتنويع التورية إلى هذه الأنواع الأربعة إنما هو بالنظر لما يذكر معها مما يلائم المعنى القريب أو المعنى البعيد .

١ - **التورية المجردة** : وهى التى لم يذكر معها لازم من لوازم المعنى القريب المورى به ولا من لوازم المعنى البعيد المورى عنه . أو ذكر فيها لازم لكل منهما ... من ذلك قوله عز وجل : ﴿ **الرحمن على العرش استوى** ﴾[1] ، فكلمة ﴿ **استوى** ﴾ فى الآية الكريمة لها معنيان : قريب غير مراد وهو الاستقرار فى المكان ... وبعيد مراد وهو الاستيلاء والملك ، لأن الله عز وجل منزه عن المعنى الأول و لم يذكر فى الآية ما يلائم أيا من المعنيين ... وقيل إن التورية فى الآية مرشحة، لأن قوله تعالى : ﴿ **على العرش** ﴾ مما يلائم المعنى القريب المورى به ... ومن ذلك قول النبى فى خروجه إلى بدر وقد قيل له : ممن أنتم ؟ فلم يرد أن يعلم السائل فقال له :"من ماء" أراد عليه الصلاة والسلام ، أنهم مخلوق من ماء مهين فورى عنه بقبيلة من العرب يقال لها ماء أو بالعراق لأن ((ماء))

---

(١) سورة طه آية ٥ .

اسم من أسمائها ... ولم يذكر فى الكلام ما يلائم أيا من المورى به أو المورى عنه فهى تورية مجردة .. ومنها قول أبى بكر - رضى الله عنه - فى أثناء الهجرة عندما سأله سائل عن النبى ﷺ : من هذا ؟ فقال أبو بكر : هاد يهدينى ، أراد : هاد يهدينى إلى الإسلام ، فورى عن ذلك بهادى الطريق وهو الدليل فى السفر ، وليس فى الكلام ما يلائم المورى به ولا المورى عنه ...

ومماذكر فيها ملائمان لكل من القريب والبعيد قول الشاعر :

أقول وقد شنوا إلى الحرب غارة　　　دعونى فإنى آكل العيش بالجبن

فلفظ ((الجبن)) له معنيان . قريب مورى به وهو الجبن المأكول ، وبعيد مورى عنه وهو الجبن ضد الشجاعة ، وهذا هو المراد وقد ذكر الشاعر ملائماً للمعنى البعيد وهو قوله : ((شنوا إلى الحرب غارة)) وملائما للقريب وهو : ((آكل العيش)) ولذا فهى تورية مجردة .. ومنها قول ابن الوردى :

قالت إذا كنت تهوى　　　وصلى وتخشى نفورى

صف ورد خدى وإلا　　　أجور ، ناديت جورى

فلفظ ((جورى)) له معنيان . قريب ظاهر غير مراد، و ذلك بأن يكون فعل أمر من ((جار)) مسند إلى ضمير المخاطبة ، وقد ذكر ملائم له وهو : ((وإلا أجور))، وبعيد خفى وهو اسم نوع من الورد يسمى ((جورى)) وقد ذكر ما يلائمه وهو قوله ((صف ورد خدى)) ... ومنها قول الآخر :

ومولع بفخاخ　　　يمدها وشباك

قالت لى العين ماذا　　　يصيد قلت كراكى

فلفظ : ((كراكى)) له معنيان : قريب غير مراد وهو جمع ((كركـــى)) ، طـــائر رمادى اللون يأوى إلى المـــاء ، و قد ذكر ما يلائمه وهو الصيد : ((يصيد)) ، و بعيـــد مراد وهو ((الكرى)) مضافـــاً إلى ضمير العين : ((كراك)) والكرى هو النوم ، وقـــد ذكر ملائم هذا المعنى وهو ((العين)) ، فهى من التورية المجردة ...

٢ - **التورية المرشحة** : وهى التى يذكر فيها لازم المعنى القريب المـــورى بـــه ... وسميت مرشحة لتقويتها بذكر لازم المعنى القريب غـــير المـــراد فإنهـــا تـــزداد بذكـــره إيهاما .. ومن شواهدها قوله تعالى : ﴿ **والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون** ﴾(١) ، فقوله ((بأيد)) يحتمل اليد بمعنى الجـــارحة وهذا هو المعنى القريب المورى به وقد ذكـــر مـــا يلائمه وهو ((بنيناهـــا)) ، لأن البنيان من لوازم الجارحة ، و يحتمل ((القوة)) ، وهـــذا هو المعنى البعيد المورى عنه وهـــو المـــراد ؛ لتنزهـــه ســـبحانه وتعـــالى عـــن المعنـــى الأول ... ومنها قول الحماسى يحي بن منصور :

فلمـــا نأت عنـــا العشـــيرة كلهـــا ... أنخنا فحالفنا السيوف علـــى الدهـــر

فما أسلمتنا عنـــد يـــوم كريهـــة ... ولا نحن أغضينا الجفون على وتر (٢)

فلفظ ((الجفون)) له معنيان : قريب مورى به وهو ((جفون الأعين)) وقد تقـــدم ذكر لازم من لوازمه على جهة الترشيح وهو ((الإغضاء)) ، لأن الإغضاء مـــن لـــوازم العين ، وبعيد مورى عنه وهو ((جفون الســـيوف)) أى : أغمادها ، أما ذكر السيوف فى البيت الأول فهو قرينة التورية ، ولذا لا يعد من لوازم المعنى البعيد ... ومنهـــا قـــول شوقى فى رثاء حافظ إبراهيم :

يا حافظ الفصحـــى وحـــارس ... وإمام من نجلـــت مـــن البلغـــاء

---

(١) سورة الذاريات آية ١٧ .

(٢) نأت : بعدت . وأنخنا : كناية عن إقامتهم بدارهم واكتفائهم بأنفسهم .. والكريهة : الحرب .. والوتر : الثأر

خلفت فى الدنيا بياناً خالداً وتركت أجيالاً من الأبناء

وغداً سيذكرك الزمان ولم يزل للدهر إنصاف وحسن جزاء

فالمعنى القريب للفظ (حافظ) أن يكون اسم فاعل من حفظ ، وقد ذكر ملائم لهذا المعنى وهو ((الفصحى وحارس)) . فهما يقتضيان أن يكون لفظ (حافظ) من المحافظة، والمعنى البعيد هو اسم شاعر النيل ، حافظ إبراهيم ، فالتورية ، تورية مرشحة .. ومنها قوله أيضاً على سبيل المزاح والمداعبة لحافظ :

وحملت إنساناً وكلباً أمانة فضيعها الإنسان والكلب حافظ

ورد حافظ عليه مداعباً أيضاً :

يقولون : إن الشوق نار ولوعة فما بال شوقى الآن أصبح بارداً

فالمعنى القريب (لحافظ) اسم فاعل من (حفظ) ، وقد ذكر مايلائمه :

((وحملت إنساناً وكلباً أمانة فضيعها الإنسان)) ، والمعنى القريب ((لشوقى)) أن يكون من الشوق والحنين ، وقد ذكر لازمه : ((إن الشوق نار ولوعة)) ، والمعنى البعيد لكل منهما وهو المراد : أن يكونا علمين لشاعر النيل : حافظ إبراهيم ، وأمير الشعراء : أحمد شوقى ، فالتورية فى البيتين تورية مرشحة ..

ومنها قول الآخر :

حملناهم طرا على الدهم بعدما خلعنا عليهم بالطعان ملابسا[1]

فلفظ : ((الدهم)) يحتمل الخيل ، جمع أدهم وهو الفرس الأسود وهذا هو المعنى القريب المورى به وهو غير مراد وقد ذكر ملائم لهذا المعنى وهو قوله ((حملناهم)) فالحمل من لوازم الخيل ... ويحتمل : القيود من الحديد وهو المعنى المورى عنه وهو المراد بدليل قوله : ((خلعنا عليهم بالطعان ملابسا)) ...

---

(١) طرا : حال بمعنى جميعاً .

ونلاحظ فيما مر من شواهد التورية المرشحة أن ملائم المورى به قد ذكر قبل لفظ التورية ، ماعدا أبيات شوقى فى رثاء حافظ فقد ذكر بعد ...

ومما ذكر فيه الملائم بعد التورية أيضاً قول الشاعر :

مذهمت من وجدى فى خالها … ولم أصل منه إلى اللثم

قالت : قفوا واستمعوا ما جرى … خالى قد هام به عمى

فلفظ ((خالى)) يحتمل الخال من النسب - أخو الأم - وهو المعنى القريب المورى به ، وقد ذكر ملائمه بعد التورية على جهة الترشيح وهو : ((عمى)) ويحتمل أن يكون المراد به الشامة السوداء التى تظهر فى خد الحسناء وهذا هو المعنى البعيد الخفى المورى عنه وهو المراد ...وقول الآخر :

يا حبذا شجر وطيب نسيمها … لو أنها تسقى بماء واحد

فلفظ ((شجر)) معناه القريب المورى به : ماله ساق من النبات ، و قد ذكر بعد لفظ التورية ما يلائم هذا المعنى وهو ((طيب النسيم والسقى بماء واحد)) ومعناه البعيد المورى عنه ((اسم امرأة)) ، فهى تورية مرشحة ذكر فيها المورى به بعد لفظ التورية ...

٣- <u>التورية المبينة</u> : وهى ما ذكر فيها لازم المعنى البعيد المورى عنه وسميت مبينة، لأن هذا اللازم يبينها ويقربها.. وقد يكون اللازم قبل لفظ التورية كما قال البحترى :

ووراء تسدية الوشاح مليـة … بالحسن تملح فى القلوب وتعذب

فلفظ ((تملح)) يحتمل أن يكون من الملوحة ضد العذوبة وهذا هو المعنى القريب المورى به ... ويحتمل أن يكون من الملاحة وهى الحسن والجمال وهذا هو المعنى البعيد المورى عنه ، وقد تقدم ذكر ملائمه وهو قوله ((مليـة بالحسن)) ، أما قوله ((تعذب)) فيلائم كلا من الملوحة والملاحة ، يلائم الملوحة على أنهما ضدان ، ويلائم الملاحة على أنهما مترادفان ... ومنها قول الشاعر :

قالوا : أما في جلق نزهة ... تنسيك من أنت به مغرى
يا عاذلى دونك من لحظه ... سهما ومن عارضه سطرا

فالمعنى البعيد المورى عنه بكل من ((السهم والسطر)) هو الموضعان المشهوران بمتنزهات دمشق ، وقد ذكرت النزهة بجلق قبلهما وهى من ملائمات هذا المعنى أما المعنى القريب المورى به فهو سهم اللحظ وسطر العارض وهما غير مرادين ... ومنها قول الآخر :

أرى العقد فى ثغره محكما ... يرينا الصحاح من الجوهر

فلفظ ((الصحاح)) معناه القريب : كتاب الجوهرى فى اللغة ومعناه البعيد : أسنان الحبيب ، وقد ذكر قبله ما يلائم هذا المعنى وهو قوله : ((فى ثغره)) ، فالتورية فى البيت تورية مبينة ... ومنها أيضاً قول الشاعر ...

أمولانا ضياء الدين قل لى ... وعش فبقاء مولانا بقائى
فلولا أنت ما أغنيت شيئا ... وما يغنى السراج بلا ضياء

ففى لفظى ((السراج وضياء)) تورية مبينة ، إذ معناهما القريب : المصباح الذى يستخدم فى الإضاءة ، و الضوء الذى يبدد الظلام .. ومعناهما البعيد ؛ اسم الشاعر ((سراج الدين)) واسم الممدوح ((ضياء الدين)) وقد ذكر قبل اللفظين ما يلائم هذا المعنى البعيد وهو قوله : ((مولانا ضياء الدين . لولا أنت ما أغنيت شيئا)) .. وقد يذكر لازم المورى عنه بعد لفظ التورية ، كما فى قول الشاعر :

أرى ذنب السرحان فى الأفق ... فهل ممكن أن الغزالة تطلع

فالبيت به توريتان مبينتان وهما فى ((ذنب السرحان)) وفى ((الغزالة)) ، إذ المعنى القريب لذنب السرحان : ذنب الحيوان المعروف وهو الذئب ، وللغزالة : الظبى ، و المعنى البعيد المورى عنه للأول ضوء النهار وقد ذكر بعده ما يلائمه وهو قوله ((فى الأفق طالعا)) .. وللثانى الشمس وقد قرن بملائمه ((تطلع)) .. فالتورية فى

الموضعين مبينـــة حيث ذكـــر بعد كل ما يلائـــم المعنى البعيد المراد ... وكما فى قول ابن سناء الملك :

أما والله لولا خـــوف ســخطك — لهان على مـــا ألقـــى برهطـــك

ملكت الخافقين فتهـــت عجبـــا — وليس هما سوى قلبى وقرطـــك

فالخافقـــان معناهما القريب المورى به : المشـــرق والمغرب ومعناهما البعيد المورى عنه : قـــلبه وقرط حبيبه ، وقد بين هذا المعنى بالنص عليه فى الشطر الأخير : ((وليـــس هما سوى قلبى وقرطـك)) ....

ومن التورية المبينة التى ذكر فيها الملائم قبـــلا قـــول القـــاضى عيـــاض يصـــف صيفا باردة :

كأن كانون أهدى من ملابســـه — لشهر تموز ألوانـــا مـــن الحلـــل

أو الغزالة من طول المدى خرفت — فما تفرق بين الجـــدى والحمـــل

ففى ألفاظ ((الغزالة والجدى والحمل)) تورية مبينة ، إذ المعنى القريـــب للغزالـــة : ((الظبية)) وللجدى : ((ولد المعز)) ، وللحمل ((ولد الضأن)) ، و المعنى البعيد للغزالة: ((الشـــمس)) ، وللجـــدى : ((برج الجدى)) وهو برج البرد ، وللحمـــل : ((بـــرج الحمل)) وهو برج الدفء وقد ذكر فى البيت الأول ما يلائم هذه المعانى البعيدة المورى عنها وهو إهداء كانون من ملابسه لتموز ألوانا من الحلل ... ومعنى البيتـــين : أن هـــذا صيف بارد وكأن برودته ترجع إلى أن شهر كانون الواقع فى زمن البرد قد أهدى لشـــهر تموز الواقـــع فى زمن الصيف ألوانا من البرد والصقيع .. أو أن الشـــمس قـــد خرفـــت فبدل أن تنزل فى برج الدفء وهو برج الحمل نزلت فى برج البرد وهو برج الجـــدى ، وكأنها لم تستطع أن تفرق بين البرجين لتخريفها ...

وبعض البلاغيين يرى أن التورية فى الغزالة مرشحة لأن ((خرفت)) بمعنى قل عقلها تلائم المعنى القريب وهو الظبى ، وهذا ليس برأى ، لأن المعنى قـــائم علـــى التصويـــر

والتخييل ، فإسناد : ((خرفت)) إلى الغزالة استعارة تخييلية على نحو ما درست في علم البيان : وبعضهم يرى أن الغزالة والجدى والحمل ، توريات مرشحة ترشح كل منها الأخرى ، وهذا أيضاً ليس برأى ، لأن ملائم المعنى ولوازم التورية يشترط فيها ألا تكون ألفاظا مشتركة والغزالة والجدى والحمل ألفاظ مشتركة بين المعنيين المذكورين لكل منها... وبعضهم يرى غير ذلك ، والصواب ما ذكرناه...

٤- **التورية المهيأة** : وهى التى تفتقر إلى ذكر شىء قبلها أو بعدها يهيئها لاحتمال المعنيين وإلا لم تتهيأ التورية أو تكون التورية فى لفظين أو أكثر لولا كل منهما لما تهيأت التورية فى الآخر ... من ذلك قول ابن سناء الملك :

وسيرك فينا سيرة عمرية ... فروحت عن قلب وفرجت عن كرب
وأظهرت فينا من سميك سنة ... فأظهرت ذاك الفرض من ذلك الندب

((فالفرض والندب)) يحتملان أن يكون من الأحكام الشرعية وهذا هو المعنى القريب المورى به ويحتمل أن يكون الفرض بمعنى ((العطاء)) والندب بمعنى ((الرجل السريع فى قضاء الحوائج)) وهذا هو المعنى البعيد المورى عنه ؛ ولولا ذكر لفظ ((السنة)) لما تهيأت التورية ولما فهم من الفرض والندب الحكمان الشرعيان اللذان بهما كانت التورية ... ومنها قول ابن الربيع :

لولا التطير بالخلاف وأنهم ... قالوا : مريض لا يعود مريضاً
لقضيت نحبى فى فنائك خدمة ... لأكون مندوباً قضى مفروضاً[1]

((فالمندوب)) يحتمل أن يكون اسم مفعول من ندب الميت إذا بكاه ، وهذا هو المعنى البعيد المورى عنه والذى قصده الشاعر ، و يحتمل أن يكون أحد الأحكام الشرعية

(١) التطير : التشاؤم والخلاف : مخالفة العرف والعادة والنحب : الأجل .

وهو المعنى القريب المورى به .. ولولا ذكره المفروض ، بعده لما تنبه السامع للمعنى القريب للمندوب ولما كان هنالك تورية ، فلفظ ((مفروضاً)) قد هيأ هذه التورية .

ومنها قول علي – رضي الله عنه – في الأشعث بن قيس : ((إنه كان يحوك الشمال باليمين)) ... ((فالشمال)) يحتمل أن يكون جمع شملة وهي الكساء يشتمل به ، وهذا هو المعنى البعيد المراد ، ويحتمل أن يكون ((اليد الشمال)) نقيض اليمين وهذا هو المعنى القريب ، وذكر اليمين بعد الشمال هو الذي هيأ لهذه التورية.

ومما وقعت فيه التورية بلفظين لولا كل منهما لم تتهيأ الأخرى قول عمر ابن أبي ربيعة :

أيها المنكح الثريا سهيلاً عمرك الله كيف يلتقيان

هي شامية إذا ما استقلت وسهيل إذا ما استقل يمان

فكل من ((الثريا وسهيل)) هيأ صاحبه للتورية ، إذ المعنى القريب للثريا : النجم ، وكذلك سهيل ، والمعنى البعيد للثريا: المرأة العظيمة المنزلة وهي بنت علي بن عبد الله ابن الحارث بن أمية الأصغر ، و لسهل : الرجل وهو سهيل بن عبد الرحمن بن عوف و قيل كان رجلاً مشهوراً من اليمن فكل من اللفظين قد هيأ الآخر للتورية ومن ثم تم للشاعر ما أراد من الإنكار على من جمع بينهما بألطف وجه .

ما الفرق بين اللفظ المهيىء واللفظ الملائم ؟ : وهناك فرق بين ما يهيىء للتورية وما يرشحها أو يبينها ، فاللفظ الملائم في التورية المرشحة أو المبينة لازم من لوازم المعنى أو بصيغة أخرى خصوصية من خصوصياته ، فهو لازم خاص ويشترط فيه كما أوضحنا ألا يكون من الألفاظ المشتركة ، وهو إما مقو للتورية المرشحة أو مبين للتورية المبينة ، و لو لم يذكر هذا الملائم لصحت التورية وظلت موجودة .. أما اللفظ المهيئ فإنه إذا لم يذكر لا تكون التورية أصلاً ... ولننظر في قول ابن أبي ربيعة : ((أيها المنكح الثريا سهيلا)) ... فإننا لو غيرنا أحد اللفظين فقلنا : ((أيها المنكح هندا سهيلا)) ... لم تكن هنالك تورية في لفظ ((سهيل)) .

الفرق بين التورية وبين المجاز والكناية : تختلف التورية عن كل من المجاز والكنايـــة من جهتين :

إحداهما :أن القرينة فى التورية تكون غالبـــاً قرينة خفية أما فى المجاز والكناية فغالباً ما تكون ظاهرة بينة .

ثانيهما : أن كل معنى من معنيى التورية يفهم من اللفظ من غير وســـاطة الآخـــر أو احتياج إلى علاقـــة بينهما ، أما فى الكناية أو المجاز ، فلا بد من وجود علاقـــة بـــين المعنى الأصل للفظ والمعنى المجازى أو الكنائى المراد منه .

بلاغة التورية : وتكمن بلاغة التورية فى ثلاثة أمور :

أولها : أن المعنى البعيد المراد المورى عنه يبدو من خلف المعنى القريب غير المراد فى صورةحسنة لطيفة كما يبدو وجه المرأة الحسناء من وراء البرقع ...

ثانيها : أن المخاطب يدرك من لفظ التورية فى بادىء الأمر معناها القريب ، لسرعة إدراكه قبل البعيد ، ولخفاء القرينة فيها ... فإذا ما وقف على المعنى البعيد بعـــد ذلـــك وأدركه بالتأمل وإطالة النظر كان له وقعة فى النفوس وأثره الحسن .

ثالثها : أنها تمكن المتكلم من أن يخفى المعانى التى يخشى التصريح بها . فيورى عنها بمعان تفهم من لفظ التورية، وبهذا يدفع المـــحذور مع الصدق، كما رأينا فى إجـــابة أبى بكر – رضى الله عنه – للسائل عن الرسول ﷺ إذ قال له " هاد يهدينى " .. وكما رأينا فى إجـــابة الرســـول ﷺ فى خروجـــه لبدر عندما ســـأل ســـائل : ممن أنتم ؟ إذ قال له : " من ماء " .

★ ★ ★

الاستخـــــــدام

وهو أن يذكر لفظ له معنيان ، فيراد أحد المعنيين باللفظ ويعود عليه ضمير بالمعنى الآخر . أو يعود عليه ضميران كل واحد منهما بمعنى ... أو يذكر بعده تمييز متعدد كل تمييز بمعنى ، أو يذكر اللفظ بمعنى ويشار إليه بالمعنى الآخر ، و لا فرق في المعنيين اللذين يدل عليهما اللفظ بين أن يكونا حقيقيين أو مجازين أو مختلفين .. كما سنرى في شواهده .

صور الاستخدام : ومن خلال تعريف الاستخدام يتضح لنا أنه يأتي في الكلام على عدة صور أهمها :

١ - أن يذكر اللفظ بمعنى ، ويعود إليه ضميره بمعنى آخر ، كما في قول الشاعر :

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

فهو يصف قومه بالغلبة والقوة والسلطان ، وأنهم قوم لا يخشون أحدًا ، فإذا نزل المطر بأرض غيرهم ، فهم يرعون الكلأ والنبات الناتج عنه رغماً عن هؤلاء الذين نزل المطر بأرضهم ... ونلاحظ أن ((السماء)) لفظ له معنيان بل أكثر : فالمعنى الحقيقي للسماء : ما قابل الأرض ويطلق مجازاً على المطر وعلى النبات ، والمراد منه في البيت معنياه المجازيان ، حيث ذكر لفظ ((السماء)) بمعنى ((المطر)) وعاد إليه الضمير بمعنى ((النبات)) .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ **شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه** ﴾[1] ، فالمراد بالشهر في قوله : ﴿ **من شهد منكم الشهر** ﴾ : الهلال ، والمراد بالضمير في قوله : ﴿ **فليصمه** ﴾ : الزمن المعلوم أى : مدة الشهر فلفظ ﴿ **الشهر** ﴾ قد ذكر بمعنى وعاد

(١) سورة البقرة الآية ١٨٥ .

إليه ضميره بمعنى آخر ، هذا على اعتبار أن شهد بمعنى : رأى و أبصر ، أما إذا جعلت بمعنى : حضر وأقام فلا استخدام فى الآية الكريمة .

٢ - أن يعود إلى اللفظ ضميران كل ضمير بمعنى ... كما فى قول الشاعر :

فالله ما ذكر العقيق وأهله   إلا وأجراه الغرام بمحجرى

فالمراد بالعقيق ((المكان)) - اسم لمكان بظاهر المدينة - وقد عاد إليه الضمير فى قوله : ((وأجراه)) بمعنى : الدم الأحمر الشبيه بالعقيق .. أما الضمير فى قوله : ((وأهله)) فيرجع إليه بنفس معنى المكان ... قول البحترى :

فسقى الغضا والساكنيه وإن هم   شبوه بين جوانح وقلوب

فالغضا يطلق على شجر يسمى شجر الغضا ، ويطلق أيضاً على مكان بنجد يسمى وادى الغضا ، والشاعر قد ذكر لفظ ((الغضا)) و أراد به ((الشجر)) ثم أعاد عليه الضمير فى قوله : ((والساكنيه)) بمعنى : المكان ... وفى قوله : ((شبوه)) : بمعنى الشجر ... ومعنى البيت : أن الشاعر يدعو الله بالسقيا لأشجار هذا المكان ولأهله وإن هم عذبوه و أوقدوا النيران بين جوانحه وفى قلبه .

٣- أن يذكر اللفظ بمعنى ويشار إليه بمعنى آخر ... كما فى قول الشاعر :

رأى العقيق فأجرى ذاك ناظره   متم لج فى الأشواق خاطره

ذكر العقيق بمعنى المكان بظاهر المدينة ، ثم أعاد إليه اسم الإشارة فى قوله : ((فأجرى ذلك ناظره)) بمعنى : الدم الأحمر الشبيه بالعقيق ، و هذا على جعل ((ذاك)) مفعولا به مقدما ، و ناظره ، فاعلاً مؤخراً ، أما على جعل ((ذاك)) فاعلاً و ((ناظره)) مفعولاً ، فلا استخدام فى البيت .

٤- أن يذكر اللفظ وبعده تمييزان كل تمييز بمعنى ... كما فى قول القائل :

حكى الغزال طلعة ولفتة   من ذا رآه مقبلا ولا افتتن

فالغزال يراد به الشمس والظبى ، و قوله : ((طلعة)) تمييز أفاد أن المراد بلفظ ((الغزال)) الشمس ، أى : حكى الشمس فى حسن الطلعة والجمال ...

وقوله : ((لفتة)) تمييز آخر أفاد أن المراد ((بالغزال)) الظبى ، أى : حكى الظبى فى حسن التلفت ... ونلاحظ أن بين لفتة ، و ((لا افتتين)) جناس تام .

٥ - أن يقع الاستخدام بأسلوب الاستثناء ... كما فى البهاء زهير :

أبدا حديثى ليس بالـ   منسوخ إلا فى الدفاتر

فالنسخ : يراد به : الإزالة والمحو ، ويراد به : النقل وإعادة الكتابة يقال نسخ الكتاب : نقله وأعاد كتابته ، وقد أراد الشاعر بالنسخ فى قوله ((بالمنسوخ)) المعنى الأول : الإزالة والمحو ، وأراد بالنسخ الواقع فى المستثنى أى ((فى الدفاتر)) ... النقل وإعادة الكتابة ، ومراد الشاعر أن حديثه لا يمحى ولا ينسخ ، ولكنه ينقل وتعاد كتابته فى الدفاتر .

٦- أن يتوسط اللفظ كلاما يفيد أوله أحد معنييه ويفيد آخره المعنى الآخر ... كما فى قول الله عز وجل : ﴿ **لكل أجل كتاب . يمحو الله ما يشاء و يثبت** ﴾(1) فلفظ ((كتاب)) يحتمل أن يراد به : الأجل المحتوم ، وأن يراد به الكتاب المكتوب ، وقد توسط بين قوله تعالى : ﴿ **لكل أجل** ﴾ وقوله عز وجل : ﴿ **يمحو الله ما يشاء ويثبت** ﴾ فأفاد أول الكلام أن المراد به ((الأجل المحتوم)) وأفاد آخره أن المراد به : الكتاب المكتوب .

٧- أن يأتى الاستخدام فى لفظ له أكثر من معنيين ...كما فى قول ابن الوردى :

ورب غزالة طلعت   بقلبى وهو مراعاها

نصبت لها شباكا من   لجين ثم صدناها

فقالت لى وقد صرنا   إلى عين قصدناها

بذلت العين فاكحلها   بطلعتها ومجراها

---

(١) سورة الرعد الآية ٣٨ ، ٣٩ .

ففى هذه الأبيـــات استخدامان :

الاستخدام الأول : فى لفظ ذى معان وهو لفظ ((غزالة)) ، حيث أريد به فـــى قوله : ((ورب غزالة)) : الشمس على سبيل استعارتها للمرأة ، ثم عـــاد إليه الضمـــير فى قوله : ((مرعاهـــا ، لهـــا ، صدناها)) ... بمعنى الظبى على سبيل استعارته أيضـــاً للمرأة ... ثم عاد إليه الضمير ثانية فى قوله : ((فقالت)) ... بمعنى المرأة ، فاللفظ قـــد استخدم فى معنى ثم عادت إليه الضمائر بمعنيين آخرين مختلفين .

والاستخدام الثانى فى لفظ ذى معنيين وهو لفظ ((العين)) حيث ذكر فى قـــوله ((بذلت العين)) بمعنى : الفضة ، و عـــاد إليه الضمير فى قوله ((فاكحلهـــا)) بمعنـــى الناظرة .

وجه تسمية هذا الفن بالاستخدام : وعندما ننظر فـــى صـــور ((الاســـتخدام)) المذكورة نجد أن اللفظ قد استخدم فى معنى ، ثم استخدم ضميره فـــى معنـــاه الآخـــر أو استخدمت الضمائر العائدة عليه فى معنييه أو فى معانيه المختلفة ..

أو استخدام اللفظ فى معنى ، واسم الإشارة العائد إليـــه فـــى المعنـــى الآخـــر ، أو استخدام كل تمييز من التمييزين المذكورين بعده فى معنى من معنييه ... أو اســـتخدم أول الكلام فى أحد معنييه وآخره فى المعنى الآخر .. إلى آخر ما ذكر مـــن صـــوره ... ولهذا سمى باسم ((الاستخدام))

بلاغة الاستخدام : وتكمن بلاغة الاستخدام فيما يحققه من الإيجاز ، ففـــى قولـــه مثلاً : ((إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه)) .. تجد أن رعيناه ، أخصر من قولنا :

رعينا النبات الناشىء عنه ، و الإيجاز هو البلاغة كما قالوا ،كما تكمن بلاغة هـــذا الأسلوب أيضاُ فيما يحققه من تنبيه المخاطب وإيقـــاظه وإثارة فكره لأن أول ما يتبـــادر إلى ذهنه من الضمير فى ((رعيناه)) مثلاً هو المعنى الذى استخدم فيه اللفـــظ المذكـــور ((السماء)) ولكنه يفاجأ بأن الضمير قد استخدم فى معنى آخر ، وفى هذا إثارة للفكـــر وتنبيه للذهن فيكون المعنى أوقع فى النفس وأبلغ وأقوى أثرًا .

الفرق بين الاستخدام والتورية : سبق أن عرفنا أن اللفظ فى التورية يكـــون لـــه معنيان أو أكثر ، وكذلك فى الاستخدام ، اللفظ له معنيان أو أكثر ولكن يفرق بينهما من جهتين :

أولاهما : أنه فى التورية بكون أحد المعنيين قريباً والآخر بعيداً ، أما فى الاســتخدام فلا يشترط ذلك .

الثانية : أن التورية يراد فيها أحد المعنيين وهو البعيد المورى عنه ، و يلغى الآخر وهو القريب المورى به أما فى الاستخدام فيراد المعنيان معا كما رأينا .

★ ★ ★

التوجيـــــه

هو إيــراد الكــلام محتمــلا لوجهــين متضــادين كــالمدح والهجــاء أو الــذم والثنــاء ... ولابد أن يكون هذا الاحتمال على حد سواء ، فلو كان أحــد الوجهــين متبادرا إلى الذهن ، لم يكن توجيها .

ومن شواهده قول بشار فى خياط أعور يسمى عمراً :

خــاط لى عمــرو قبـــاء ليـــت عينيــه ســـواء

فاســأل النــاس جميعــا أمديـــح أم هجـــاء[1]

فالبيت الأول يحتمل وجهين : تمنى أن تشفى العين العوراء فيصبح مبصرا بــالاثنتين، أوتصاب العين السليمة ، فيصبح أعمى ، ولذا لا أحد يدرى أقصد الشاعر مدح عمــرو والدعاء له أم قصد ذمه والدعاء عليه ... ومثله قول محمد بن حازم فى تهنئة الحسن بــن سهل بزواج ابنته بوران بالمأمون :

بـــارك الله للحســـــن ولبـــوران فـــى الخـــتن

يـــا إمـــام الهـــدى ظفـــر ت بينـــت مـــن ؟[2]

حيث لم يعلم ماذا أراد بقوله : ((ظفرت ببنت من ؟)) ، هل أراد الرفعة ؟ أم أراد الضعة ؟ ، ولذا قال المأمون عندمـــا سمـــع البيتـــين : والله مـــا نـــدرى أخـــيرًا أراد أم شرًا ... ومنه قول حسان بن ثابت – رضى الله عنه – يرد على من هجا النبى ﷺ :

هجوت محمـــداً فـــأجبت عنـــه وعنـــد الله فـــى ذاك الجـــزاء

أتهجوه ولست لـــه بكـــفء ؟ فشـــركما لخيركمـــا الفـــداء

---

(١) القباء : ثوب يلبس فوق الثياب .

(٢) الختن : كل من كان من قبل المرأة مثل الأب والأخ .

فقول له : ((شر كما لخير كما الفداء)) كلام يحتمل الوجهين ، لأنه لا يفيد من أراد بالشر ، ومن أراد بالخير .

ومنه ما يحكى أن ابن الجوزى سئل : ((أى الرجلين أفضل أبو بكر أم على)) ؟ ، فأجاب بقوله ((من كانت ابنته تحته)) ... فتلك الإجابة تحتمل وجهين : تفضيل أبى بكر على علىّ، وتفضيل علىّ على أبى بكر، لأن الضمير الأول إن عاد إلى ((من)) عاد الثانى إلى النبى ﷺ ويكون المراد بالابنة عائشة - رضى الله عنها ، وعندئذ يكون المفضل أبا بكر وإن عاد الضمير الثانى إلى "من" عاد الأول إلى الرسول ﷺ ويكون المراد بالابنة فاطمة - رضى الله عنها - وعندئذ يكون المفضل عليًّا ... ومن ذلك قوله تعالى فى شأن اليهود وموقفهم من النبىﷺ : ﴿ **من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون: سمعنا وعصينا، واسمع غير مسمع وراعنا لياً بألسنتهم وطعناً فى الدين** ﴾ [1] فقوله تعالى : ﴿ **غير مسمع** ﴾، يحتمل وجهين الذم ، ويكون المعنى عندئذ : اسمع مدعوا عليك بلا سمعت ، أو اسمع غير مجاب ما تدعو إليه ، أى غير مسمع جوابا يوافقك ، فكأنك لم تسمع شيئا، أو اسمع عير مسمع كلاما ترضاه، فسمعك عنه ناب ، و يحتمل المدح، والمعنى : اسمع غير مسمع مكروها من قولهم. أسمع فلان فلانا ،إذا سبه وشتمه .. وكذا قوله ((راعنا))، يحتمل أن يكون شبه كلمة عبرانية كانوا يتسابون بها وهى : راعينا بإشباع العين [2] ... ولهذا نهى الله عز وجل المؤمنين عن هذه اللفظة فقال عز وجل: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا** ﴾[3] فهؤلاء اليهود كانوا يكلمون النبى ﷺ بكلام محتمل ينوون به السب والإهانة ، ويظهرون به التوقير والاحترام ، وذلك سخرية منهم بالدين واستهزاء بالرسول ﷺ - ولا يقال -

---

(١) سورة النساء الآية ٤٦ .

(٢) انظر الكشاف ١/ ٤٠٠ .

(٣) سورة البقرة آية ١٠٤ .

كيف ينطقون بكلام محتمل بعدما صرحوا بالعصيان فقالوا ((سمعنا وعصينا)) ، لأن جميع الكفرة كانوا يواجهون النبى ﷺ بالكفر والعصيان ، ولا يواجهونه بالسب ودعاء السوء ، أو أنهم صرحوا بالعصيان فيما بينهم ، أو أنهم لم ينطقوا بالعصيان ، ولكن لعدم إيمانهم جعلوا كأنهم قد نطقوا به [1] .

بلاغة التوجيه : وتكمن بلاغة التوجيه فيما يفيده من الإيهام والاحتمال ، لأنه إذا كان البيان والوضوح من مقاصد البلاغة ، فكذلك الإيهام والاحتمال يكونان من مقاصدها وأهدافها ، فهذا الأسلوب يجعل صاحبه فى مأمن من المؤاخذة والعقاب لأنه يقول كلاما يحتمل وجهين ، فإذا شاء مال به إلى الذم فينال من مذمومه ، وإذا شاء مال به إلى المدح فينجو من المؤاخذة ويبرأ من الإثم .

الفرق بين التوجيه وبين الاستخدام والتورية : لكل من التوجيه والتورية والاستخدام معنيان ، ولكن يفرق بينها من عدة وجوه ، و قد رأينا فيما سبق الفرق بين التورية والاستخدام ، أما الفرق بين التوجيه وبين كل من التورية والاستخدام فهو من الوجوه التالية :

١- التورية والاستخدام يكونان فى الألفاظ المفردة ، أما التوجيه فيكون فى التركيب كله .

٢- التورية والاستخدام لكل منهما معنيان أو أكثر من أصل الوضع اللغوى أو بالتواطؤ أو بالحقيقة والمجاز فى الاستخدام ، بينما التوجيه يدل على معنييه بمعونة السياق وقرائن الأحوال .

٣- التورية يقصد فيها المعنى البعيد المورى عنه ، ويلغى الآخر القريب المورى به ، والاستخدام يراد فيه المعنيان معا ، أما التوجيه فالمعنيان سواء فى الإرادة وعدم الإرادة والمتكلم هو الذى يوجهه إلى أحد معنييه ، ولذا سمى توجيها .

★ ★ ★

(١)انظر الكشاف جـ ١ ص ٤٠١ .

المشاكلة

المشاكلة فى اللغة : المشابهة والموافقة ، يقال شاكله أى : شابهه ، وفى اصطلاح البلاغيين : ذكر المعنى بلفظ غيره أو بلفظ مضاد للفظ الغير أو مناسب له لوقوعه فى صحبته تحقيقا أو تقديرا .. فمن ذكر المعنى بلفظ غيره قوله تعالى :﴿ **وجزاء سيئة سيئة مثلها** ﴾[1] ، فالسيئة الثانية المراد بها : المجازاة أو العقاب ، وقد ذكر هذا المعنى : «المجازاة أو العقاب » بلفظ السيئة لوقوعه في صحبة « السيئة » الأولى ، وفى هذا الأسلوب مايدعو إلى التنفير من السيئات لأن الجزاء عليها سيكون شديدا ورادعا، سيكون سيئات مثلها لا جزاء وعقابا ... ومثل ذلك قوله تعالى :﴿ **وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أويخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين** ﴾[2] فقد سمى جزاء الله وعقابه لهم "مكرا" ليشاكل به مكر الكفار زيادة فى ترويعهم ومبالغة فى تعنيفهم وإيحاء بأن جزاءهم سيكون شديداً أليماً ... وقوله تعالى :﴿ **لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور . فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل** ﴾[3] ، فقد سمى البدل السيىء ﴿ **جنتين** ﴾ لوقوعه فى صحبة جنتيهم ، وفيه مافيه من التهكم والسخرية .. وقوله عز وجل :﴿ **الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدىعليكم** ﴾[4]، والمراد- والله أعلم - .

---

(١) سورة الشورة آية ٤٠ .

(٢) سورة الأنفال آية ٣٠ .

(٣) سورة سبأ آية ١٥ ، ١٦ .

(٤) سورة البقرة آية ١٩٤ .

﴿ **فمن اعتدى عليكم فجازوه على عدوانه** ﴾ : فذكر الجزاء بلفظ الاعتداء لوقوعه في صحبة اعتدائهم ، وفي هذا تنفير من الاعتداء في الشهر الحرام وتحذير من التعدى على حرمات الله ، وحث للمؤمنين كي يتصدوا بقوة ردع وشدة زجر لمن اعتدى ، فجزاؤه وعقابه لن يكون جزاء وعقابا على عدوانه بل سيكون ردعا واعتداء ...وانظر إلى هذه الفاء في قوله تعالى : ﴿ **فاعتدوا** ﴾ وماتنبيء به من وجوب المبادرة وسرعة الردع ..

وقوله عز وجل :﴿ **وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزءون الله يستهزىء بهم** ﴾ [1] فالمراد - والله أعلم - يجازيهم على استهزائهم ، فذكر الجزاء بلفظ الاستهزاء ليشاكل استهزاء المنافقين وفيه شدة تحذير وقوة ردع وزجر لهؤلاء المنافقين كي يكفوا عن نفاقهم وينتهوا عن استهزائهم .. ومن أقوالهم ، قول عمرو ابن كلثوم :

ألا لا يجهلن أحد علينا ... فنجهل فوق جهل الجاهلينا

فقد ذكر جزاء الجهل ومعاقبة فاعليه بلفظ ((نجهل)) مشاكلة لجهلهم وفيه قوة ردع وشدة تحذير لمن تسول له نفسه الاعتداء عليهم ...

وقول أبي الرقمين أحمد بن محمد الأنطاكي ((ت ٢٩٩هـ)) وكان له إخوان أربعة ينادمهم أيام كافور الإخشيدي ، فجاءه رسولهم في يوم قارس البرد وليست له كسوة تقيه شره فقال له : إخوانك يقرءونك السلام ويقولون لك قد اصطبحنا اليوم وذبحنا شاة سمينة فاشته علينا مانطبخ لك منها فكتب إليهم :

إخواننا قصدوا الصبوح بسحرة ... فأتى رسولهم إلى

قالوا اقترح شيئاً نجد لك طبخه ... قلت : اطبخوا لى جبة وقميصا

فقد ذكر الشاعر ((الخياطة)) بلفظ الطبخ فقال : ((اطبخوا لى)) مكان ((خيطوا لى)) ليشاكل بها لفظ ((الطبخ)) السابق ..

---

(١) سورة البقرة آية ١٩٤ .

ومثله قول الآخر :

قالوا : اتخذ دهنا لقلبك يشفه قلت : ادهنوه بخدها المتورد

فقد ذكر ((التمتع)) بلفظ ((الدهن)) فوضع : ((ادهنوه)) في موضع ((متعوه)) لوقوعه في صحبة ((دهنا)) السابق ...

وقد يكون اللفظ المصاحب مؤخرا والمعنى المذكور بلفظه مقدما عليه ، كما في قول النبي ﷺ : " إنا الله لايمل حتى تملوا " ، فالله عز وجل لايوصف بالملل ولكن نسب الملل إليه مشاكلة لملل عباده والمعنى : إن الله لايقطع ثوابه حتى تملوا مسألته وعبادته ، وواضح أن اللفظ المشاكل فيالحديث وهو ملل الله قد وقع مقدما، واللفظ المصاحب وهو ملل العباد قد وقع مؤخرا ... ومن ذلك قول العرب : ((الجزاء)) ، فالمراد بالجزاء الأول ((العدوان)) وقد ذكر بلفظ الجزاء لوقوعه في صحبة الجزاء الثاني .

ومنه قول أبي تمام :

من مبلغ أفناء يعرب كلها أني بنيت الجار قبل المنزل

فالجار لا يبنى ولكنه يختار وينتقي وقد ذكر الاختيار و الانتقاء بلفظ البناء لوقوعه في صحبة بناء المنزل ، و يلاحظ أن البناء قد حذف من الثاني لدلالة الأول عليه والتقدير: أني بنيت الجار قبل بناء المنزل ...

ومثله قول بعض العراقيين في قاض شهد عنده برؤية هلال الفطر فلم يقبل شهادته :

أترى القاضي أعمى أم تراه يتعامى

سرق العيد كأن العيد أموال اليتامى

فالعيد لا يسرق ولكنه جعله مسروقا لوقوعه في صحبة أموال اليتامى التي يتأتى سرقتها ...

ومن ذكر المعنى بلفظ مضاد للفظ غيره ، قول شريح القاضي لرجل شهد عنده : ((إنك لسبط الشهادة)) . فقال الرجل ((إنها لم تجعد عندي)) . فالمراد بالسبط هنا:

الاستمرار فى حفظها وقبولها دائما وأداؤها فى ساحة القضاء ، والمراد بقوله ((لم تجعد عندى)) : لم تقصر عن إدراكى وحفظى ، فمتى أدركتنى الشهادة حفظتها وتحملتها وأديتها فلا أكتمها .. والسبوط فى الأصل : إطلاق الشعر وامتداده والجعودة . قصر الشعر وعدم امتداده ، فقد ذكر قصر الشهادة بلفظ الجعودة لوقوعها فى صحبة ((السبوطة)) المضادة للجعودة ...

ومن ذكر المعنى بلفظ مناسب للفظ غيره ، ماورد أن رجلاً قال لوهب : ((أليس قد ورد أن لا إله إلا الله مفتاح الجنة ؟)) فقال : ((بلى ولكنه ما من مفتاح إلا له أسنان فإذا جئت بالأسنان فتح لك وإلا لم يفتح لك)) فقد ذكر الأعمال بلفظ ((الأسنان)) لوقوعها فى صحبته ((المفتاح)) المناسب للأسنان ... وهذا ولفظ المعنى المشاكل به قد يكون محققاً ومذكور فى الكلام وعندئذ تكون المشاكلة تحقيقية، ويتضح لك هذا فى معظم مامر بك من شواهد وقد يكون مقدراً فتسمى المشاكلة تقديرية ، كما رأيت فى بيت أبى تمام :

من مبلغ أفناء يعرب　　　أنى بنيت الجار قبل المنزل

وفى قول الآخر :

سرق العيد كأن الـ　　　ـعيد أموال اليتامى

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ **قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم و إسماعيل و إسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم فى شقاق فسيكفكهم الله وهو السميع العليم . صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون** ﴾(١) ، فقوله ﴿ **صبغه الله** ﴾ مصدر مؤكد لمضمون قوله ﴿ **آمنا بالله** ﴾ والمعنى طهرنا الله بالإيمان

(١) سورة البقرة آية ١٣٦ - ١٣٨ .

تطهيراً ، إذ الإيمان مطهر لنفوس المؤمنين ... والأصل فيه أن النصارى كـــانوا يغمســـون أولادهم فى ماء أصفر يسمونه ماء المعمودية ويزعمون أن الولد يصير بذلـــــك نصرانيـــاً حقاً ، فأمر الله المؤمنين أن يقولوا : صبغنا الله بالإيمان صبغته و لم نصبغ صبغتكم .. فقـــد ذكر ((التطهير)) بلفظ الصبغة لوقوعه فى صحبة صبغة النصارى تقـــديراً لا تحقيقـــاً ، لأن الصبغ ليس مذكوراً فى كلام النصارى بل فهم من السياق والأحوال إذ الآية منزلـــة فى سبب ذلك الفعل وهو غمس أولادهم فى ماء ((المعمودية)) ...

ومن ذلك أن ترى رجلاً يغرس أشجار فتقول لآخر : ((اغرس إلى الكرام)) ، تريد بذلك : أحسن إليهم واصطنع لهم ، فذكر الاصطناع والإحسان بلفظ "الغرس" لوقوعـــه فى صحبته تقديراً إذ لم يتقدم ذكر للغرس ولكن فهم من الحال والمشاهد ...

بلاغة المشاكلة : إذا نظرنا فى شواهد المشاكلة المذكورة نجد أن هذا الفـــن يفيـــد حسناً ومزايا نفتقدها إذا ما ذكر اللفظ الحقيقى للمعنى المعبر عنه .. ولننظر فى قول عمرو السابق :

ألا لا يجهلـــن أحـــــد علينـــــا فنجهل فـــوق جهـــل الجاهلينـــا

تجد أن فى التعبير بلفظ ((الجهل)) مكان العقوبة والمجازاة إفادة لشدة التحذير وقوة الردع والزجر ، ولو قال عمرو : فنرد عليه أو فنجازيه على جهلة أو فنعاقبه ونمنع جهلـــه لما أفاد تلك الإفادة التى أفادتها المشاكلة ...

وإذا تأملنـــا الآيات الكريمـــة : ﴿ **إنما نحن مستهزءون ، الله يستهزىء بهم** ﴾ ... ﴿ **وجزاء سيئة سيئة** ﴾ ... ﴿ **ومكروا ومكر الله** ﴾ ... ﴿ **فمـــن اعتـــدى عليكـــم فاعتدوا عليه** ﴾ . وجدنا أن المشاكلة قد أفادت كمال المبالغة فى التحذير والتنفير مـــن ارتكاب الســـيئات والاستهزاء بالله والمكر به والاعتداء على حرماتـــه ، فجـــزاء تلـــك الأفعال لن يكون " جزاء وعقابا " بل سيكون ((مكراً)) و ((اعتداء)) و((استهزاء مـــن الله)) و ((سيئة)) ، ونلحظ فى الآية الأخيرة قوة حث للمؤمنين كى يتصدوا لمن يعتـــدى

على الشهر الحرام وعلى حرمات الله فتصديهم لـــه ليـــس جـــزاء وعقابـــا بـــل هـــو ((اعتداءً)) ، وفى ذلك ما فيه من قوة الحث للمؤمنين حتى لا تنتهك حرمات الله وحتى لا يكون هنالك مجال للتفكير فى الاعتداء عليها وانتهاكها ... وهكذا نجد أن هذا الفـــن يحقق مزايا ومحاسن نفتقدها عندما نعبر بالألفاظ الحقيقية لتلك المعانى المرادة .

المجاز والمشاكلة : وعندما نتأمل أمثلة المشاكلة نجد أن معظم هذه الأمثلة من قبيل المجاز المرسل أو الاستعارة ، ففى قوله تعالى : ﴿ **وجزاء سيئة سيئة مثلها** ﴾ ﴿ **وبدلنـــاهم بجنتيهم جنتين** ﴾ ﴿ **فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه** ﴾ نجد فى هذه الآيـــات مجـــازاً مرسلاً علاقته السببية حيث أطلق السبب وأراد المسبب .. وفى قول القائل : (اطبخـــوا لى جبة وقميصا) ... وقول الآخر (ادهنوه بخدها المتورد) نجد مجازاً بالاستعارة حيـــث شبهت الخياطة بالطبخ ، والتمتع بالدهن ووجه الشبه هو أن الخياطة والتمتع مما ينبغى أن يكون موضع رغبتهم ومحل عنايتهم كما أن الطبخ والدهن كذلك ..

وعلى الرغم من أن معظم شواهد المشاكلة من قبيل المجاز فإن للمشاكلة دورها فـــى حسن التعبير وبلاغته كما مر بنا ، فإذا كان فى قوله : (اطبخوا لى) استعارة ... وفـــى قوله تعالى ﴿ **وجزاء سيئة سيئة مثلها** ﴾ مجاز مرسل ، فإن فى وقوع (اطبخوا) فـــى صحبة (الطبخ) الأول ، وفى وقوع ســيئة الثانية فى صحبة الســــيئة الأولى بلاغـــة وحسنا لا يكونان ولا يتحققان لو كان المجاز بدون هذه الصحبة ... وبهذا نســـتطيع أن نقول إن المشاكلة قد ساهمت مع المجاز فى جمال الأسلوب وفى حسنه وسمو بلاغته ...

* * *

المبالغـــــة

أطلق علماء البلاغة على هذا هذا الفن تسميات متعددة منها : الإفراط فى الصفة .. الغلو .. الإغراق .. التبليغ ... الإفراط فى الإغريق ... الإيغـــال ... كما أنهم عدوا المبالغة غرضا لفنون كثيرة كالتشبيه و الاستعارة والمجازالمرســل والإيجاز والإطناب والقصر والكناية وغيرها ...

فهذه الفنون تفيد المبالغة ، وهى متفاوتة فى تلك الإفادة زيـــادة ونقصانــا أو شدة وضعفا ... ونجد عند الصرفيين والنحويين صيغ المبالغة : فعّـــال ..ومفعـــال .. وفعول .. وفعيل .. وفعل ، و أساليب التوكيد اللفظى والمعنوى .. وتلك أيضـــاً تفيــد المبالغة ، والبلاغيون عندما درسوا المبالغة فنا من فنون البديع ، أرادوا بذلك دراسة مــدى تفاوتها فى الشدة والضعف ، ومتى تقبل فى الكلام ومتى ترد ، ولذا لن نهتم بدراســة هذه الأساليب التى تفيد المبالغة ، فتلك الأساليب تدرس فى مواضعها من علمى المعـــانى والبيان وفى علم النحو والصرف أما علم البديع فيهتم بمدى التفاوت فى المبالغة ، وإلى أى حد تصل المبالغة شدة أو ضعفا ثم تقبل ... ومتى ترد المبالغة ؟ وهل اتفق العلماء علـــى قبولها ؟ هذا ما سنتناوله بالدراسة إن شاء الله .

تعريف المبالغة : عرفت المبالغة فى علم البديع بأنها : ادعاء بلوغ وصف فى الشدة أو فى الضعف حدا مستحيلا أو مستبعدا ... كما فى قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم . يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس ســكارى وما هم بسكارى ولكـــن عـــذاب الله شديد** ﴾[1] .. فالآية الكريمة قد بالغت فى وصف أهوال يوم القيامة ... ووصلت بهـــذه الأهوال إلى حد بعيد ، فالمرضعة تذهل عما أرضعت والناس سكارى من الأهوال وما هم

---

(١) سورة الحج آية ١ ، ٢ .

بسكارى ... فينبغى على كل عاقل أن يفكر فى عاقبة الأمر وأن يستعد للنجاة من هـــذا الهول وذاك الفزع الأكبر ...

آراء العلماء في المبالغة : اختلفت آراء العلماء فى المبالغة قبولا ورداً ، فبعضهم رأى قبول المبالغة مطلقـــاً ... وبعضهم رأى ردها مطلقاً .. وبعضهم رأى قبول أنواع منهـــا ورد أنواع ...

الرأى الأول : فأما الذين رأوا قبولها مطلقاً فقد استندوا إلى ما يلى :

١ – أن أجود الشعر أكذبه وخير الكلام ما بولغ فيه ولذا قال البحترى مخاطباً الذين رأوا إجراء الشعر على مقاييس المنطق وقواعده :

كلفتمونـــا حـــدود منطقكـــم والشعر يكفى عن صدقه كذبه

فالشعر يقوم على التخيل والتصوير ، والإغراق فى المدح والهجـــاء والوصـــف وسائر الأغراض ، وهذا هو الكذب الذى يرمى إليه البحترى ويريده ، ولا يقصد الكذب الذى يزيف ويزين ، ويقلب الباطـل حقا والحق باطـلا .

٢ – ما جرى بين النابغة الذبيانى وحسان بن ثابت فى سوق عكاظ عندما احتكـــم حسان إلى قوله :

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجمده دما

فقد استدرك النابغة عليه ترك المبالغـــة وعد ذلك عيبا حيث رأى أنه قلل الجفـــان ، ولو قال الجفان بدل الجفنات لكان أكثر ... وقال : يلمعن بالضحى ، ولو قـــال يـــبرقن بالدجى لكان أبلغ فى المدح ، لأن الضيف أكثر طروقـــا بالليل ... وقال : يقطرن ولـــو قال : يجرين لكان أكثر ...

الرأى الثانى : أما الذين رأوا رد المبالغة مطلقا فقد استندوا إلى ما يلى :

١– أن المبالغة من عيوب الكلام ، و الكلام الجيد ما خرج مخرج الصدق ، وجـــاء على منهج الحق .. والمتكلم لا يلجأ إلى المبالغة إلا إذا عجز عن التعبير الجيـــد وابتكـــار المعانى ، فهو يلجأ إلى المبالغة لسد خلله وتتميم نقصه ...

٢- قول حسان - رضى الله عنه - :

وإن أشعر بيـــت أنـــت قائلـــه   بيت يقال إذا أنشـــدته صدقـــا

فيجب ترك المبالغة إلى الصدق والتحقيق ...

٣ - قول عمر - رضى الله عنه - معللا كون زهير أشعر الناس ؛ ((إنـــه لا يتبـــع حوشى الكلام ولا يعاظل فى المنطق ولا يقول ما لا يعرف ولا يمدح الرجل إلا بما هـــو فيه)) .....

الرأى الثالث : توسط بين الرأيين السابقين فقبل من المبالغة ما جـــاء معتـــدلا و لم يتجاوز حدود العرف والعادة و لم يخرج على تعاليم الدين الحنيف ، ورد ما عداه ... وهذا الرأى أولى بالقبول و أحق بالترجيح و لعل الذين رفضوا المبالغة مطلقا قد خفى عليهم أن المراد بالكذب فى الشعر : التخييل والتصوير ، لا ما هو نقيض الحق والصـــدق ... وأن المراد بالصدق : ما لم يتجاوز حد الاعتدال فى المنطق والقول .

أقسام المبالغة : والذين توسطوا بين الرأيين رأوا أن المبالغة ثلاثة أقســـام : التبليـــغ والإغراق والغلو ... أما التبليغ والإغراق فهما مقبولان ... وأما الغلو فيقبل منه ويرد ..

١- **التبليغ** : فالتبليغ ما كان الوصف المبالغ فيه ممكنا عقلا وعادة .. كما فى قـــول امرىء القيس يصف فرسه بأنه لا يعرق وإن كثر عدوه :

فعادى عداء بين ثـــور ونعجـــة   دراكا فلم ينضح بماء فيغسل(١)

فقد ادعى أن فرسه أدرك ثورا وبقرة وحشيين فى مضمار واحد و لم يعرق وهـــذا الادعاء ممكن عقلا وعادة ..

ومثله قال المتنبى :

وأصرع أى الوحش قفيته بـــه   وأنزل عنه مثله حـــين أركـــب

---

(١) عداء : العداء هو الموالاة بين الصيدين يصرع أحدهما إثر الآخر فى شوط واحد . والثور : ذكر البقر الوحشى والنعجة : أنثاه ، ودراكا : متتابعا ...

فقد ادعى أنه يلاحق بفرسه الوحوش فيصرعها وعندما ينزل عنه بعد انتهاء الصيد تكون حالته شبيهة بحالته عندما ركبه فى بداية الصيد فلم يلحقه تعب و لم يصبه إرهاق وهذا الادعاء ممكن عقلا وعادة ..

وقول ابن الرومى فى الهجاء :

ولو أن قصرك يا ابن يوسف ممتلٍ إبرا يضيق بها فناء المنزل

وأتاك يوسف يستعيرك إبرة ليخيط قد قميصه لم تفعل

فكون المهجو على هذه الدرجة من البخل على الرغم من حقارة المطلوب وصغره وكثرة وجوده عنده وعظم الطالب وعلو منزلته ، ممكن عقلا وعادة .

وقول زهير فى مدح هرم بن سنان :

يطعنهم ما ارتموا حتى إذا اطعنوا ضارب حتى إذا ما ضاربوا اعتنقا

فكون الممدوح على هذا القدر من الشجاعة والقوة لا يمتنع عقلا ولا عادة .

٢ - **الإغراق** : وهو ما كان الوصف المبالغ فيه ممكنا عقلا ممتنعا عادة .. كما فى قول عمير بن الأيهم التغلبى :

ونكرم جارنا ما دام فينا ونتبعه الكرامة حيث مالا

فمتابعة الجار بالإكرام حيث مال وصف ممكن عقلا يمتنع عادة .. . وكما فى قول امرىء القيس:

تنورتها من أذرعات وأهلها بيثرب أدنى دارها نظر عال

فرؤية النار فى المدينة من أذرعات بالشام ممتنعة عادة وعرفاً ولكنها جائزة عقلاً وبخاصة إذا زالت الحواجز والموانع التى تمنع الرؤية ، فالدار قد قربها إليه نظر عال لا تمنعه جبال شاهقة ولا حواجز مرتفعة .. وقوله أيضاً يصف أنفاس صاحبته عند النهوض من النوم :

كأن المدام وصوب الغمام وريح الخزامى ونشر القطر

يعـــل بـــه بـــرد أنيابهـــا إذا غـــرد الطـــائر المســـتحر

فكون صاحبته على تلك الحال وقت السحر ممكن عقلاً وإن امتنع عادة .

٣ - **الغلو** : وهو ما كان الوصف المبـالغ فيه ممتنعا عقـلا وعادة والمقبـول منـه ثلاثة أنواع :

أولها : أن يقترن به ما يقربه من الصحة والإمكـان كلفـظ ((كـاد)) و((لـو)) و((لولا)) و ((يخيل)) ونحو ذلك ... كما في قوله عز وجل : ﴿ **الله نـور السـموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكـب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شـرقية ولاغربية يكاد زيتها يضـيء ولـو لم تمسسه نار** ﴾[1] ، فإضاء الزيت دون أن تمسه نار تمتنع عقلا وعادة ، ولكن دخول لفـظ ((يكاد)) قربه من الصحة وجعله ممكنا حيث أفاد أن الإضاءة لم تقع ولكن قربت مـن الوقوع ، ومثله قوله تعالى : ﴿ **وينزل من السـماء من جبال فيها من برد فيصيب بـه من يشاء ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار** ﴾[2] وقوله عز وجـل : ﴿**أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بغض إذا أخرج يده لم يكد يراها**﴾[3] ومنه قول البحتري :

ولو أن مشتاقا تكلف فـوق مـا في وسـعه لسـعى إليـك المنـبر

فسعى المنبر إليه يمنعـه العقل ولا يقره العرف والعادة ولكنه قرب من الإمكان بذكر ((لو)) التي هي حرف امتناع لامتناع ... ومثله قول امرىء القيس في وصف فتاته :

من القاصرات الطرف لو دب محول من النمل فـوق الإتـب منهـا

---

(١) سورة النور آية ٣٥ .

(٢) سورة النور آية ٤٣ .

(٣) سورة النور آية ٤٠ .

(٤) المحول : ما أتى عليه الحول . والإتب : درع المـرأة وما قصر من الثياب ويطلق أيضـاً علـى قميصها ..

وقول زهير مادحا :

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم   قوم بأولهم أو مجدهم قعدوا

ومن ذلك قول المتنبى :

كفى بجسمى نحولا أننى رجل   لولا مخاطبتى إياك لم ترنى

فبلوغ الإنسان فى نحول الجسم مبلغا تمتنع معه رؤيته مما لا يجوز عرفاً ولا عقلاً.. ولكن ذكر ((لولا)) قرب هذا المعنى من الصحة ؛ إذ هى حرف امتناع لوجود ، فقد امتنع عدم الرؤية لوجود المخاطبة ، و هذا ما قرب الادعاء من الصحة وجعله ممكنا ... ومثله قول المهلهل :

فلولا الريح أسمع من بحجر   صليل البيض تقرع بالذكور[1]

وقد قالوا : إن هذا البيت أكذب بيت قالته العرب على الرغم من وجود ما يقربه من الصحة والإمكان وهو ذكر ((لولا)) التى تفيد امتناع الإسماع لوجود الرياح ...

ووازنوا بين هذا البيت وبيت امرىء القيس السابق :

تنورتها من أذرعات وأهلها   بيثرب أدنى دارها نظر عال

فقال بعضهم إن بيت امرىء القيس أقرب إلى الصحة والإمكان للأمور الآتية :

١- لأن فيه ما يخلص به من الطعن ، وهو اعترافه ببعد مسافة النار ، وأنه لم يدنها إلا النظر العالى :

٢- أن حاسة البصر أقوى من حاسة السمع ، ورؤية الأشياء المضيئة من بعد يتجاوز الحد غير ممتنعة وخاصة إذا ارتفعت الحواجز وزالت الموانع وقد كانت زرقاء اليمامة ترى الجيوش من مسيرة ثلاثة أيام ...

---

(١) حجر : مدينة اليمامة وأم قراها . والبيض : واحدته بيضة وهى الخوذة والذكور : السيوف . والصليل : الصوت ...

٣- أن الذى رآه امرؤ القيس نيران عظيمة مرتفعة مواقدها وهو قد نظر إليها من مكان عال وهذا ما يجعل ادعاءه الرؤية ممكناً وجائزاً ..

وبعضهم يرى أن بيت المهلهل أقرب للصحة من بيت امرىء القيس لما يلى :

١- وجود ((لولا)) فى بيت المهلهل دون بيت امرىء القيس .

٢- تصريح امرىء القيس بأن النار قد شبت فى وجه النهار حيث قال قبل البيت المذكور :

نظرت إليها والنجوم كأنها مصابيح رهبان تشب لقفال

والمعنى : نظرت إلى هذه النيران والنجوم قد قاربت الاختفاء لظهور ضوء النهار وكأنها مصابيح رهبان أوقدت أول الليل حتى إذا جاء آخره ضعف نورها وقل شعاعها .. ولكنى أرى أن ما فى البيت تصريح بأن النظر كان ليلاً وأن النيران قد أوقدت فى غسق الليل لا فى وجه النهار كما قيل ، فالنجوم قد ضعف ضوؤها وقل وهذا أدعى للظلام ، ظلام آخر الليل الذى يعقبه ضوء الصباح ... وبهذا يظل بيت المهلهل أكذب بيت على الرغم من وجود ((لولا)) به كما أوضحنا ... هذا وقد يكون اللفظ الذى الذى يقرب من الصحة مقدرا كما فى قول عنترة :

و أنا المنية حين تشتجر القنا والطعن منى سابق الآجال

وقول امرىء القيس :

مكر مفر مقبل مدبر معا كجلمود صخر حطه السيل من عل

فالمعنى فى البيتين على تقدير ((يكاد)) أى : والطعن منى يكاد يسبق الآجال ... يكاد يكون مفرا مكرا مقبلا مدبرا معا .

ثانيها : أن يتضمن نوعا حسنا من التخييل فيقربه ذلك من الصحة والإمكان .

كما فى قول المتنبى :

عقدت سنابكها عليها عثيرا لو تبتغى عنقا عليه لأمكنا(١)

---

(١) السنابك : الحوافر . والعثير : الغبار المثار . وعنقا : سيرا .

معنى البيت : أن حوافـــر الخيل أثارت غبارا كثيفـــا انعقد فوقهـــا وتراكم بحيـــث لو أردت السير عليه لأمكنك السير لكثافته وغزارته ... وهذا يمتنع عقلا وعادة ، ولكـــن ما تضمنه من تخييل حسن ، أوهم السامع أن الغبار لكثافته صار كـــالأرض أو الجبـــال ، فيمكن السير عليه ... هذا التخييل وكذلك وجود ((لو)) ، قربا الوصف المدعى مـــن الصحة والإمكان .. ومثله قول الآخر فى وصف الليل بالطول :

يخيل لى أن سمر الشهب فى الدجى   وشدت بأهدابى إليهـــن أجفـــانى

فلفظ ((يخيل)) وما تضمنه البيت من تخيل الشهب مسمرة فى الدجى بمسامير وشد أجفان الشاعر بأهدابه إليهن ، قربا المعنى من الصحة وجعلاه ممكنا ...

ثالثها : أن يخرج مخرج الخلاعة والهزل .. كما فى قوله :

أسكر بـــالأمس إن عزمـــت عـــل   ب غـــدا إن ذا مـــن العجـــب

فالسكر المدعى يمتنع عقلا وعادة ولكن خروج هذا الكلام مخرج الهزل قربـــه مـــن الإمكان ...

فـــإن خلا الغلو من هذه الأمور الثـــلاثة كان مردوداً ولا يقبل ... وذلك على نحو ما نرى فى قول أبى نواس :

وأخفت أهل الشـــرك حتـــى إنـــه   لتخافك النطـــف التـــى لم تخلـــق

وقوله أيضاً :

حتى الذى فى الرحم لم يك صورة   لفـــؤاده مـــن خوفـــه خفقـــــان

ولو قدرنا ((يكاد)) فى البيتين لكان من الغلو المقبول كما لا يخفى ...

ومن ذلك أيضاً قول ابن هـــانئ الأندلسى :

ما شئت لا مـــا شـــاءت الأقـــدار   فاحكم فـــأنت الواحـــد القهـــار

وقول المتنبى :

يرتشفن من فمى رشفات هن فيه أحلى من التوحيد

ولا يخفى ما فى البيتين من خروج على تعاليم الدين ، وهذا ما جعله غلوا مردودا .

ومنه قول المتنبى أيضاً :

تجاوزت مقدار الشجاعة والنهى إلى قول قوم أنت بالغيب عالم

وإذا تأملنا شواهد المبالغة التى ذكرها البلاغيون وجدنا أن الغلو غير المقبول قد كثر فى العصر العباسى وما تلاه أما قبل ذلك فلا نكاد نجد سوى المبالغة المقبولة من تبليغ أو إغراق أو غلو قد قرب من الصحة و الإمكان بأمر من الأمور التى ذكرناها .

التجــريــد

وهو أن ينتزع من أمر ذى صفة أمر آخر مثله فى تلك الصفة مبالغة فى كمالها فــى الأمر الأول المنتزع منه كما فى قوله تعالى : ﴿ **ذلك جزاء أعداء الله النار ، لهم فيها دار الخلد جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون** ﴾[١] .

فجهنم هى ((دار الخلــد)) ولكــن قــد جــردت منهــا دار أخــرى وسميــت ((دار الخلد)) لإفادة المبالغة فى أتصاف جهنم بشدة العذاب وتهويل أمرهــا ... فلقــد بلغت جهنم فى شــدة العذاب وهوله مبلغا صح معه أن ينتزع منها موصــــوف آخــر متصف بتلك الصفة ، فهى فيها كأنها تفيض بمثيلاتها لقوتها وشدتها كما يفيض المــاء من البحر .. ومن ذلك قولنا ((لى من فلان صديق حميم)) فقد انتزع من فلان شــخص آخر مثله فى الصداقة ، وذلك للدلالة على كمال الصفة فى فلان هذا ، المنتزع منه فقــد بلغ فى الصداقة مبلغا يصح معه أن ينتزع منه شخص آخر مثله فيها ...

صور التجريد :ويأتى التجريد على عدة صور أهمها :

١- أن يكون بدخــول ((فى)) على المنتزع منه كما فى الآية الكريمــة الســابقة وكقولنا : ((لك فى دارك دار كرامة)) .

٢- أن يكون بدخول ((الباء)) على المنتزع منه نحو قولهم : ((لئن ســألت فلانــا لتسألن به البحر)) فقد بلغ المنتزع منه فى الجود مبلغا يصح معه أن ينتزع منه بحر فــى الكرم والعطاء .

٣- أن يكون بدخول ((من)) على المنتزع منه كقولهم : ((لى مــن فــلان صديــق حميم)) ...

٤- أن يكون بدخول ((باء المعية)) على المنتزع كقول الشاعر :

---

(١) سورة فصلت آية ٢٨ .

وشوهاء تعدو بى إلى صارخ الوغى   بمستلئم مَثل الفنيق المرحل[1]

يريد : تعدو بى ومعى من نفسى مستلئم أى لابس لأمة ، وذلك لكمال استعداده للحرب ، فقد جرد من نفسه مستلئما مستعدا للحروب ...

٥- أن يكون التجريد مستفادا من السياق والقرائن من غير توسط حرف من الحروف كقول الشاعر :

فلئن بقيت لأرحلن بغزوة   تحوى الغنائم أو يموت كريم

فهويعنى ((بالكريم)) نفسه على سبيل التجريد إذ انتزع من نفسه ((كريما)) للمبالغة فى اتصافه بالكرم ...

٦- أن يكون بطريق الكناية ، كما فى قول الأعشى :

يا خير من يركب المطى ولا   يشرب كأسا بكف من بخلا

فقوله ((ولا يشرب كأسا بكف من بخل)) كناية عن شربه بكف الكريم ، وبهذا يكون قد جرد من نفسه كريما يشرب بكفه هو ، و تم ذلك عن طريق الكناية إذ كنى بعدم الشرب بكف من بخل عن الشرب بكف الكريم الذى جرده من نفسه ... ومثله قول الآخر :

إن تلقنى لا ترى غيرى بناظرة   تنس السلاح وتعرف جبهة الأسد

فقد كنى ((بجبهة الأسد)) عن الأسد نفسه وبذا يكون قد جرد من نفسه أسدا للدلالة على كمال اتصافه بالشجاعة والقوة إلى درجة أن من يلقاه محارباً لا يرى غيره بعينه الناظرة ، ينسى سلاحه ، لأنه يلقى أسداً فاتكاً ...

٧ - أن يكون بمخاطبة الإنسان نفسه ... كقول الأعشى :

ودع هريرة إن الراكب مرتحل   وهل تطيق وداعا أيها الرجل

(١) الشوهاء : الفرس القبيحة المنظر لسعة أشداقها أو لتغيرها بالحروب . وصارخ الوغى : المستغيث . والمستلئم : لابس اللأمة وهى الدرع . والفنيق : الفحل المكرم من الإبل . والمرحل : المرسل الذى لا يربط .

فقد جرد من نفسه شخصاً آخر وأخذ يخاطبه : ((ودع)) ، ((وهـــل تطيـــق)) ، ((أيها الرجل)) ... وقول المتنبى :

لا خيل عندك تهـــديها ولا مال   فليسعد النطق إن لم يسعد الحال

فقد جرد من نفسه آخر وخاطبه قائلا : أنت فقير لا تملك مالا و لا عندك خيـــل فليكن ما تقدمه هو المدح والثناء الذى تقدر عليه وتنطق به ....

وفى هذه الصورة نرى أن الغرض من التجريد هو تمكين المتكلم من إجراء الأوصاف المقصودة من مدح أو غيره على نفسه إذ يكون مخاطباً بها غيره فيكون ذلك أعذر له ...

هل يفيد أسلوب التجريد التشبيه أو الالتفات ؟ : إذا تأملنا أسلوب التجريد فـــى صوره المذكورة وجـــدنا أن بعضها يفيد التشبيه الضمنى وبعضهـــا يفيـــــد الالتفـــات وبعضها لا يفيد تشبيها ولا التفاتا .

ففى الصورة الثانية وهى دخول حرف (الباء) على المنتزع منه نحو ((لئن ســـــألت فلانا لتسألن به البحر)) ((ولئن لقيته لتلقين به الأسد)) تجد أن هذه الصورة قد أفـــادت التشبيه ضمنا ... وكذا فى الصورة السادسة وهى إفادة التجريد عن طريق الكناية نجـــد بعض صور الكناية قد يفيد التشبيه ضمنا كما فى البيت :

إن تلقنى لا ترى غـــيرى بناظرة   تنس السلاح وتعرف جبهة الأسد

وفى الصورة الخامسة وهى إفـــادة التجريد بالقرائن وبدون توسط الحـــروف تجـــد التفاتا من المتكلم إلى الغيبة وكذلك فى الصورة الرابعـــة ((دخول الباء على المنـــــتزع)) كما فى البيت :

وشوهاء تعدو بى إلى صاح الوغى   بمستلئم مثـــل الفنيـــق المرحـــل

وكما فى اليت الآخر :

فلئن بقيت لأرحـــلن بغـــــزوة   تحـــوى الغنـــائم أو يموت كريم

فقد التفت فى البيتين من من التكلـــــم فـــى : ((بـــى .. بقيـــت)) إلى الغيبـــة : ((مستلئم .. يموت كريم)) ..

وكذا فى الصورة السادسة وهى إفادة التجريد عن طريق الكناية نرى التفاتا فى قوله :

إن تلقنى لا ترى غيرى بناظرة نس السلاح وتعرف جبهة الأسد

حيث التفت من التكلم فى : ((تلقنى ... غيرى ..)) إلى الغيبة : ((تعرف جبهة الأسد)) ...

وبهذا يتضح أن بعض صور التجريد قد تفيد الالتفات أو التشبيه الضمنى وبعضها لا يفيد سوى التجريد .

بلاغة التجريد : وتكن بلاغة أسلوب التجريد فيما يلى :

١- المبالغة فى وجود الصفة فى المنتزع منه ، فقد بلغ فى الاتصاف بها مبلغاً عظيما إلى درجة أن صار يفيض بها على غيره ، كما رأيت فى الشواهد .

٢- إثارة الخيال وتنشيط الأذهان وتنبيه العقول بما فى أساليبه من تصوير وتخييل ومن تنويع وتلوين فى الصياغة ، ولا يخفى عليك أن مثل هذا الكلام يقع فى النفس موقعه ، لأن من شأن العقول التى أوقظت ونبهت أن تصغى بعناية ، وعندئذ يقع بها الكلام بما فيه من تصوير وتخييل موقعاً حميداً ...

★ ★ ★

اللف والنشـــر

هو ذكر متعدد على جهة التفصيل أو الإجمال ثم ذكر ما لكل من آحاده من غـــير تعيين ثقة بأن السامع يرد إلى كل ما يليق به ...

كما فى قوله تعالى : ﴿ **ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله** ﴾[1] فقد ذكر متعدد وهو ﴿ **الليل والنهار** ﴾ على جهة التفصيل حيث عطف النهار على الليل بواو العطف ، وهذا يســـمى « لفـــا » ويســـميه بعـــض البلاغيـــين « طيا » ثم ذكر بعد هذا الطى أو اللف : « النشـــر » وهو ﴿ **لتسكنوا فيه ولتبتغـــوا من فضله** ﴾ وذكره كما ترى بدون تعيين ثقة بأن السامع يدرك ما لكل ويرده إليه ، فهو يدرك أن السكن لليل وأن ابتغاء الفضل يكون نهاراً .. فإذا عين النشر وحدد كان مـــن التقسيم الآتى بيانه لا من اللف والنشر .

وجه تسميته : ووجه تسمية هذا النوع من البديع باللف والنشر ، أن المتعدد المذكور على جهة التفصيل أو الإجـــمال ، قد انطوى فيه حكمه لأنه اشتمل عليه من غير تصريح به ، ولذا سمى « لفا » أو « طيا » فلما صرح بعد ذلك بالحكم المطوى ، كان كأنه نشر وإبراز له ولذا سمى « نشرا » .

أنواعه : ويتضح من التعريف أن اللف والنشر نوعان :

الأول : أن يكون المتعدد مذكورا على جهة التفصيل وهذا النوع ضربان :

أولهما : أن يكون النشر على ترتيب اللف ، كما فى الآية السابقة وكما فى قول امرىء القيس :

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً ... لدى وكرها العناب والحشف البالى

فقد ذكر متعددا على جهة التفضيل : « رطباً ويابساً » ، ثم ذكر ما لكل مرتبـــاً ، فالعناب يرجع للقلوب الرطبة والحشف البالى يرجع للقلوب اليابسة .

ومنه قول ابن الرومى :

---

(١) سورة القصص آية ٧٣ .

آراؤكم ووجوهكم وسيوفكم ... في الحادثات إذا دجون نجوم

فيها معالم للهدى ومصابح ... تجلو الدجى والأخريات رجوم[1]

فقد ذكر متعددا : ((آراؤكم ووجوهكم وسيوفكم)) على جهة التفصيل ثم ذكر ما لكل على الترتيب : فمعالم للهدى ترجع للآراء ، ومصابح ترجع للوجوه ، ورجوم ترجع للسيوف ، ولا يقدح في هذا تعيين ما يرجع للسيوف بقوله : ((والأخريات)) لأن الأول والثاني بلا تعيين ، كما لا يخفى ..

ثانيها : أن يكون النشر على غير ترتيب اللف ، كما في قوله تعالى : ﴿ **وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة** ﴾[2]

فقد جمعوا في دعائهم بين أمري الدنيا والآخرة وقدموا ما للآخرة : ﴿ **اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا** ﴾ وأخروا ما للدنيا :﴿ **وثبت أقدامنا وانصرنا** ﴾ . ، وهذا متعدد ثم جاء النشر على غير ترتيب اللف حيث قدم ثواب الدنيا على ثواب الآخرة ، ولعل السر في ذلك يرجع إلى أن المقام مقام جهاد وقتال والنفوس في هذا المقام متطلعة للنصر ... وقد خص ثواب الآخرة بالحسن دون ثواب الدنيا إيذانا بأنه المعتد به عند الله عز وجل ..

ومن هذا الضرب قول ابن حيوس :

كيف أسلو وأنت حقف وغصن ... وغزال لحظا وقدا وردفا[3]

---

(١) دجون : أظلمن . والمعالم : جمع معلم وهو ما يستدل به على الطريق والدجى ، جمع دجية وهي الظلمة . والرجوم ، الشهب .

(٢) سورة آل عمران ١٤٧ ، ١٤٨ .

(٣) الحقف : مجتمع الرمل إذا عظم واستدار ، والردف : العجيزة وقد شبه الشاعر المرأة بالحقف والغصن والغزال .

فاللف هو : ((حقف وغصن وغـــزال)) والنشـــر ، ((لحظـــا)) ويرجـــع إلى غـــزال ((وقدا)) ويرجع إلى الغصن ، و ((وردفا)) ويرجع إلى الحقف وواضح أن النشر علـــى غير ترتيب اللف .

وقول الفرزدق :

لقد خنت قوما لو لجـــأت إليهـــم ... طريد دم أو حـــاملاً ثقـــل مغـــرم

لألفيت فيهم معطيـــــا أو مطاعنـــا ... وراءك شزرا بالوشــــيج المقـــوم[1]

فاللف : ((طريد دم أو حاملا ...)) والنشر ((معطيا)) ويرجع إلى ((حاملا ثقـــل مغرم)) و ((مطاعنا)) ويرجع إلى ((طريد دم)) وهو على غير ترتيب اللف .

الثانى : أن يكون المتعدد مذكوراً على جهة الإجمال .

كما فى قوله تعالى : ﴿ **إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم مـــن خـــلاف أو ينفـــوا مـــن الأرض ..** ﴾[2] فقد ذكر متعدد على جهـــة الإجمـــال فـــى قولـــه : ﴿ **يحـــاربون الله ورسوله** ﴾ إذ المحاربة تشمل : القتل أو أخذ المال أو الإخافة أو الجمع بين القتل وأخـــذ الأموال ، أو بين أخـــــذ الأمـــوال والإخافـــة ، فـــأجمل كـــل ذلـــك فـــى قولـــه : ﴿ **يحاربون الله ورسوله** ﴾ ، **ثم جاء النشر** : ﴿ **أن يقتلوا** ﴾ إذ كانت المحاربـــة قتـــالاً فقط ، ﴿ **أو يصلبوا** ﴾ أى مع التقتيل إذا جمعوا فى المحاربة بين القتل وأخـــــذ المـــال : ﴿ **أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف** ﴾ ، إذا جمعوا بين أخذ الأموال والإخافـــــة ، ﴿ **أو ينفوا من الأرض** ﴾ إذا كانت المحاربة إخافة فقط .. وكذا قولـــــه عـــز وجـــل : ﴿ **وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلـــــك أمـــانيهم قـــل هـــاتوا**

---

(١) الخطاب لهبيرة بن ضمضم ، طريد دم : كناية عن القتل ، و الثقل: الحمل الثقيـــل - وشـــزر : طعنه عن يمينه وشماله . و الوشيج : شجر الرماح .

(٢) سورة المائدة آية ٣٣ .

برهانكم ﴾[1] فالضمير فى ﴿ **قـــالوا** ﴾ يرجع لأهل الكتاب من اليهـــود والنصـــارى والمعنى : وقالت اليهود : لن يدخل الجنة إلا من كان هودا ، وقالت النصارى : لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى ، فلف القولين وجمعهما فى الضمير ﴿ **قالوا** ﴾ علـــى جهـــة الإجمال ثم ذكر النشر : ﴿ **هوداً أو نصارى** ﴾ بدون تعيين ثقـــة بأن السامع يـــرد إلى كل فريق قـــوله لمـــا علم من التعادى بين الفريقين وتضليل كل واحد منهما لصاحبه.. وهذا النوع من اللف والنشر لا يقتضى ترتيباً أو عدم تريب ، لأن اللف مجمـــل لايعلـــم ترتيبه حتى ننظر فى ترتيب النشر على ضوئه .

بلاغة اللف والنشر : وبلاغة اللف والنشر تكمن فى أن ذكر اللف مطويـــاً فيـــه حكمه أو ما يتعلق به ، يهيىء النفوس ويعدها لتلقى ما يذكر بعد من النشر العـــائد إلى اللف ، فإذا ما ذكر النشر بعدئذ وقع فى النفوس موقعه ، وتمت الفائدة أحسن تمام وتحقق الغرض أبلغ تحقيق ، لأن النشر جاء والنفوس إليه متطلعة وله مترقبة ...

★ ★ ★

---

(١) سورة البقرة آية ١١١ .

التقسيم

التقسيم فن من فنون البديع ، وهو يرد فى الكلام على عدة صور تختلف كل صورة منها عن الأخرى ، و أهم هذه الصور ما يلى :

١- استيفاء المتكلم جميع أقسام المعنى الذى هو آخذ فيه بحيث لا يترك منها قسماً محتملاً ... كما في قوله تعالى : ﴿ **ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله** ﴾[1] ، فالآية قد استوفت جميع الأقسام التى يمكن أن يكون عليها العباد ، فهم إما ظالم لنفسه أو مقتصد أو سابق بالخيرات ، وليس هنالك قسم رابع ... ومن لطيف ذلك قوله عز وجل : ﴿ **هو الذى يريكم البرق خوفاً وطمعاً** ﴾[2] ، فليس فى رؤية البرق إلا الخوف من الصواعق والطمع فى الأمطار ، ولا ثالث لهذين القسمين .. وقد قدم الخوف على الطمع لأن الصواعق تقع من أول برقة أما المطر فلا يحصل إلا بعد توافر البرقات ولذا كانت العرب تعد سبعين برقة وتنتجع فلا تخطئ الغيث والكلأ ، وإلى هذا أشار المتنبى بقوله :

وقد أرد المياه بغير هاد ... سوى عدى لها برق الغمام

فلما كان الأمر المخوف من البرق يقع من أول برقة ، قدم ذكر الخوف ولما كان الأمر المطمع منه يأتى ناسخاً للخوف ومبدداً له ، أخر ذكر الطمع ليكون الفرج بعد الضيق واليسر بعد العسر والأمن بعد الخوف ، فما من ريب فى أن هذا يكون أوقع فى النفوس وأبلغ ، حيث تطمئن بالبشرى وبحسن العاقبة ...

ومنه قوله تعالى : ﴿ **لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ويجعل من يشاء عقيماً** ﴾[3] فقد

---

(١) سورة فاطر آية ٣٢ .

(٢) سورة الرعد آية ١٢

(٣) سورة الشورى آيتا ٤٩ ، ٥٠ .

استوفت الآية الكريمة جميع أقسام المعنى ، فالله عز وجل إما أن يهب الإناث أو يزوج العباد ذكوراً و إناثاً أو يهب الذكور أو لا يهب شيئاً .. وليس هنالك قسم آخر ... ومن دقائق التعبير فى الآية الكريمة أن الأقسام وقعت على ترتيب البلاغة وهى الانتقال من الأدنى إلى الأعلى ، فقدم هبة الإناث وتلاها بهبة الذكور فهبة الإناث والذكور ثم الحرمان ...وقد أخر الحرمان وقدمت أقسام الهبة لأن إنعام الله وتفضله على عباده أولى بالتقديم ... كما عبر عن العطاء والتفضل بلفظ الهبة وعبر عن الحرمان بلفظ الجعل لتأتى الألفاظ ملائمة للمعانى . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ **إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم** ﴾ [(١)] فلم تترك الآية الكريمة قسماً من أقسام الهيئات إلا أتت به ، ومثله قوله عز وجل : ﴿ **وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً** ﴾[(٢)] . ونلاحظ تغايراً فى ترتيب الأقسام فى الآيتين وهذا التغاير قد اقتضاه المعنى ، إذ الآية الأولى تتحدث عن الذكر وهو - والله أعلم - الصلاة ، والقيام فيها واجب على القادر ويليه القعود عند العجز عن القيام ثم الاضطجاع عند العجز عن القعود ..

أما الآية الثانية فتتحدث عن الضر الذى يمس الإنسلت وفيه يقدم الاضطجاع عند العجز عن القعود ..

أما الآية الثانية فتتحدث عن الضر الذى يمس الإنسان وفيه يقدم الاضطجاع ثم يليه القعود عند زوال بعض الضر ، فإذا زال الضر كله كان القيام ، وبهذا قد حسن تريب الأقسام فى كل آية وتحقق ائتلاف الألفاظ وملاءمتها للمعنى ...

ومن التقسيم فى الأحاديث النبوية قول الرسول ﷺ : " ليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت " ولا رابع لهذه الأقسام .

---

(١) سورة آل عمران آيتا ١٩٠ ، ١٩١ .

(٢) سورة يونس آية ١٢

ومنه ما حكى أن أعرابياً وقف على حلقة الحسن البصرى فقال : ((رحم الله من تصدق من فضل أو آسى من كفاف أو آثر من قوت)) ، فقال الحسن : ما ترك لأحد عذراً ... ومن استيفاء الأقسام فى أشعارهم :

قول زهير بن أبى سلمى :

وأعلم علم اليوم والأمس قبله ولكننى عن علم ما فى غد عمى

فقد استوفى جميع الأزمنة التى يتوجه إليها العلم ...

وقوله :

فإن الحق مقطعه ثلاث يمين أو نفار أو جلاء
فذلكم مقاطع كل حق ثلاث كلهن لكم شفاء

روى أن عمر - رضى الله عنه - قد أعجب بالتقسيم فى البيت الأول من البيتين وكان يردده متعجباً: ((يمين أو نفار أو جلاء)) كما كان يقول ((لو أدركت زهيراً لوليته القضاء لمعرفته)) ... وكان - رضى الله عنه - يتعجب من استيفاء الأقسام فى بيت عبدة بن الطبيب :

والمرء ساع لأمر ليس يدركه والعيش شح وإشفاق وتأميل

وكان يردده متعجباً ومعجباً : ((والعيش شح وإشفاق وتأميل))

ومن ذلك قول نصيب :

فقال فريق القوم لا وفريقهم نعم وفريق قال : ويحك ماندرى

فليس فى أقسام الإجابة غير ما ذكر ..

وقول عمر بن أبى ربيعة :

فهبها كشىء لم يكن أو كنازح به الدار أو من غيبته المقابر

فلم يبق مما يعبر به عن إنسان مفقود قسماً إلا أتى به فى هذا البيت

٢- ومن صور التقسيم : ذكر أحوال الشىء مضافاً إلى كل حال ما يلائمها ويليق بها ... كما فى قول أبى الطيب :

بدت قمـــرا ومالت خـــوط بـــان   وفاحت عـــنبرا ورنت غـــــزالا

فقد ذكر أحوال صاحبته مضيفاً إلى كل حال ما يلائمها .

وقوله أيضًا :

سأطلب حقى بالقنـــــا ومشايـــخ   كأنهـــــم من طول ما التثموا مرد

ثقـــال إذا لاقوا خفـــاف إذا دعوا   كثير إذا شـــدوا قليل إذا عدوا (١)

فقد ذكر أحوال المشايخ مضافاً إلى كل حال ما يلائمها ويليق بها .

ومنه قول الآخر :

سفـــــــرن بدورا وانتقبن أهـــلة   ومسن غصونا والتفتن جـــآذزا (٢)

فقد ذكر أحوال فتياته مضافاً إلى كل حال ما يلائمها ... وقول زهير :

يطعنهم ما ارتموا حتى إذا اطعنوا   ضارب حتى إذا ما ضاربوا اعتنقـــا

فقد ذكر أحوال ممدوحه مضيفاً إلى كل حال ما يلائمها ويبين أن الممدوح يفـــــوق أعداءه ويتقدم عليهم فى القتال .... وقول طريح الثقفى :

إن يعلموا الخير يخفوه وإن علموا   شـــراً أذاعوا وإن لم يعلموا كذبوا

فقد ذكر أحوالهم مضيفا إلى كل حال ما يلائمها فى الكشف عن حقيقة أمرهم ومنه قول على – رضى الله عنه وكرم الله وجه – : ((أحسن إلى من شئت تكن أميره واستغن عمن شئت تكن نظيره واحتج إلى من شئت تكن أسيره ....

٣– ذكر متعدد ثم إضافة ما لكل إليه على التعيين ، وهذه الصورة من صور التقسيم تختلف عن اللف والنشـــر فى أن ما يضاف إلى المتعـــدد معين وهو فى اللف والنشـــــر

---

(١) القنا : الرماح ، والمرد : جمع أمرد وهو الشاب الذى لم تنبت لحيته .

(٢) سفرن : كشفن وجوههن. وانتقبن: لبسن النقـــاب وعندئذ تبدو الحواجـــــب مقوســـة مثـــل الأهلة... ومسن تبخترن فى مشيهن.

غير معين - كما مر - .. ومن شواهد هذه الصورة قوله تعالى : ﴿ **كذبت ثمود وعاد بالقارعة . فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية . وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية** ﴾ [1].

فقد ذكر متعدد وهو تكذيب ثمود وعاد ثم أضيف إلى كل ماله وما حاق به من العذاب على وجه التعيين ... ومنه قول القائل :

ولا يقيم على ضيم يراد به ... إلا الأذلان : عير الحي والوتد

هذا على الخسف مربوط برمته ... وذا يشج فلا يرثى له أحد

فقد أضاف إلى ((عير الحى)) الربط على الخسف والذل ، وإلى الوتد الشج وهذه الإضافة على وجه التعيين لأن هذا اسم إشارة للقريب وذا للأقرب ، ولأن ((على الخسف مربوط)) تتعين للحمار فهو الذى يذل ويربط وقوله : ((يشج)) متعينة للوتد إذ هو الذى يدق ..

عيوب التقسيم : والتقسيم إذا استوفى جميع أقسام المعنى دون أن تتداخل الأقسام أو تتكرر فهو التقسيم الجيد .. أما إذا لم يستوف المتكلم كل أقسام المعنى الذى هو بصدد الحديث عنه أو أدخل بعض الأقسام في بعض أو كرر بعضها كان التقسيم معيبا ... فمن الأول قول جرير يهجو بنى حنيفة :

صارت حنيفة أثلاثا فثلثهم ... من العبيد وثلث من مواليها

فقد ذكر أنهم صاروا ثلاثة أقسام ثم صرح بقسمين وسكت عن القسم الثالث ، ولذا يقال إن جريرا أنشد هذا البيت ورجل من بنى حنيفة حاضر ، فسأله بعض الحاضرين : من أى قسم أنت ؟ فقال من الثلث الملغى ذكره ... ولعل الثلث الثالث الذى تركه جرير هم الأشراف ، وقد سكت عنه جرير ؛ لأن المقام مقام هجاء يقتضى حذفه وطيه .. ومن الثاني قول جميل يخاطب بثينة :

لو كان فى قلبى كقدر قلامة ... حبا وصلتك أو أتتك رسائلى

فإتيان الرسائل داخل فى الوصل ... ولو قال : لزرتك أو أتتك رسائلى لصح المعنى واستقام التقسيم ، ومثله قول بعضهم يصف قوما بعد معركة : ((فهم ما بين جريح

(١) سورة الحاقة ٤ - ٦ .

مضرج بدمائه وهارب يلتفت إلى ورائه » لأن الجريح قد يكون هارباً ، فالقسمان متداخلان ، ولو قال فهم ما بين قتيل مضرج بدمائه وهارب لصح المعنى واستقام التقسيم ، ... وكذا قول الآخر : « الناس ثلاثة : عاقل وأحمق وفاجر » ، لأن الفاجر قد يكون أحمق وقد يكون عاقلاً ، إذ العاقل يجوز أن يكون فاجراً وكذا الأحمق ، فالأقسام متداخلة والقسمة فاسدة ...

ومن الثالث وهو تكرار الأقسام قول أمية بن أبى الصلت :

لله نعمتنا تبارك ربنا رب لأنام ورب من يتأبد[1]

فمن « يتأبد » أى يتوحش داخل فى الأنام ، ولذا فسد التقسيم من أجل التكرار والتداخل ...

ومثله قول الآخر :

فما برحت تومى إلى بطرفها وتومض أحيانا إذا طرفها غفل

لأن تومىء بطرفها وتومض بمعنى واحد .

★ ★ ★

(١) الأنام : الخلق .. ويتأبد: يتوحش .

الجمـــــع

هو أن يجمع بين أمرين مختلفين أو أكثر فى حكم واحد كما فى قوله تعالى :

﴿ **المال والبنون زينة الحياة الدني** ﴾[1] ، فقد جمع المال والبنون فى كونهمـــا زينـــة الحياة الدنيا .. وقوله عز وجل : ﴿ **إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس مـــن عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون** ﴾ [2] فقـــد جمعت هذه الرذائل فـــى كونهـــا رجس من عمل الشيطان . وقوله عز وجل : ﴿ **الشمس والقمـــر بحســـبان والنجـــم والشجر يسجــــدان** ﴾[3] . جمع بين الشمس والقمر فى الحسبان أى الحساب الدقيق ، وبين النجم والشجر فى السجود أى الانقيـــاد لإرادة الله .. ومنه قول النبى ﷺ : "من أصبح آمناً فى ســـربه ، معافى فى بدنـــه ، عنده قوت يومه ، فكأنمـــا حيزت له الدنيا بحذافيرها ... "[4] ، فجمع الأمن ومعافاة البدن وقوت اليوم فى حكم واحد وهو حيازة الدنيا بحذافيرها ... ومن أقوالهم قول أبى العتاهية :

إن الشباب والفـــراغ والجـــدة ... مفســـدة للمرء أى مفســـدة[5]

فقد جمع الشـــباب والفراغ والجدة فى حكم واحد وهو كونها مفســـدة للمـــرء أى مفســـدة ....

وقول ابن وهيب :

ثلاثـــة تشـــرق الدنيـــا ببهجتهـــا ... شمس الضحى وأبو إسحاق والقمـــر

---

(١) القنا : سورة الكهف آية ٤٦ .

(٢) سورة المائدة آية ٩٠ .

(٣) سورة الرحمن الآيتان ٥ ، ٦ .

(٤) السرب : يطلق على النفس وعلى الجماعة من النساء والبقر وغيرهما والجمع : أسراب .. والحذافير : النواحى واحدها حذفار ....

(٥) الجدة : الاستغناء بالمال . وأى مفسدة : بمعنى كاملة الفساد .

فقد جمعت هذه الأمور الثلاثة شمس الضحى وأبو إسحاق والقمر فى كونها تشـــرق الدنيا ببهجتها ... وقول الآخر :

آراؤه وعطايـــاه ونعمتـــــه وغفوه رحمة للناس كلهـــــم

فقد جمع آراءه وعطاياه ونعمته وعفوه فى حكم واحـــد وهو كونها رحمـــة للنـــاس كلهـــم ...

★ ★ ★

التفريق

والتفريق عكس الجمع فهو إيقاع تباين بين أمرين من نوع واحد في المدح أو غيره ... كما في قول الوطواط :

ما نوال الغمام وقت ربيع … كنوال الأمير يوم سخاء

فنوال الأمير بدرة عين … ونوال الغمام قطرة ماء(١)

فقد أوقع الشاعر تباينا بين العطاءين : عطاء الأمير وعطاء الغمام وهما من نوع واحد أي : مطلق عطاء ، وغايته من هذا التفريق أن يفضل عطاء الممدوح على نوال الغمام .. ومثله قول الوأواء الدمشقي :

من قاس جدواك بالغمام فما … أنصف في الحكم بين شكلين

أنت إذا جدت ضاحك أبدا … وهو إذا جاد دامع العين(٢)

فقد فرق بين العطاءين وهما من نوع واحد ليفضل عطاء الممدوح وعلل ذلك تعليلاً حسناً فالممدوح ضاحك عند العطاء لأنه محب للجود يعطي عن طواعية واختيار ، والغمام عند عطائه دامع العين وكأن هناك قوة تدفعه إلى العطاء على غير إرادة منه .. ومنه قول الآخر :

قاسوك بالغصن في التثني … قياس جهل بلا انتصاف

فذاك غصن الخلاف يدعى … وأنت غصن بلا خلاف(٣)

فقد فرق بين أمرين من نوع واحد وهما صاحبته والغصن فهما من نوع واحد في التثني على التشبيه ، واتخذ من تسمية الغصن خلافا ركيزة للتفريق وهدفه من هذا

---

(١) النوال : العطاء . والبدرة : كيس فيه ألف دينار أو عشرة آلاف درهم، والمراد بالعين : المال ....

(٢) الجدوى : العطية ، والشكلان : تثنية شكل بمعنى مثل .. وجاد : أعطى ...

(٣) الخلاف : شجر الصفصاف وتشبه به المرأة في التثني واعتدال القامة .

التفريق تفضيل قوام صاحبته على غصن الخلاف لأن الأخير تنفر النفـــس منـــه لاسمـــه (الخلاف) أما الأول وهو قوام صاحبته فغصن بلا خلاف ولا شك ، ونلاحـــظ أن بـــين (الخـــلاف) و (خـــلاف) فى البيت الثانى جناس تام . ومن ذلك قول صفى الدين الحلى فى مدح المصطفى ﷺ :

فجـــود كفيه لم تقلع سحائبه عن العباد وجوب السحب لم يدم

فجود كفيه - عليه الصلاة والسلام - وجود السحاب من نوع واحد وهو مطلق جود ، وقد فرق بينهما الشاعر و أوقع تبايناً معللاً تعليلا حسناً ، وهو أن جود كفيـــه - عليه الصلاة والسلام - متصل ودائم على العباد ، لا تقلع سحائبه ، أما جود الســـحب فهو

منقطع غير دائم .. وغايته من ذلك ترجيح وتفضيل جـــود كفى الرســـول - ﷺ - على جود السحب .

★ ★ ★

الجمع مع التفـــرق

هو أن يجمع بين شيئين فى حكم واحد ويفرق بين جهتى الجمع ... كما فـــى قولـــه تعالى : ﴿ **وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونـــا آيـــة الليـــل وجعلنـــا آيـــة النهـــار مبصرة** ﴾[1] . فقد جمع بين الليل والنهار فى حكم واحد وهو كونهما آيتين ودليلين على قـــدرة الله وحكمته ، ثم فرق بين جهتى الجمع فالليـــل يكون مظلماً والنهـــار يكـــون مضيئاً .. ومنه قول رشيد الدين الوطواط :

فوجهـــك كالنـــار فـــى ضوئهـــا　　　وقلبـــى كالنـــار فـــى حرهـــا

حيث جمع بين وجه حبيبه وقلب نفسه فى حكم واحدوهو تشبيههما بالنار ، ثـــم فرق بينهما من جهة وجه الشـــبه ، فجعله فى وجه الحبيب : الضوء واللمعـــان، وفـــى القلب : الحرارة و الاحتراق .

ومثله قول الآخر :

تشـــابه دمعانـــا غـــداة فراقنـــا　　　مشـــابهة فـــى قصـــة دون قصـــة

فوجنتها تكســـو المدامـــع حمـــرة　　　ودمعى يكسو حمرة اللون وجنتـــى

فقد جمع بين الدمعين وقت الفراق فى التشابه ثم فرق بينهما من جهة اللون ، فدمع الحبيبة أبيض يكسوه خدهـــا حمرة ، ودمعه أحمر لأنه يبكى دماً وجسده قـــد شـــحب واصفر من العشق ، فإذا جرى دمعه على خده صيره أحمر ..

---

(١) سورة الإسراء آية ١٢ .

ومنه قول البحترى :

ولما التقينـــا والنقــا موعــد لنــا   تعجب رائى الدرر منـــا ولا قطــه

فمن لؤلؤ تجلوه عنــــد ابتســامتها   ومن لؤلؤ عند الحديـــث تســاقطه

جمع البحترى بين رائى الدر ولا قطه فى حكم واحد وهو التعجب منهما ، ثم فرق بين الرائى واللا قط من جهة التعجب ، فــرائى الدر تعجب من ثناياها اللؤلؤيـــة التـــى بدت عند ابتسامتها ، ولا قط الدر تعجب من كلمات تنفرج عنها شفتاها عند الحديـــث وتتساقط من فمها ، فيلتقطها وكأنها اللؤلؤ قيمة ونفاسة .

★ ★ ★

الجمـــع مع التقسيم

وهو جمع متعدد تحت حكم واحد ثم تقسيمه أو تقسيمه ثم جمعــه تحــت حكـــم واحد ... فمن الأول قول المتنبى يمدح سيف الدولة و يصف الروم عندما غزاهم .

حتى أقام علـــى أربـــاض خرشـــنة — تشقى به الروم والصلبان والبيـــــع

للسبى ما نكحوا والقتل ما ولـــدوا — والنهب ما جمعوا والنار ما زرعوا[(١)]

فقد جمع الروم وهو متعدد لأنه يريد نساءهم وأولادهم وأموالهم وزرعهم ، جمـــــع هذه الأمور تحت حكم واحـــد وهو الشقاء ثم قسم ذلك الحكم إلى سبى وقتل ونهـــب وإحراق ورجع إلى كل قسم منها ما يلائمه ويوافقه . ومثله قول صفى الدين الحلى :

أبادهم فلبيت المـــال مـــا جمعـوا — والروح للسيف والأجساد للرُّخم[(٢)]

حيث جمع المتمردين على السلطان متمثلين فى أموالهم وأرواحهم وأجسادهم تحت حكم واحد وهو الإبادة ثم قسم هذا الحكم إلى المال والروح والأجساد مضيفاً إلى كـــل قسم ما يناسبه ويلائمه .

ومن الثانى قول حسان بن ثابت – رضى الله عنه :

قوم إذا حاربوا ضــــروا عدوهمـــو — أو حاولوا النفع فى أشياعهم نفعوا

سجية تلـــك فيهـــم غـــير محدثـــة — إن الخلائق فاعلم شرها البـــدع[(٣)]

حيث قسم صفة الممدوحين إلى ضر الأعداء فى الحروب ونفع الأشياع والأولياء . ثم جمعها فى البيت الثانى حيث قال : سجية تلك فيهم غير محدثة .

---

(١) الأرباض : جمع ربض وهو ما حول المدينـــة ، وخرشنة : بلدة بالروم تسمى أماضية والبيــــع : جمع بيعه وهى معبد النصارى وقال : ((ما نكحوا وما ولدوا)) . مع أن ((ما)) لغير العـــاقل إهانة لهم وملاءمة لما بعدهما أى : ((ما جمعوا وما زرعوا)) .

(٢) الرخم : الطيور ، مفردها رخمة .

(٣) أشياع : أتباع وسجية : طبيعة .

ومنه قول إبراهيم الصولى :

لو أن ما أنتم فيـــه يـدوم لكــم ظننت ما أنــا فيــه دائمــا أبــدا

لكن رأيت الليـــالى غــير تاركــة ما سر من حادث أو ساء مطـــردا

فقــد ســكنت إلى أنــى وأنكــم سنستجد خــلاف الحــالتين غــدا

فقد قسم الأحــداث إلى قسمين : أحداث تسر وأحداث تسىء ، ثم جمعهم فــى قوله : ((خلاف الحالتين)) .

★ ★ ★

الجمع مع التفريق والتقسيم

وهو الجمع بين شيئين أو أشياء فى حكم واحد ، ثم التفريق بينهما أو بينها فى ذلك الحكم ثم التقسيم بين ما فرق بأن يضاف إلى كل ما يلائمه ويناسبه .. ومن شواهده .

قوله تعالى : ﴿ **يوم يأتى لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقى وسعيد فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق .خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد . وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ** ﴾(١).

فقد جمع النفوس فى قوله جلا وعلا : ﴿ **لا يكلم نفس** ﴾ لأن النكرة فى سياق النفى تعم ، ثم فرق فجعل البعض شقيا والبعض سعيدا ، ثم قسم بأن أضاف إلى الأشقياء ما لهم من عذاب النار وإلى السعداء ما لهم من نعيم الجنة .

ومنه قول ابن شرف القيروانى :

لمختلفى الحاجات جمع ببابه ... فهذا له فن وهذا له فن

فللخامل العليا وللمعدم الغنى ... وللمذنب العتبى وللخائف الأمن (٢)

حيث جمع مختلفى الحاجات فى حكم واحد وهو اجتماعهم أمام بابه .. ثم فرق بأن جعل لكل واحد منهم حاجة خاصة ... ثم عاد فقسم بأن أضاف إلى كل واحد منهم ما يناسبه ويلائمه : فللخامل العليا وللمعدم الغنى وللمذنب العتبى وللخائف الأمن .

وقول الآخر :

---

(١) سورة هود آية ١٠٥ - ١٠٨ .

(٢) الفن : النوع أو الحال أو الحاجة ، و الخامل : الكسول والمراد من لا شأن له ... والعتبى : الإرضاء .

وكالنار ضوءاً وكالنار حراً محيا حبيبي وحرقة بالي
فذلك من ضوئي في اختيال وهذا لحرقته في اختلال

فقد جمع محيا حبيبه وحرقة باله في حكم واحد وهو تشبيههما بالنار ثم فرق بينهما من جهة وجه الشبه فهو في محيا الحبيب الضياء والنور وفي حرقة باله اللهيب والتوقد ... ثم قسم بأن أضاف إلى كل منهما ما يناسبه ويلائمه ، فالحبيب من ضوئه في اختيال وهو من حرقته في اختلال .

★ ★ ★

تجاهل العارف

عرفه البلاغيون بأنه : ((سوق المعلوم مساق غيره لنكتة)) ... ولورود هذا اللون فى أساليب القرآن الكريم فقد عدل السكاكى عن تسميته : ((تجاهل العارف)) ، وسماه ((سوق المعلوم مساق غيره)) وذلك تأدباً مع أساليب القرآن الكريم وتنزيهاً لله عز وجل عن تلك اللفظة : ((تجاهل)) وتلك نظرة دقيقة من السكاكى رحمه الله فينبغى أن تتخير وتنتقى أسماء المصطلحات بحيث لا تتنافى مع أساليب النظم الكريم، و يكون إطلاقها على تلك الأساليب مقبولا ومستساغا .. من ذلك قوله تعالى :﴿**وما تلك بيمينك يا موسى . قال : هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى** ﴾(١) . فالله عز وجل يعرف حقيقة ما بيد موسى - عليه السلام - إذ هو سبحانه وتعالى عليم بكل شيء ، و لكنه - تعالى - ساق المعلوم مساق غير المعلوم لنكتة بلاغية وهى : التأنيس ورفع الهيبه والتنبيه إلى أن تلك العصا سيكون لها شأن عظيم ، فهى عما قليل ستكون حية تسعى فثعبانا مبينا ، من أجل هذا سأل عز وجل عنها وساق المعلوم مساق غيره ..

وتتعدد النكات والأسرار البلاغية التى من أجلها يساق المعلوم مساق غير المعلوم ولكن أهمها :

١ - التحقير : كقوله تعالى : ﴿ **وقال الذين كفروا : هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفى خلق جديد** ﴾(٢) ، فالمشركون يعلمون من هو محمد - صلى الله عليه وسلم - إذا هو الصادق الأمين كما سموه قبل البعثة ، ولكنهم ساقوا المعلوم

(١) سورة طه : آية ١٧ ، ١٨ .

(٢) سورة سبأ : الآية ٧

مساق غيره وكأنهم لا يعرفون عنه -صلى الله عليه وسلم- سوى أنه رجل ما ، ومرادهم بذلك التحقير والحط من شأن المصطفى ﷺ .

٢- التقرير : كقوله تعالى : ﴿ **قالوا : أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ؟** ﴾[١] ، وقوله عز وجل : ﴿ **وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله** ﴾[٢] . فالغرض من الاستفهام فى الآيتين هو التقرير ، لأن السائل عالم بالمستفهم عنه ... وهذا شأن أساليب الاستفهام القرآنى التى أفادت معانى بلاغية .. [٣] .

٣ - التعريض ، كما فى قوله تعالى : ﴿ **قل من يرزقكم من السموات والأرض قل الله وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين** ﴾ [٤] ، فالله أعلم ورسوله بمن هو على هدى ومن هو فى ضلال ، وقد سبق الكلام هذا المساق للتعريض بعدم هداهم ، وفيه فائدة أخرى وهى استمالة هؤلاء الكفرة وحثهم على التأمل والنظر حتى يصلوا إلى وجه الحق والصواب فيكون ذلك أدعى لهدايتهم وإيمانهم ...

٤ - التوبيخ : كقول ليلى بنت طريف فى رثاء أخيها وكان من الخوارج فقتل فى عهد هارون الرشيد :

أيا شجر الخابور مالك مورقا   كأنك لم تجزع على ابن طريف[٥]

فهى تعلم أن الشجر لا يجزع ولكنها تجاهلت ذلك فوبخت الشجر لإيراقه ونضرته وعدم جزعه على أخيها ، وفى هذا تعريض بغيره من العقلاء وتوبيخ لهم على عدم جزعهم ...

٥ - المبالغة فى الذم والهجاء : كقول زهير بن أبى سلمى :

وما أدرى - وسوف إخال أدرى -   أقوم آل حصن أم نساء[٦]

---

(١) سو رة الأنبياء آية ٦٣ .

(٢) سورة المائدة آية ١١٦ .

(٣) انظر الجزء الثانى من كتابنا علم المعانى باب الاستفهام .

(٤) سورة سبأ آية ٢٤ .

(٥) الخابور : نهر بديار بكر ، و ابن طريف : أخوها الوليد وقد قتله يزيد بن مزيد الشيبانى فى عهد هارون الرشيد .

فهو يعلم أن آل حصن رجال ، و لكنه تجاهل تلك المعرفة للمبالغة فى ذمهم وإفادة أنهم بلغوا فى الضعف مبلغاً يحصل معه ذلك اللبس ، و الشك فى كونهم رجالا ، ولـــذا قال وسوف إخال أدرى ، أى : سأعلم فى المستقبل إن كانوا رجالا أم نساء ...

٦ - المبالغة فى المدح والثناء : كما فى قول البحترى :

ألمــع برق سرى أم ضوء مصباح　　　أم ابتسامتها بالمنظر الضاحــى(١)

فهو يعلم أن الذى ظهر هو ابتسامتها ، ولكنه تجاهل ذلك للمبالغة فـــى مدحهـــا ، و إفادة أنها بلغت فى الحسن مبلغـــا يحصـــل معـــه ذلـــك اللبـــس ... ومثلـــه قـــول النابغة الذبيانى :

ألمحة من ســـنا برق رأى بصـــرى　　　أم وجـــه نعم بـــدالى أم ســـنانار

٧- التدله فى الحب : كما فى قول العرجـــى :

بالله يا ظبيات القـــاع قلن لنـــا　　　ليلاى منكن أم ليلى من البشر(٢)

فهو يعلم أن ليلاه من البشر ، و لكنه لفرط حبه وشدة هيامه وقوة صبابته ، تجـــاهل تلك المعرفة ، وساق الكلام مساق من لا يعلم أنها من البشر ، وكأن الحب قد أدهشـــه وسلب عقله فصار لا يدرى : أليلاه من البشر أم من الظبيات ... ومثله قول ذى الرمة :

أيا ظبية الوعساء بين جـــلاجل　　　وبين النقـــا : أأنت أم أم سالم (٣)

فقد صار لفرط حبه وشدة غرامه بأم ســـالم ، لا يـــدرى أهـــى أم ســـالم أم ظبيـــة الوعساء ...

---

(٦) إخال : أظن ، و القوم : يطلق على الرجال خاصة وعلى ما يعم الرجال و النساء والمراد هنـــا الأول . وجملة (وسوف إخال أدرى) معترضة ؛ وإخال أيضاً اعتراض .

(١) سرى : ظهر ليلاً والمنظر الضاحى : الوجه الظاهر .

(٢) القاع : المستوى من الأرض .

(٣) الوعساء : الرابية اللينة من الرمل تنبت البقول الحارة ، و جلاجل والنقا موضعان .

تأكيد المدح بما يشبه الذم

تأكيد المدح بما يشبه الذم أسلوب يقوم على مفاجأة السامع بصفة من صفات المدح حيث كان يتوقع صفة ذم، وذلك باستخدام أداة من أدوات الاستثناء أو الاستدراك. ويتحقق التأكيد والمفاجأة بهذ الأسلوب سواء أكان المستثنى منه مثبتاً أم منفياً ، وسواء وجد المستثنى منه أم كان الاستثناء مفرغاً ، على نحو ما سترى في الشواهد ، كما يتحققان أيضاً سواء أكان الاستثناء متصلاً أم منقطعاً ، لن الأصل في الاستثناء أن يكون متصلاً ، ومثل تأكيد المدح بما يشيه الذم ، تأكيد الذم بما يشبه المدح وسيأتي الحديث عنه ، أما تأكيد المدح بما يشبه الذم فله ضربان :

أولهما : أن يستثنى من صفة ذم منفية عن الشيء صفة مدح بتقدير دخول صفة المدح المستثناة فى صفة الذم المنفية .. كقول النابغة الذبياني :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

فالعيب صفة ذم وقد نفاها الشاعر عن ممدوحيه ثم استثنى منها صفة مدح وهى : أن سيوفهم بها فلول من قراع الكتائب وذلك ينم عن شجاعتهم وكثرة قتالهم .. فهؤلاء لا عيب فيهم سوى الشجاعة ، إن كانت الشجاعة عيباً ، وكون الشجاعة عيباً محال ، فيكون ثبوت العيب لهم من المحال ... ونظيره قول ابن نباتة :

ولا عيب فيها غير سحر جفونها وأحبب بها سحارة حين تسحر

ففتاته لا عيب فيها سوى الجمال وسحر الجفون ، لو عد سحر الجفون عيباً ، وكونه عيباً محال ... ومنه قول صفى الدين الحلى :

لا عيب فيهم سوى أن النزيل بهم يسلو عن الأهل والأوطان والحشم

فكون النزيل بهم يسلو عن الأهل والوطن والحشم ليس عيباً بل هو دليل كرمهم وبرهان حسن ضيوفهم .

وقول الآخر :

ولا عيب فينا غير أن سماحنا أضر بنا والبأس من كل جانب

فأفنى الردى أعمارنا غير ظالم وأفنى الندى أموالنا غير عائب

فكون السماح والبأس أضر بهم ليس عيباً ، بل هو توكيد لنفى العيب ، ومما زاد من لطافة المعنى وجماله هذا الاحتراس البديع : ((غير ظالم ، وغير عائب)) .... ومنه قول ابن الرومى :

ليس له عيب سوى أنه لا تقع العين على شبهه

جعل انفراده بالحسن وعدم وقوع العين على شبيه له عيباً فزاد بهذا من حسنه وأكد جماله .. وقول حاتم الطائى :

وما تشتكى جارتى غير أننى إذا غاب عنها بعلها لا أزورها

سيبلغها خيرى ويرجع أهلها إليها ولم تقصر على ستورها

فشكوى الجارة صفة ذم وقد نفاها الشاعر ثم استثنى منها صفة مدح وهى أنه يحفظ جاره فى عرضه عند غيابه ، فيصل إلى تلك الجارة المال والخير وقضاء الحاجات ويرجع إليها أهلها و لم يقصر سترها عليه ، وبهذا تأكد المدح لكونه مدحاً على مدح . ومما جاء فى التنزيل من هذا الضرب قوله تعالى : ﴿ **لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً إلا قيلا**

سلاماً سلاماً ﴾[1] فما قبل إلا نفى لسماع اللغو والتأثيم و ما بعدها إثبات للتحية بالسلام وكلاهما مدح ... ومثله قوله تعالى :﴿ **لا يسمعون فيها لغواً إلا سلاماً ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً** ﴾[2] ، وفما قيل أداة الاستثناء نفى لسماع اللغو ، وما بعدها إثبات للسلام ، وكلاهما مدح وتكريم .. ومنه قوله عز وجل : ﴿ **وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا** ﴾[3] ، وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ **قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون** ﴾[4]، وقوله : ﴿ **وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد** ..﴾[5] ، فما قبل إلا فى الآيات الكريمة صفة ذم وهى : النقم بمعنى الطعن والعيب وقد جاء منفياً نفياً صريحاً أو بالاستفهام الذى أفاد النفى ، وما بعد إلا صفة مدح وهى : الإيمان بالله وآياته وما أنزل ...

الضرب الثانى : أن يثبت لشيء صفة مدح ويعقب بأداة استثناء أو استدراك تليها صفة مدح أخرى ، من ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم : " أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش "، فقد أثبت عليه الصلاة والسلام لنفسه صفة مدح وهى الفصاحة ، فلما أتى بعدها بأداة الاستثناء ((بيد)) أشعر ذلك أنه يريد إثبات وصف مخالف لما قبلها ، فلما أثبت أنه من قريش ، وقريش أفصح العرب ، كان ذلك تأكيداً للمدح بأسلوب ألف الناس سماعه فى الذم ..

ومنه قول النابغة الجعدى :

فتى كملت أخلاقه غير أنه جواد فما يبقى من المال باقيا

---

(١) سورة الواقعة آية ٢٥ ، ٢٦ .

(٢) سورة مريم آية ٦٢ .

(٣) سورة الأعراف آية ١٢١ .

(٤) سورة المائدة آية ٥١ .

(٥) سورة البروج آية ٨ .

فقد وصف بكمال الأخلاق وعقب بأداة استثناء (غير) ثم ذكر بعدها صفة مدح أخرى وهى الجود وإفناء المال فى العطاء والكرم ... وقول ابن مقرب :

وسلاب أرواح الكماه لدى الوغى ولكن مرجيه لدى السلم سـالبه

فما قبل (لكن) وصف للممدوح بالجرأة والشجاعة لدى الوغى ، وما بعد لكـن وصف آخر بالكرم وتحقيق الرجاء ... ونلاحظ أن الذى ذكر فى البيت أداة اسـتدراك وليس أداة استثناء ... ومنه قول بديع الزمان الهمذانى :

هو البـدر إلا أنه البحـر زاخـراً سـوى أنه الضرغـام لكنه الوبل

وقول الآخر :

أخـو ثقـة لا تهلك الخمر مالـه ولكنه قـد يهـلك المـال نائلـه

وجه تسمية هذا اللون : ووجه تسمية هذا اللون بتأكيد المدح بما يشبه الـذم ، أن هـذا الأسـلوب ألف الناس سـماعه فى الذم ، لأن المتكلم عندما يذكر صفـة ذم منفية أو صفة مدح مثبتة ثم يعقب بأداة اسـتثناء أو استدراك يتوقع السامع أن المسـتثنى أو المستدرك سيكون ذما ؛ لأن هذا ما قد ألفه واعتاده من مثل هذا الأسلوب ، ولكـن المتكلم يعـدل عن ذكر ما قد ألف إلى ذكر صفة مدح يؤكد بها المدح الأول ، ولهـذا سمى الأسـلوب : تأكيد المدح بما يشبه الذم ، ومثل هذا يقال فى تأكيد الذم بما يشـبه المدح ، الذى حان الحديث عنه الآن .

★ ★ ★

تأكيد الذم بما يشبه المدح

وتأكيد الذم بما يشبه المدح له ضربان أيضاً :

أولهما : أن يستثنى من صفة مدح منفية عن الشيء صفة ذم بتقدير دخول صفة الذم المستثناة فى صفة المدح المنفية ، كما فى قوله تعالى : ﴿ **لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً إلا حميماً وغساقاً** ﴾(١) فقبل إلا نفى لذوق البرد والشراب وبعدها إثبات لذوق الحميم والغساق وكلاهما ذم ... ومنه قوله عز وجل : ﴿ **فليس له اليوم ههنا حميم ولا طعام إلا من غسلين ..** ﴾(٢) ، فقبل إلا نفى لوجود الصديق الحميم والطعام الطيب وبعدها إثبات لوجود الطعام الخبيث : ﴿ **غسلين** ﴾ وكلاهما ذم ... ومنه قول الشاعر :

خـــــلا من الفضل غير أنى أراه فى الحمق لا يجارى

فقد نفى عنه الفضل بقوله : (خلا) ثم استثنى من ذلك رؤيته له منغمساً فى الحمق لا يجاريه أحد فى الحماقة .

وقول الآخر :

فإن من لا منى لا خير فيه سوى وصفى له بأخس الناس كلهم

فقبل سوى نفى الخير عنه وبعدها وصفه له بأخس الناس كلهم .

ثانيهما : أن يثبت للشيء صفة ذم ويعقب بأداة استثناء أو استدراك تليها صفة ذم أخرى .. كما فى قول القائل :

لئيم الطبــاع سوى أنه جبان يهون عليه الــهوان

أثبت له صفة اللؤم قبل سوى وصفة الجبن بعدها .

ومنه قول الآخر :

يارسولا أعداؤه أراذل النا س جميعاً لكنهم فى الجحيـــم

---

(١) سورة النبأ آية ٢٤ ، ٢٥

(٢) سورة الحاقه آية ٣٥ ، ٣٦

فقد وصفهم بأراذل الناس ثم استدرك فأثبت أنهم فى الجحيم .

بلاغة هذين الأسلوبين : وترجع بلاغة تأكيد المدح بما يشبه الذم أو الذم بما يشبه المدح إلى أمرين :

الأمر الأول : أن كلا منهما بمثابة الدعوى التى أقيم عليها الدليل والبرهان ، وذلك أن المتكلم يستدل على نفى الذم أو المدح فى الضرب الأول من كل أسلوب ، وعلى إثباتهما فى الضرب الثانى - يستدل على ذلك - بالتعليق على ما لا يكون ، ولايتحقق له وجود بحال من الأحوال ... فعندما نقول : لا عيب فيك سوى أنك شجاع ، فإننا نستدل على نفى العيب عنك بكونك شجاعاً ، و المعنى : لا عيب فيك سوى الشجاعة إن كانت الشجاعة عيباً ، وكون الشجاعة عيباً محال ، فثبوت العيب لك محال ... وعندما نقول : فتى كملت أخلاقه سوى أنه كريم ، فإننا نستدل على كمال أخلاقه بكونه كريماً، والمعنى لقد كملت أخلاقه إلا من شيء واحد وهو الكرم ينقص من كمال الأخلاق ، وكون الكرم إن كان الكرم ينقص من كمال الأخلاق محال ، فيثبت بهذا أنه متصف بكمال الأخلاق ، وكذا يقال فى تأكيد الذم بما يشبه المدح ، وما من ريب فى أن إثبات الشيء بالدليل والبرهان يكون آكد وأبلغ من إثباته مجرداً عن الدليل .

الأمر الثانى : ما فيه من المفاجأة والمباغتة للسامع ، فإن المتكلم عندما ينطق بأداة الاستثناء أو الاستدراك يتوقع السامع ويدور فى خلده أن المستثنى أو المستدرك سيكون مغايراً ومخالفاً للمستثنى منه كما هو المألوف من هذا الأسلوب وعندما يأتى المستثنى مؤكداً للمستثنى منه وعلى خلاف ما كان يتوقع السامع تكون المفاجأة و المباغتة التى تكسب المعنى طرافة وتثير فى النفس تنبيها ، وبهذا يتأكد المدح فى أسلوب تأكيد المدح ، والذم فى أسلوب تأكيد الذم .

* * *

المذهب الكلامى

الجاحظ أول من أشار إلى هذا اللون من الكلام ثم ابن المعتز الذى عده أحد الفنــون الخمسة الأساسية للبديع ، ولكنهما لم يحددا مفهومه ، بل أشارا فقط إلى أمثلته ، كقــول الفرزدق :

لكل امرىء نفسان : نفس كريمة وأخرى يعاصيها الفتى ويطيعهــا

ونفسك من نفسيك تشفع للندى إذ قل من أحرارهـــن شــفيعها

وكقول أبى نواس :

إن هذا يرى – ولا أرى للأحــ ـمــق – أنــى أعــده إنســـانا

ذاك فى الظن عنده وهو عنـــدى كالذى لم يكن وإن كـــان كانــا

وكقول إبراهيم المهدى :

البر منك وطاء العذر عنـــدك لى فيما فعلت فلم تعـــذل ولم تلــم

وقام علمك بى فاحتج عندك لى مقام شاهد عدل غـــير متهــم[1]

وعندما نتأمل هذه الشواهد نجد أن كل شاعر يدعى دعوى ثم يحاول التماس دليـــل مقنع يقيمه لها ، تماما كما يفعل المتكلمون بإيراد الحجج العقلية لدعواهم .. ولذا سمى هذا اللون من الكلام باسم ((المذهب الكلامى)) .

وقد عرفه البلاغيون بأنه : إيراد المتكلم حجة لما يدعيه على طريقة أهل الكــــلام .. أو بمعنى آخر : أن يأتى البليغ لصحة دعواه وإبطال دعوى خصمه بحجة عقليـــة قاطعــة

---

(١) الوطاء : خلاف الغطاء .

تصح نسبتها إلى علم الكلام ، إذ علم الكلام عبارة عن إثبات أصول الدين بالبراهين العقلية القاطعة ... وقد نسب ابن المعتز هذا اللون من الكلام إلى التكلف وزعم أنه لا يوجد فى القرآن منه شيء ...

والصواب أنه قد ورد فى النظم الكريم ، بل إن القرآن مليء به ، وهو فيه غير متكلف ، فالمذهب الكلامى شأنه شأن غيره من ألوان البديع ، يأتى فى الكلام بلا تكلف فيقبل ويأتى متكلفاً فيرد ، وما جاء منه القرآن الكريم فهو غيرمتكلف ومنه قوله تعالى : ﴿ **أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا** ...﴾[1] ، فالمراد بفساد السموات والأرض خروجها عن النظام الذى هما عليه ، وقد استدل على وحدانيته تعالى بعدم فساد السموات والأرض ، وبيان ذلك أن يقال : لو كان فيهما آلهة غير الله لفسدتا ، ولكنهما لم تفسدا ، فليس فيهما آلهة إلا الله ، إذ اللازم وهو الفساد باطل، وهذا يقتضى أن يكون الملزوم وهو تعدد الآلهة باطلاً ، فانتفى الثانى لانتفاء الأول .. ومنه قوله تعالى : ﴿ **وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه** ﴾[2]، أى : الإعادة أهون عليه من البدء ، والأهون أدخل فى الإمكان من غيره ، فالإعادة ممكنة... وقوله عز وجل : ﴿**وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين** ﴾[3] ، أى الكوكب يأفل وربى لا يأفل ، فالكوكب ليس بربى .

وقوله تعالى : ﴿ **وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم** ..﴾ [4] أى أنتم تعذبون والأبناء لا يعذبون فأنتم لستم أبناء الله ومنه قول النبى - ﷺ : " لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً " ، وتمام الدليل أن يقال .. لكنكم ضحكتم كثيراً وبكيتم قليلاً فلم تعلموا ما أعلم .

---

(١) سوة الأنبياء الآيتان ٢١ ، ٢٢

(٢) سورة الروم الآية ٢٧ .

(٣) سورة الأنعام آية ٧٥ ، ٧٦ .

(٤) سورة المائدة الآية ١٨ .

ومن أشعارهم قول زهير بن أبى سلمى :

وما يك من خـــير أتــوه فإنمــا　　　تــوارثــه آبــاء آبــائهم قبـــل

وهل ينبت الخطى إلا وشــــيجه　　　وتنبت إلا فى منابتها النخـــل[1]

فكما أنه لاتصنع الرماح الخطية الشهيرة إلا من أشجارها ولا تنبت النخل إلا فـــى منابتها فكذلك هؤلاء توارثوا الأمجاد والفضائل عن آبائهم وأجدادهم فهم أصل الفضائل ومنبع المجد ..وقول النابغة يعتذر للنعمان بن المنذر عندما انصرف عنه ومدح آل جفنـــة من الغساسنة :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبـــة　　　وليس وراء الله للمـــرء مذهـــب

لئن كنت قد بلغت عنى خيانـــة　　　لمبلغك الواشى أغـــش وأكـــذب

ولكننى كنت امــرءاً لى جــانب　　　من الأرض فيه مستراد ومذهـــب

ملوك وإخوان إذا ما مدحتهـــم　　　أحكـــم فـــى أموالهـــم وأقـــرب

كفعلك فى قوم أراك اصطفيتهم　　　فلم ترهم فى مدحهم لك أذنبـــوا

فالنابغة يدعم اعتذاره للنعمان بالحجج والبراهين التى لاتدع شيئا من الغضب والنكير إلا أتت عليه إذ يقول له :ليس من العدل التفرقة فى الحكم بين مدح ومـــــدح ، فـــأنت أحسنت إلى قوم واصطفيتهم فمدحوك وأنا أحسن إلى قوم فمدحتهم فكمـــا أن مـــدح

---

(١) الخطى : الرماح الخطية نسبة إلى مرفأ السفن بالبحرين لأنها تباع به لا أنه منبتها ، و الوشيج : شجر الرماح

(٢) ريبة : شك . ومستراد : موضع طلب الرزق مأخوذ من أراد الكلأ أى : طلبه . ملوك وإخوان: أراد بهم آل جفنة من الغساسنة .

هؤلاء لك لايعد ذنبا ، فكذلك مدحى لمنْ أحسن إلى وقربنى لايعد ذنبا ..وقول أبى تمام فى مدح المعتصم واستنهاضه لمناجزة الحرب وألايعول على كلام المنجمين :

دع النجوم لطرقى يعيـــش بهـــا وبالعزائم فـــانهض أيهـــا الملـــك

إن النبى وأصحاب النبى نهـــوا عن النجوم وقد أبصرت ما ملكوا

فأبو تمام يرشـــده إلى فعل النبى ﷺ ونهيه عن التنجيم وعن تصديق المنجمين ، وقد امتثـــل الصحابة فمـــلكوا الدنيا وقد أبصـــرت ما ملكوا ، فينبغى عليك الاقتـــداء بهم وألا تركن لأقوال المنجمين وأكاذيبهم ..

ومنه ما يروى أن أبا دلف العجلى قصده شاعر من بنى تميم فقال له : ممن أنـــت ؟ قال : من تميم : فقال له أبو دلف :

تميم بطرق اللؤم أهدى من القطا ولو سلكت سبل الهداية ضلـــت

فقال له التميمى : ((بتلك الهداية جئت إليك)) ، وقد أفحمه بذلك ، لأنه إذا كان التميمى لا يسلك سبيل الهداية إلا وضل ، وقد سلك الطرق وجاء إليه ، فالمجىء إليـــه إذا ضلال ... ومنه قول أحد شعراء الأندلس :

لو يكون الحب وصـــلا كلـــه لم تكـــن غايتـــه إلا الملـــل

أو يكون الحب هجـــرا كلـــه لم تكـــن غايتـــه إلا الأجـــل

إنما الوصـــل كمثـــل المـــاء لا يســـتطاب المـــاء إلا بـــالعلل

فقد قاس الوصل على الماء ، فكما أن الماء لا يستطاب إلا بعد العطش ، فالوصل مثله لا يستطاب إلا بعد حرارة الهجر .وبهذا يتضح لنـــا أن هـــذا اللـــون والـــذى عـــرف باسم : (المذهب الكلامى) ، يعتمد على سوق البراهين والحجج وعرض الأدلة وإيـــراد

التعليلات الحقيقية للأحكام والدعاوى والقضايا الأدبية التى يعرض لها الأديب ، وبقـــدر ما تكون هذه البراهين وتلك العلل أقرب إلى المنطق والعقل بقدر ما تكون بلاغـــة هـــذا الأسلوب وقوة تأثيره .

ما الفرق بين المذهب الكلامي وحسن التعليل ؟ وكما رأينا فـــالمذهب الكلامـــى مبنى على سوق الأدلة والعلل ، وحسن التعليل أيضاً قائم على إيراد التعليلات الحســـنة ، ولكنهما يختلفان فى نوع العلة المساقة ، فالتعليلات فى (المذهب الكلامى) ، تعليـــلات حقيقية قائمة على العقل والمنطق - كما رأينا فى شواهده المذكورة - أما التعليلات فـــى (حسن التعليل) ، فهى تعليلات خيالية ، قائمة على التصوير والتخييل ، كما سنرى فى دراستنا لهذا اللون .

★ ★ ★

الرجـــــوع

وهو أن يعود المتكلم إلى كلام ذكره فينقضه لنكتـــــة بلاغيـــة كمـــا فـــى قـــول زهير بن أبى سلمى :

قف بالديار التى لم يعفها القدم بلى وغيرها الأرواح والديم(١)

فقد ذكر فى صدر البيت أن تطاول الزمن وتقادم العهد لم يغير من هذه الديار فهى ما تزال شاخصة ماثلة كعهده بها أيام كان يعمـــرها الأحبة ، ثم عاد فى عجز البيـــت إلى هذا الكلام فنقضه وأبطله ، و أثبت أن القدم قد عفاها ، و أن الرياح والأمطار قـــد غيرتها ، وسر هذا الصنيع هو تصوير الكآبة والحزن ، و الألم والدهشة ، و الحيرة التـــى سيطرت على عقله ، و استولت على فكره ، فدفعته إلى الإخبار أولا بما لا تقره الحقيقـــة فلما ثاب إلى رشده ، تدارك كلامه وصحح مقاله ... ومثله قول حسان :

لا أسرق الشعراء ما نطقوا بل لا يوافق شعرهم شعرى

ذكر أولا أنه لا يتأثر بمن سبقه من الشعراء وهذا معنى قوله : ((لا أسرق الشعراء ما نطقوا)) ثم رجع فذكر أنه يتأثر بهم وبما قالوه من شـــعر ولكـــن لا يوافـــق شـــعرهم شـــعره ... وسر هذا الصنيع هو الفخر بشعره و إبراز قوته وأصالته وتفوقه على غـــيره من الشعر ، فقد دفعه هذا إلى نفى التأثر ، ولما عاد إلى عقله وفكره و أدرك أن التأثر واقع لا محالة ، حيث لم يترك السابق للاحق شيئاً ، كما يقول عنترة :

ما أرانا نقول إلا معـــــارا أو معادا من قولنا مكرورا

---

(١) يعفوها : يبليها ويغيرها ، الأرواح ؛ جمع ريح بردياتها فى الجمع فأصل ريح روح ، و الديم : جمع ديمة وهى السحابة الكثيرة المطر :

عندما أدرك ذلك عـــاد إلى كلامه السابق فنقضه مصححاً له ومثبتاً وقوع التـــــأثر، ولكن على الرغم من وقوعه فشعره هو الأقوى و الأفصح : ((لا يوافق شعرهم شعرى)) ومنه قول الآخر :

أليس قليلا نظرة إن نظرتها إليك وكلا ليس منك قليل

فقد ذكر أن نظرة منه إليها تعد قليلة فهى لا تشفى غليله ولا تروى ظمأه ، ثم عاد فنقض ذلك وأبطله ، وذكر أن ما تسمح به وتجود ، ويقع منها ، لا يعد قليلا ولو كـــان قليلا ، وسر هذا الرجوع هو تحيره واضطرابه ، وفرط حبه لها وهيامه بها ، فقد دفعه ذلك إلى ذكر أن النظرة إليها لا تكفى ولا تشفى ، فلما ثاب لرشده وعاد لعقله و أدرك إباءها وتمنعها ، عاد إلى كلامه السابق فنقضـــه وصححـــه وأثبـــت أن القليـــل منهـــا يعـــد كثرا ... فإذا لم يكن الرجوع لنكتة بلاغية ، بل لمجرد تصحيح خطأ وقع مـــن المتكلـــم، كقولنا: أنفقت ثلاثين بل خمسين درهماً، فلا يعد ذلك من الرجوع البلاغى.

★ ★ ★

المزاوجة

وهى أن يزاوج المتكلم بين معنيين واقعين فى الشرط والجزاء وذلك بأن يرتب على كل منهما معنى واحدا ... ففى قول البحترى مادحاً المتوكل عندما أصلح بين بنى تغلب:

وفرسان هيجاء تجيش صدورها ... بأحقادها حتى تضيق دروعها

إذا احتربت يوما ففاضت دماؤها ... تذكرت القربى ففاضت

زاوج بين (احترابهم) الواقع شرطاً ، وبين (تذكرهم القربى) الواقع جزاء حيث رتب على كل منهما إفاضة شيء ، فقد ترتب على احترابهم إفاضة الدماء ، وترتب على تذكرهم القربى إفاضة الدموع .

ومنها قوله فى مدح الفتح بن خاقان :

على أنها ما عندها لمواصل ... وصال ولا عنها لمصطبر صبر

إذا ما نهى الناهى فلج بى الهوى ... أصاخت إلى الواشى فلج بها

فقد زاوج بين (نهى الناهى) الواقع شرطاً ، وبين (إصاختها إلى الواشى) الواقع جواباً ، إذ رتب على كل منهما (لجاج شيء) فلجاج الهوى مرتب على نهى الناهى له عن حبها ، ولجاج الهجر مرتب على إصاختها إلى وشى الواشى ... ومنها قول الآخر :

إذا ما بدت فازداد منها جماله ... نظرت لها فازداد منى غرامها

رتب على كل من الشرط والجزاء زيادة شيء ، فازدياد جمالها مرتب على ظهورها ، و ازدياد غرامه بها مرتب على نظره لها عند بدوها .

سر بلاغة المزاوجة : ويكمن سر بلاغة المزاوجة فيما فيها من المفاجأة ، ومواجهة المخاطب بغير ما يترقب ، وملاقاته بغير ما ينتظر ويتوقع ، فمثلاً فى قول البحترى السابق :

إذا ما نهى الناهى فلج بى الهــوى   أصاخت إلى الواشى فلج بها الهجر

عندما يقف المخاطب على حال العاشق وأنه لا يستجيب لنهى الناهى له عن حبها ، بل يتمكن الحب فى نفســه ويشتد ثباته ، ويلج به الهوى ... عندما يقف علــى هــذه الحال يتوقع أن يكون المعشــوق كذلك ، وأن الغرام بينهما متبادل ، والحــب ســواء ، ولكنه يفاجأ بأنها تمعن فى هجر عاشقها وتسرف فى قطيعته وتصغى للواشى .

فالمخاطب عندما يسمع (لج بها) يتوقع أن يكون الذى لج بها (هوى) وهو ما لج بصاحبها ، حتى يتواءما فى الحب ، ويستويا فى الصبابة والغرام ، وعندما يقــف علــى متعلق (لج) وهو (الهجر) يعلم أنه ليس من نوع ما لج بعاشقها ، ومن ثم كان لقـــاء المخاطب بغيرما يتوقع ... وما من شك فى أن مفاجأة المخاطب ولقاءه بغير ما ينتظر مما يؤثر فى النفس ويؤكد المعانى ويزيدها رسوخا فى الأذهان واستقراراً فى الوجدان .

★ ★ ★

الهزل يراد به الجد

هو ذكر الشئ على سبيل الهزل والمداعبة ، واللعب والممازحة ، ويقصد بـــه أمــر صحيح ومعنى جاد ، كما في قول أبي نواس يهجو تميما :

إذا مــا تميمــي أتــاك مفـــاخرا فقل عد عن ذا كيف أكلك للضب

فالضب حيوان صغير ذنبه كثير التعقد ، وكان أشراف العرب يعافون أكله ، فعندما يأتى التميمى مفتخرا ، وتقول له : دع هذا الافتخار ، كيف تفتخر وأنت تأكل الضب؟، تكون بهذا قد هجوته بأسلوب ظاهره الهزل والمزاح، وإذا صار الهزل طريقا للجد كـــان أوجع فى الهجاء وأبلغ فى الإقذاع والإيلام .. ومثله قول جرير فى هجاء تغلب :

والتغلبـــى إذا تنحنـــح للقـــرى حــك استه وتمثــل الأمثـــالا

فقد سلك فى الهجاء أسلوب الهزل : تنحنح ... حك استه ، ولذا كان أقوى إيجاعا وأشد إيلاماً .... وقوله فى هجاء الفرزدق :

لهــا بــرص بجــانب أســـكتيها كعنفقــة الفــرزدق حــين شــابا

ونحوه قول الآخر :

وإذا أشـــار محدثـــا فكأنـــه قــرد يقهقــه أو عجــوز تلطـــم

فقد سلك كل منهما فى الهجاء مسلك المزاح والهزل ، فكان أقوى إيلامــا وأشــد إيجاعــا .

ومنه قول امرئ القيس :

أيقتلنـــى والمشـــرفى مضـــاجعى ومســنونة زرق كأنيــاب أغـــوال

وقد علمت سلمى -وإن كان بعلها- بأن الفتـــى يهـــذى وليــس بفعــال

سلك سبيل الهزل فى هجاء بعلها بقوله : " أن الفتى يهذى وليس بفعال " ، وهذا أشد فى تصوير ضعفه وأبلغ فى الاستخفاف والاستهزاء به .

بلاغة هذا الأسلوب : وتكمن بلاغة هذا الأسلوب فى أن الهزل إذا صار طريقا للجد كان أبلغ وأقوى فى تصوير المعنى وإبرازه من أن يقصد إلى الجد رأسا ؛ كما هو واضح فى الشواهد المذكورة .

الفرق بينه وبين أسلوب التهكم : أسلوب " الهزل يراد به الجد " ظاهره - كما قلنا - هزل ومزاح والمقصود منه معنى صحيح وأمر جاد .. أما أسلوب التهكم فظاهره جد وباطنه تهكم أو مزاح ... كقول الله عز وجل : ﴿ **ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم . ذق إنك أنت العزيز الكريم**﴾[1] ، فظاهر الآية الجد ، والمراد منها : التهكم والسخرية ، وكما تقول لصديقك البخيل : " تصدق علينا وجد فأنت حاتم " فظاهر كلامك الجد ، ومرادك منه الهزل والمزاح .... ولذا فالأسلوبان متناقضان .

★ ★ ★

(١) سورة الدخان آية : ٤٩ .

حسن التعليل

وهو أن يدعى المتكلم علة للشيء غير علته الحقيقية على جهة الاستطراف لتحقيقه وتقريره .... وذلك لأن الشئ إذا كان معللا كان آكد في النفس وأرسخ من إثباته مجردا عن التعليل .

ففى قول ابن الرومى :

لما تؤذن الدنيا به من صروفها ... يكون بكاء الطفل ساعة يولد

وإلا فما يبكيه منها وإنها ... لأرحب مما كان فيه وأرغد

نراه قد علل بكاء الطفل ساعة مولده بما تؤذن الدنيا به من صروفها ، وبالعناء الذى سيلقاه هذا المولود فى حياته ، وتلك علة خيالية التمسها الشاعر لظاهرة البكاء لحظة ميلاد الطفل ، وهى تعبر عن نفسية الشاعر وحياته وتشاؤمه المعهود ، إذ ربط بين آلام الحياة وصروف الدهر وبين بكاء الطفل ساعة المولد ، ولا شأن للطفل بهذه المتاعب ، وإنما هى نظرة ابن الرومى المتشائمة للحياة ... ونرى أحد شعراء الأندلس يعلل بكاء الطفل عند مولده تعليلا آخر إذ يقول مهنئا بمولود :

لم يستهل بكا ولكن منكرا ... أن لم تعد له الدروع لفائفا

فقد علله بأن الطفل ينكر لفائفه المعتادة ويريدها دروعا وسيوفا ، وكأن الشاعر يتنبأ بما سيكون عليه الطفل من الشجاعة والقوة وهذا يناسب المقام ، مقام التهنئة بالمولود ..

وانظر إلى قول أبى العلاء المعرى فى رثاء أبى إبراهيم العلوى معللا كلفة البدر :

وما كُلْفَة البدر المنير قديمة ... ولكنها فى وجهه أثر اللطم

وقول ابن القيسرانى معللا كلفة البدر أيضا :

وأهوى الذى أهوى له البدر ساجدا ... ألست ترى في وجهه أثر الترب

تجد اختلافا فى التعليلين حيث عللها الأول بأثر اللطم ، وعللها الثانى بسجود البدر لمن أحبه وهواه ، وقد ناسب ذلك المقام ، إذ المقام الأول مقام رثاء ، والمقام الثانى مقام حب وغزل .. هذا وينبغى أن نفرق بين التعليل العلمى وبين التعليل الأدبى ، فالتعليل

العلمى مبنى على الحقائق الثابتة والتجارب المعملية ، أما التعليل الأدبى فمبنى على الخيال والتماس علل غير العلل الحقيقية للأشياء وهذه العلل الخيالية تكـــون لأغـــراض متعـــددة كالمبالغة فى المديح وكإدخال السرور على الممدوح ونحو ذلك . وينبغى أن تكون ملائمة للمقام وغير متنافية مع الذوق والآداب الإسلامية ، وإلا كانت ســـوء تعليـــل لاحســـن تعليل ، كما فى قول ابن هانئ الأندلسى :

ولو لم تصافح رجلها صفحة الـــثرى لمـــا كنـــت أدرى علـــة للتيمـــم

فقد علل التيمم بما يتنافى مع آداب الإسلام إذ جعل علته مصافحة رجل الفتاة للثرى الذى يكون به التيمم ..

صور حسن التعليل : وقد نظر البلاغيون إلى الشئ المعلل ، وهل توجد لــــه علـــة حقيقية ؟ أم لا توجد له علة ؟ وإذا وجدت هل ينظر الناس إليها ويسألون عنهـــا أم لا ؟ وهل هذا الشئ المعلل وصف ثابت أم غير ثابت ؟ وإذا لم يكن ثابتا فهل هو ممكن ، بمعنى أن العرف والعادة يقضيان بإمكان وجوده ؟ أم أنه غير ممكن ؟ .... وبناء علـــــى هـــذه النظرات ذكروا لحسن التعليل أربع صور :

الأولى : أن يكون التعليل لشئ ثابت لا تظهر له علة حقيقة أولا يسأل الناس عـــادة عن علته نحو الزلازل وسقوط الأمطار والكسوف والخسوف والرياح ونحو ذلـــك مـــن الظواهر الطبيعية الكونية .... من ذلك قول أحد الشعراء وقد حدث زلزال فـــى مصـــر عندما تولى كافور الإخشيدى أمرها فتطير بسببه الناس :

ما زلزلت مصر من كيد يراد بهـــا لكنها رقصت مـــن عدلـــه فرحـــا

فقـــد علل حـــدوث الزلـــزال بأن الأرض ترقص فرحـــا بعدل كـــافور والنـــاس عادة لا يسألون عن علة الزلازل .. ومنه قـــول المتنبى :

لم تحك نـــائلك الســحاب وإنمــا حمت بـــه فصبيبهــا الرحضــاء[1]

فالناس عادة لا يسألون عن علة المطر ولا ينظرون إليها وقد جعلها المتنبى ، ما حصل للسحاب من الحمى بسبب عدم محاكاته لعطاء الممدوح .

ومنه قول أبى هلال العسكرى :

زعــم البنفســج أنــه كعــذراه حسنا فسلوا من قفـــاه لســانه[2]

ففى البنفسج زائدة تحت ورقه لا يظهر لوجودها علة وقد علل أبو هلال وجودهـــا بأنها كاللسان له وقد سل من قفاه عقابا له على زعمه أنه يشبه عذار الغلام حســـنا ... وقول الشاعر يعلل البياض فى جبين الفرس وفى قوائمه :

فكأنمــا لطــم الصبــاح جبينـــه فاقتص منـــه فخاض فى أحشـــائه

فهو يصور معركة نشـبت بين الصباح والفرس ، قد بدأها الصباح فلطـــم جبـين الفرس ، ولكن الفرس لم يسكت بل ثأر من الصباح ، فطرحه أرضا وخاض بقوائمه فـــى أحشائه ، وكان نتيجة هذه المعركة أن ابيضت قوائم الفرس وابيض جبينه، فهـــو يعلـل بياض جبهة الفرس بلطم الصباح له ، ويعلل بياض قوائمه بخوضه فى أحشاء الصبـــاح .. وهذا البياض مما لا يسأل الناس عنه ولا ينظرون إلى علته .... وقول الآخر معللا ظهـــور البدر ثم اختفاءه فى السحاب :

أرى بدر الســـماء يلــوح حينــا ويبـــدو ثــم يلتحــف الســحابا

وذاك لأنـــه لمـــا تبـــدى وأبصر وجهــك اســتحيا وغابــا

فبدو البدر ثم اختفاؤه لا ينظر الناس إلى علته ولا يسألون عن سببه ، ولكن الشاعر يعلله بهذا التعليل الطريف وغرضه من ذلك أن يدخل السرور على المخاطب ويؤثر فـــى وجدانه بالتظرف فى مدحه والتلطف فى الثناء عليه ..

---

(١) تحكى : تشابه ، والنائل : العطاء . وحمت : أصيبت بالحمى . والصبيب : ما صب من المطـــر. والرحضاء : عرق الحمى .

(٢) العذار : أول ما يبدو على الخد من الشعر .

الثانية : أن يكون التعليل لشئ ثابت تظهر له علة حقيقية فيتغاضى الشاعر عنها ويثبت له علة خيالية فيها جدة وطرافة وذلك لتقرير هذا الشئ وتحقيقه كما في قول المتنبى :

ما به قتل أعاديه ولكن يتقى إخلاف ما ترجو الذئاب

فقتل الأعادى له علة حقيقية وهى إرادة إهلاكهم ودفع مضارهم حتى تأمن النفوس منازعتهم ، ولكن المتنبى تغاضى عن هذه العلة وذكر مكانها علة خيالية وهى تمكن الكرم من نفس ممدوحه حتى صار يتقى أن يخيب رجاء الذئاب التى خرجت ترقبه وتنظر اتساع أرزاقها من قتلى أعاديه ..

وقول أبى تمام :

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكان العالى

فقد علل عطل الكريم من الأموال بالقياس على عدم إصابة السيل الأماكن العالية واستقراره عندها إذ يتركها منحدرا إلى ما دونها من الأماكن الهابطة ، وعطل الكريم له علة حقيقية وهى جوده بالأموال ، وكثرة إنفاقه ..

ومنه قول الآخر :

مغرم بالثناء صب بكسب المجد يهتز للسماح ارتياحا

لا يذوق الإغفاء إلا رجاء أن يرى طيف مستميح رواحا[1]

فالإغفاء له علة حقيقية وهى راحة البدن ولكن الشاعر لم يلتفت إليها وذكر أنه ينام ليرى طيف طالبى العطاء وقد قيده بالرواح ليشير إلى أن العفاة إنما يحضرون فى صدر النهار على عادة الملوك ، فإذا كان الرواح قلوا ، فهو يشتاق إليهم فينام ليأنس برؤية طيفهم ... ونحوه قول الآخر :

وإنى لأستغشى وما بى نعسة لعل خيالا منك يلقى خياليا

---

(١) مغرم : مولع . والصب : ذو الولع الشديد . والسماح : الجود .. والإغفاء : النوم الخفيف . والمستميح : طالب العطاء .. والرواح : العشى .

ومن لطيف هذا الضرب قول ابن المعتز :

قالوا اشتكت عينه فقلت لهم ... من كثرة القتل نالها الوصب
حمرتها من دماء من قتلت ... والدم فى النصل شاهد عجب[(1)]

وقول الآخر :

تقول وفى قولها حشمة ... أتبكى بعين تراني بها
فقلت إذا استحسنت غيركم ... أمرت الدموع بتأديبها [(2)]

فالعلة الحقيقية لحمرة العين : الرمد ، وللبكاء : أسبابه من فقد حبيب أو حلول مكروه ، و لم يعتد الشاعران بذين ، بل علل ابن المعتز حمرة العين بدماء من قتلت من العشاق ، وعلل الآخر البكاء بتأديب العين لاستحسانها غير الحبيب .

الثالثة : أن يكون التعليل لشئ غير ثابت يريد المتكلم إثباته وهو ممكن .... كما فى قول مسلم بن الوليد :

يا واشيا حسنت فينا إساءته ... نجى حذارك إنسانى من الغرق[(3)]

فاستحسان إساءة الواشى بوشايته شئ غير ثابت لم يقض العرف بثبوته و لم تجر العادة به ولكن قد يقع من بعض الناس فهو ممكن وليس محالا وقد علله الشاعر بهذه العلة الخيالية ، وهى أن حذره من وشاية الواشى منعه من البكاء ، فلم يغرق إنسان عينه بالدموع ... ومثله قول الآخر :

ولقد هممت بقتلها من حبها ... كيما تكون خصيمتى فى المحشر
حتى يطول على الصراط وقوفنا ... فتلذ عينى من لذيذ المنظر

---

(١) الوصب . المرض . والنصل : يطلق على السيف وقد استعير للعين لأنها تقتل مثله . والمراد بقتل العين : نظراتها القاتلة للأحبة .

(٢) الحشمة : الغضب أو الاستحياء .

(٣) الواشى : الساعى بالفساد . وإنسانى : المراد إنسان عينه .

فقد ادعى أمرا غير ثابت ولا معتاد ولكنه ممكن ، ألا وهو هم العاشق بقتل حبيبه ، ولذا علله بطول الوقــوف معها للمخاصمة يوم المحشــر على الصراط فتلذ عينـــه مـــن منظرها اللذيذ .

الرابعة : أن يكون التعليل لشئ غير ثابت وغير ممكن كما فى قول القائل :

لو لم تكن نيـــة الجـــوزاء خدمتـــه لما رأيت عليها عقــــد منتطـــق (١)

فنية الجوزاء خدمة الممدوح أمر غير ثابت وغير ممكن الحدوث ، وقد أراد الشـــاعر إثباته فعلله بانتطاق الجوزاء أى بوجود الكواكب حولها فيما يشبه النطاق ، وهو ما يسمى نطاق الجوزاء فكأنها تأهبت لخدمة الممدوح .

ما يلحـــق بحســـن التعليل : ويلحق بحسن التعليل ما بنيت فيه العـــلة على الشك لا على اليقين والإصرار ... كما فى قول أبى تمـــام :

ربى شفعت ريح الصبـــا لرياضهـــا إلى المزن حتى جادها وهو ها مـــع
كأن الســـحاب الغرغيـــبن تحتهـــا حبيبا فما ترقـــا لهـــن مدامـــع (٢)

فقد علل هطول الأمطار على الربى بأن السحاب الغر كأنها قد دفنت حبيبا تحـــت تلك الربى فهى تبكيه دائما .. وقد ألحق هذا بحسن التعليل لأن الشاعر لم يبنه على اليقين والإصرار ، بل بناه على الشك فقال : "كأن" .

---

(١) الجوزاء : برج فلكى حوله نجوم تسمى نطاق الجوزاء والمنتطق : ذو النطاق وهو ما يشـــد فـــى الوسط وقد يكون مرصعا بالجواهر كالعقد .

(٢) الربى ، جمع ربوة وهى ما ارتفع من الأرض : والصبا : ريح تهب من الشرق .. والمزن : واحده مزنة وهى السحاب الأبيض ، والهامع : السائل بكثرة . وجادها : أمطرها . والغر :الســـحاب الممطر الغزير الماء .وترقأ : تسكن .

ومثله قول المتنبى :

رحل العــــزاء برحلتــى فكــأننى أتبعتــه الأنفــاس للتشـــــييع [1]

علل ارتحال العزاء عنه بما ذكره من أنه أتبعه بتلك الأنفـــــاس لتشـــيعه وتودعـــه ، والأنفاس إنما تصعد فى العادة للتحسر والتألم لا للتشييع و لم يجعل من حسن التعليل بل عد ملحقا به لبنائه على الشك دون الإصرار .

★ ★ ★

(١) التشييع : التوديع . والمعنى : رحل عنى العزاء بارتحالى عنك فكأننى ودعته .

ابتداء الكلام

نبه البلاغيون إلى أن المتكلم ينبغي له أن يتأنق فى ثلاثة مواضع من كلامه ... فى ابتداء الكلام ... وعند الانتقال من معنى إلى معنى آخر أو استتباع معنى لمعنى أو إدماج معنيين ، أو اقتباس من القرآن والحديث ، أو التضمين من كلام الغير ، وعند انتهاء الكلام ... فإذا لم يتأنق فى تلك المواضع ، بدا كلامه قبيحا وعابه الناس ورفضوه وانصرفوا عنه ... ومعنى تأنقه أن يبدو كلامه أعذب لفظا وأحسن نظما وأصح معنى وأكثر مطابقة لمقتضى الحال ... وعندما نتأمل ابتداءات الكلام نجد أنها تأتى على صور ثلاث وهى :

١- **حسن الابتداء** : إذا انتقى المتكلم لابتداء كلامه الألفاظ العذبة ، الخالية من الثقل والتنافر ، وتخير النظم الأجود ، البعيد عن التعقيد ، وأتى بالمعنى الصحيح ، المطابق لمقتضى الحال ، وصف ابتداؤه عندئذ بالحسن ، وكان ذلك داعيا إلى أن يقبل المخاطب إلى جميع كلامه فيصغى إليه ويتأمله و يعيه ... أما إذا لم يبتدئ ابتداء حسنا ، فإن المخاطب ينفر منه ويعرض عن جميع كلامه ويرفضه ، ولو كان فى غاية الحسن والبلاغة.

فمن الابتداءات الحسنة قول النابغة الذبيانى :

كلينى لهم يا أميمة ناصب   وليل أقاسيه بطئ الكواكب

وقول امرئ القيس :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل   بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فقد ابتدأ كل منهما ابتداء حسنا يلائم حال الحزن والتألم ، ولكن النابغة فاق امرأ القيس فى هذا الحسن فامرؤ القيس وقف واستوقف ، وبكى واستبكى وذكر الحبيب والمنزل فى نصف بيت عذب اللفظ سهل النظم ، ثم لم يتفق له ذلك فى النصف الثانى ، بل أتى بمعان قليلة فى ألفاظ غريبة فباين الأول [1] .. أما النابغة ، فإن بيته وإن

(١) انظر المطول ٤٧٨ .

كان أقل معنى إلا أن شطريه متناسبان وألفاظه متلائمة لا غرابة فيها .... ومن ذلك قول المتنبى فى ذكر فراقه لسيف الدولة وقصده كافور الإخشيدى :

فراق ومن فارقت غير مذمم   وأم ومن يممت خير ميمم

ومثله قول الآخر فى وصف ألمه لفراق الأحبة :

زموا الجمال فقل للعاذل الجانى   لا عاصم اليوم من مدرار أجفانى

٢ - **براعة الاستهلال** : وأحسن الابتداءات ما ناسب المقصود بأن يكون فيه إشارة إلى ما سيق الكلام من أجله ، فيكون الابتداء مشعرا بالمقصود ومنبئا به ... من ذلك قول أبى تمام فى تهنئة المعتصم بفتح عمورية ، وكان أهل التنجيم قد زعموا أنها لا تفتح فى ذلك الوقت :

السيف أصدق إنباء من الكتب   فى حده الحد بين الجد واللعب

بيض الصفائح لا سود الصحائف   متونهن جلاء الشك والريب

ومثله قول الآخر فى التهنئة بمولود :

بشرى فقد أنجز الإقبال ما وعدا   وكوكب المجد فى أفق العلا صعدا

وقول المتنبى فى التهنئة بزوال المرض وحلول الشفاء :

المجد عوفى إذ عوفيت والكرم   وزال عنك إلى أعدائك السقم

وقول الآخر فى الرثاء :

هى الدنيا تقول بملء فيها   حذار حذار من بطشى وفتكى

فلا يغرركمو منى ابتسام   فقولى مضحك والفعل مبكى

ففى هذه الابتداءات بالإضافة إلى أسباب الحسن المذكورة فى الصورة الأولى إشارة إلى ما سيق الكلام لأجله ، وإشعار بالمقصود منه ، ولذا سميت ببراعة الاستهلال .

٣- **قبح الابتداء** : أما إذا لم يتأنق المتكلم فى ابتداء كلامه بانتقاء الألفاظ وتخير النظم الأجود ، ولم يراع مقتضى الحال عد ذلك عيبا وكان ابتداؤه ابتداء قبيحا يدعو إلى

أن ينصرف الناس عن كلامه ويرفضوه ، فمقام المديح والتهنئة مثلا يقتضى من المتكلم أن يتجنب فى ابتـــدائه ما يتطير به ويتشـــاءم منه ، فإن فعل ذلك رد كلامه ، كما روى أن ذا الرمة أنشد هشام بن عبد الملك ، وقيل عبد الملك بن مروان قوله :

ما بال عينك منها المـــاء ينسـكب   كأنه مـــن كلـــى مفريـــة ســـرب

فقال الخليفة : بل عينك أنت ، وكان بعين عبد الملك رمش فما تـــزال تدمـــع ...
ويقال إن ابن مقاتل الضرير أنشد الداعى العلوى صاحب طبرستان :

*** موعد أحبابك بالفرقة غد ***

فقال له الداعى : موعد أحبابك أنت ولك المثل السوء ، والفرقة : اســـم موضـــع ولكنه يوهم فراق الأحباب ولذا تطير منه الداعى ...

وروى أيضا أنه دخل عليه فى يوم مهرجان وأنشد قوله :

لا تقل بشرى ، ولكـــن بشـــريان   غـــرة الداعـــى ويـــوم المهرجـــان

فتطير لابتدائه بنفى البشرى وقال له : يا أعمى تبتدئ بهذا يوم المهرجان ، وقيـــل بطحه وضربه خمسين عصا ، وقال إصلاح أدبه أبلغ فى ثوابه ..

ومنه ما يروى أن إبراهيم بن إسحاق الموصلى دخل على المعتصم بالله وقد بنى قصره بالميدان وجلس فيه ، فأنشده مادحا ومهنئا :

يـــا دار غـــيرك البلـــى ومحـــاك   يا ليت شعرى مـــا الـــذى ابـــلاك

فتطير المعتصم بهذا الابتداء وأمر بهدم القصر .

والحسن فى مثل هذا قول القطامى :

إنا محيـــوك فاســـلم أيهـــا الطلـــل   وإن بليت وإن طالت بك الطيل (١)

وقول أشجع السلمى فى مطلع قصيدة له فى مدح الرشيد :

تصـــر عليـــه تحيـــــة وســـــلام   خلعـــت عليـــه جمالهـــا الأيـــــام

---

(١) الطيل بكسر الطاء المشددة وفتح الباء : مدى الدهر .

حسن التخلص

كثيرا ما يبتدئ المتكلم بغير الغرض المقصود من كلامه ثم ينتقل مما ابتدأ به إلى غرضه فتكون تلك البداية بمثابة التمهيد أو المقدمة ، وانتقاله منها إلى غرضه المقصود يسمى خروجا أو تخلصا ... وفى اثناء التكلم قد ينتقل المتكلم من معنى لآخر ثم يعود للمعنى الذى انتقل منه ويسمى هذا استطرادا .. وقد يتحدث المتكلم عن معنى من المعانى ويستتبع ذلك الحديث عن معنى آخر ..أو يدمج معنى فى معنى ، أو يضمن كلامه كلام الغير .. أو يقتبس من القرآن والحديث .. وعندئذ ينبغى للمتكلم أن يتأنق فى خروجه ، وأن يلائم فى استطراده ، وأن يراعى المناسبة فى استتباعه أو إدماجه أو اقتباسه أو تضمينه وسنعرض لتلك الأمور مبتدئين إن شاء الله بحسن التخلص .

عرفه البلاغيون بأنه الانتقال مما ابتدئ به الكلام من تشبيب أو ذكر للديار أو وصف للخمر ونحو ذلك إلى الغرض المقصود منه الكلام مع رعاية الملاءمة بين ما ابتدئ به وما انتقل إليه . لأن المخاطب يكون مترقبا ومنتظرا لهذا الانتقال ، فإذا ما جاء حسنا قد روعى فيه التلاؤم ، حرك من نشاطه وكان أدعى للإصغاء والمتابعة ، وإن جاء بخلاف ذلك أدى إلى النفور والإعراض .. ... فمن التخلصات الحسنة قول أبى تمام :

يقول فى قُومس قومى وقد أخذت ... منا السرى وخطا المهرية القُود
أمطلع الشمس تبغى أن تؤم بنا ... فقلت : كلا ولكن مطلع الجود[1]

حيث انتقل انتقالا حسنا من مطلع الشمس إلى مطلع الجود .. وقول مسلم بن الوليد :

أَجدّك ما تدرين أن رب ليلة ... كأن دجاها من قرونك تنشر
سهرت بها حتى تجلت بغرة ... كغرة يحيى حين يذكر جعفر[2]

(١) قومس : موضع بخراسان ، السرى : السير ليلا ، المهرية : الإبل ، والقود : الطويلة الظهور والأعناق ، وتؤمَ : تقصد .

(٢) جد : الجد بالكسر الحقيقة وبالفتح الحظ فهو استحلاف بالحقيقة أو بالحظ ومنصوب بنزع الخافض أى : أبجدك والقرون : خصل الشعر .

حيث انتقل من النسيب إلى مدح يحيى بن جعفر انتقالا حسنا فقد شبه غرة الصباح الذى بددالظلام بغرته ، فكان فى الانتقال من غرة الصباح إلى غـــرة المـــدوح تـــلاؤم وتناســـب ...

وقول المتنبى :

خليلى مالى لا أرى غـــير شــاعر   فكم منهم الدعوى ومنى القصائد[1]

فلا تعجبـــا إن الســـيوف كثـيرة   ولكن سيف الدولة اليـــوم واحـــد

ورى بسيف الدولة عن أمير حلب ، فمعناه القريب : السيف الذى ينـــاضل بـــه ، ومعناه البعيد : أمير حلب ، ولذا كان الانتقال من تفرده بالشعر إلى انفراد الممدوح بالقوة وبكونه سيف الدولة انتقالا حسنا متلائما ...

وقول البحترى فى مدح المتوكل :

كأنها حـــين لجـــت فـــى تدفقهـــا   يد الخليفـــة لمـــا ســـال واديهـــا

فقد انتقل من وصف البركة إلى المدح انتقالا حسنا متلائما حيث شبه تدفق مياهها وسيلانه بتدفق يد الخليفة بالعطاء والبذل ...

فإذا لم يراع المتكلم التناسب والتلاؤم فى انتقاله سمى ذلك اقتضابا وهـــو مذهـــب الجاهليين ومن وليهم من المخضرمين ، إذ كانوا لا يحسنون التخلص ، بل ينتقلـــون مـــن غرض لآخر بقولهم : "دع ذا " أو " عد عنه" أو "عد عما ترى " ونحو ذلك .. كما فـــى قول زهير :

فعد عما تـــرى إذ فـــات مطلبـــه   أمسى بذاك غراب البين قد نعقـــا

فقد انتقل من الغزل إلى غرضه المقصود بقـــوله : " عد عما ترى " فلـــم يحســـن التخلص ... وهذا لا يعنى أن المتقدمين كانوا لا يراعون التناسب فى انتقالهم ولا يحسنون

---

(١) الدعوى : ادعاء الشعر .

التخلص على طول الخط ، بل كان منهم من يراعى ذلك ، فزهير نفسه الذى لم يحسن التخلص فى البيت المذكور ، نراه يحسنه فى قوله :

إن البخيل ملوم حيث كان ولـــــــ   كن الجـــواد علـــى علاتـــه هـــرم

بل إن من المتأخرين من كان يسلك مسلك القـــدماء فى الاقتضاب كما فى قـــول أبى تمـــام :

لو رأى الله أن فى الشـــيب خـــيرا   جاورته الأبرار فـــى الخلـــد شـــيبا

كل يوم تبـــدى صـــروف الليـــالى   خلقا مـــــن أبـــى ســـعيد غريبـــا

فقد انتقل إلى مدح أبى سعيد انتقالا مقتضبا بلا تخلص حسن ...

ومن الاقتضاب ما يكون قريبا من التخلص ، كقول القـــائل بعد حمـــد الله تعـــالى والثناء عليه ، "أما بعد " وكلفظ " هذا " كما فى قوله تعـــالى : ﴿ **هـــذا ذكـــر وإن للمتقين لحسن مآب**﴾ [(١)] ، وقوله عز وجل : ﴿ **هذا وإن للطاغين لشر مـــآب** ﴾[(٢)] .. ومنه قول الكاتب عند الانتقال من موضوع لآخر : " هذا باب ... هذا فصل ... " .

هل يقع حسن التخلص فى القرآن ؟ اختلف فى وقوع التخلـــص فـــى القـــرآن التكريم ، فقيل لا يقع فيه لأنه يأتى فى الغالب متكلفا ، والقرآن لا تكلف فيه ، وقيـــل : إنه قد وقع فيه ... وهذا هو الصواب ، فكل من " الاقتضاب " . و " التخلص " ، قـــد وقعا فى القرآن الكريم ولكن بلا تكلف ، وهذا شأن جميع الفنون البلاغية فـــى الذكـــر الحكيم ... وقد رأينا الاقتضاب فى الآيتين السابقتي ... أما التخلص فكمـــا فـــى قولـــه تعالى : ﴿ **الٓر . تلك آيات الكتاب المبين . إنا أنزلناه قرآنا عربيـــا لعلكم تعقلـــون . نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمـــن الغافلين . إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنى رأيت ...**﴾[(٣)] ، فالسورة الكريمة موضوعـــة لقصة يوسف - عليه السلام - وقد افتتحت بذكر القرآن ثم انتقل بحسن تخلـــص مـــن الافتتاح إلى المقصود ...

---

(١) سورة ص الآية ٤٩ .

(٢) سورة ص الآية ٥٥

(٣) سورة يوسف آية ١ - ٥ .

الاستطراد

هو الانتقال من معنى إلى معنى آخر متصل به لمناسبة ثم الرجوع إلى المعنى الأول ... وبهذا يتضح الفرق بينه وبين حسن التخلص ، فالاستطراد يعاد فيه ثانية إلى المعنى الذى انتقل عنه ، أما التخلص فهو انتقال بلا عودة كما أن الاستطراد يكون الانتقال فيه مفاجئا للمخاطب أما الانتقال فى التخلص فلا مفاجأة فيه ، لأن المخاطب يترقبه وينتظره ... فمن شواهد الاستطراد قوله عز وجل : ﴿ **يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوءاتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون** ﴾[1] ، فقد انتقل من الحديث عن آدم عليه السلام ، وكيف زين الشيطان له ولزوجته تلك الشجرة ليبدى لهما ما وورى عنهما من سوءاتهما فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة .. ثم كان الهبوط إلى الأرض ... انتقل من ذلك فى الآيات السابقة إلى الحديث عن لباس التقوى فى هذه الآية إظهارا للمنة فيما خلق الله من اللباس ، ولما فى العرى وكشف العورة من المهانة والفضيحة وإشعاراً بأن التستر باب عظيم من أبواب التقوى[2] ... ثم عادت الآيات ثانية إلى الحديث عن قصة آدم ووسوسة الشيطان له عقب هذه الآية : ﴿**يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ...**﴾[3] ، ومثله قوله تعالى : ﴿ **وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم . ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير . وإن جاهداك على أن تشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلى ثم إلى مرجعكم**

---

(١) سورة الأعراف آية ٢٦ .

(٢) انظر الكشاف جـ٢ ص ٧٦ .

(٣) سورة الأعراف آية ٢٧ .

فأنبئكم بمـــا كنتم تعملون . يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خـــردل فتكـــــن فـــى صخرة أو فى الســـموات أو فى الأرض يأت بها الله ...﴾[1] ، فقد وقع الاســـتطراد من وصية لقمان لابنه إلى وصيته - سبحانه وتعالى - لعباده لما بينهما من المناسبة ، ثم عاد إلى ما كان عليه من وصية لقمان لابنه .. ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ **أقم الصلاة لدلـــوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا . ومـــــن الليـــل فتهجد به نافــلة لك ...﴾**[2] ، وقوله : ﴿ **يا أيها المزمل قم الليـــــــل إلا قليـــــلا . نصفه أو انقص منه قليلا . أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا . إنا سنلقى عليك قــــولا ثقيلا . إن ناشئة الليل هى أشد وطأ وأقوم قيلا ...﴾**[3] ، فقد استطرد فى الآية الأولى حيث وسط ﴿ **وقرآن الفجر** ﴾ بين ذكر الليل ... واستطرد كذلك فى الثانيـــة حيـــث وسط : ﴿ **إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا** ﴾ بين ذكر أوصاف الليل وبيان أحكامه ...

ومن أقوالهم ... قول السموءل بن عاديا :

وإنا لقوم ما نــــرى القتــل ســبة ... إذا مــا رأتــه عــامر وســــلول

يقرب حب المـــوت آجــالا لنــا ... وتكرهــه آجـــــالهم فتطـــول

فقد استطرد من مدح قومه والفخر بأمجادهم ومآثرهم إلى هجـــاء قبيلتـــى عـــامر وسلول . ثم عاد بعد ذلك إلى غرضه المنشود ... وقول زياد الأعجم :

إذا ما اتقى الله الفتـــى وأطاعــه ... فليس به بأس وإن كان من جـــرم

فقد استطرد من الوعظ إلى ذم قبيلة جرم ثم عاد بعد ذلك إلى غرضه المقصود مـــن الوعظ ...

---

(١) سورة لقمان آية ١٣ - ١٦ .

(٢) سورة الإسراء آية ٧٨ ، ٧٩ .

(٣) سورة المزمل آية ١ - ٦ .

بلاغـة الاسـتطراد : وتكمن بلاغـة الاسـتطراد فيما يحققه من عنصر المفاجأة أو المباغتة ، فبينما المخاطب مشغول بالمعنى المسوق له الكلام ، إذ بالمتكلم يفاجئه بالمعنى الآخر الذى يستطرد إليه .... كما ترجع بلاغة الاستطراد أيضا إلى دفع الملل أو السأم عن السامع وبخاصة عندما يطول ويمتد الكلام فى بيان الغرض المقصود منه، عندئذ قد يحتـاج السامع إلى ما يدفع الملل وينشط الذهن وينبه الفكر ... واقرأ فـى " البيـان والتبيـين " للجاحظ، فسترى أنه كثيرا ما يستطرد بأن يحكى نادرة أو يعرض فائدة أو يش إلى حادثة ثم يعود إلى غرضه الأساسى ، بعد أن يكون السامع قد استراح بهذا الاستطراد وتجـدد نشاطه وتيقظ ذهنه فيصغى بدقة إلى الكلام المنشود ...

هذا ولا يخلو المعنى المستطرد إليه من مزايا بلاغية يقصد إليها ، كما رأيـت فـى الآيات الكريمة .

★ ★ ★ ★

الاستتباع

الاستتباع هو المدح بشئ على وجه يستتبع المدح بشئ آخر .. فهو خاص بغرض المديح وهذا هو الفرق بينه وبين " الإدماج " الآتى ذكره .

ومن شواهد الاستتباع قول المتنبى يمدح سيف الدولة :

نهبت من الأعمار مالو حويته ... لهنئت الدنيا بأنك خالد

فقد مدحه بأنه بلغ الغاية فى الشجاعة والفتك بأعدائه إذ كثر قتلاهم بحيث لو ورث أعمار هؤلاء القتلى لخلد فى الدنيا ... واستتبع هذا مدحه بكونه سببا فى صلاح الدنيا ونظامها حيث جعل الدنيا مهنأة بخلوده ، وهذا يقتضى اتصافه بكل صفة حميدة ، فهو لم يظلم أحدا من مقتوليه ، بل قتلهم عدلا وإصلاحا ، وعلى الرغم من أن النهب يكون للأموال ، فإن سيف الدولة قد نهب أعمارهم ، تلك هى التى تعنيه ، فهو لم يطمع فى أموال قتلاه ، وإنما نهب أعمارهم حتى لا يعثوا فى الأرض مفسدين ... فقد مدح المتنبى سيف الدولة بشئ على وجه استتبع مدحه بشئ آخر ... ومثله قوله فى رده رسل الروم لطلب الهدنة :

إلى كم ترد الرسل عما أتوا له ... كأنهم فيما وهبت ملام

فقد مدحه بالشجاعة على وجه استتبع مدحه بالكرم لعصيانه اللوم الذين يلومونه لكثرة هباته .

* * *

الإدمـــــاج

أما الإدماج فهو أن يضمن كلام سيق لمعنى معنى آخر ... فهو أعم من الاستتباع ، لأن الاستتباع خاص بالمديح ، أما الإدماج فيشمل المديح وغيره ... ولذا فـــإن الأولى أن يجعلا فنا واحد ، وأن يدخل الاستتباع فى الإدماج ... ومن شواهده قول المتنبى أيضا :

أقلـــب فيـــه أجفـــانى كــــأنى أعد بهـــا علـــى الدهـــر الذنوبـــا

فالبيت مسوق لوصف الليل بالطول ، وقد ضمن هذا الوصف الشكاية من الدهر ، إذ قوله : " أقلب فيه أجفانى " كناية عن طول الليل وامتداده ، وهذا هو المعنى الـــذى سيق البيت من أجله ... وقوله : " كأنى أعد بها على الدهر الذنوبا" .. كنايـــة عـــن الشكوى من الدهر ، وهذا التشكى لم يسق له الكلام بل جاء ضمنا وتابعـــا للمعنـــى الأول ..

ومثله قول ابن المعتز فى وصف " الخِيرِىّ " وهو ورد أصفر اللون .

قد نفض العاشقون ما صنع الـــــــهجـــر بـــألوانهم علـــى ورقـــه

فالغرض المسوق له الكلام هو وصف الورد بالصفرة وقد ضمن هـــذا الوصـــف : الحديث عن الغزل والعشاق وما يصنعه الهجر من صفرة فى الوجه وتغير فى اللـــون .... وقول ابن نباتة :

ولا بد لى من جهلة فـــى وصالـــه فمن لى بخل أودع الحلـــم عنـــده

فالكلام مسوق للغزل ، وقد أدمج فيه الفخر بكونه حليما ، وكنى عن هذا الفخـــر بالاستفهام عن وجود صاحب صالح لأن يودعه حلمه .. ثم أدمج فى الفخر الشكوى من الزمان وتغير الخلان ، حتى لم يبق فيهم من يصلح لهـــذا الإيـــداع ، وذلـــك بـــإخراج الاســـتفهام مخرج الإنكار ... وقد نبه بهذا الإنكار وبإيثاره التعبير بلفـــظ " أودع " إلى أنه لم يعزم على مفارقة حلمه جملة من أجل هذا الحبيب الذى يتطلب وصله "الجهـــل"،

وإنما سيودع حلمه عند خل حليم إن وجده ، ثم يستعيده ، فالودائع تستعاد ، ونلحظ في قوله : " جهلة " تقوية لهذا المعنى ، فما هى إلا جهلة أو جلهتان ثم يستعيد حلمه ويسترده ممن أودعه عنده ، إن وجد خلا يصلح لهذا الإيداع ... ومنه نثرا ما كتبه عمرو بن مسعدة أحد ولاة العباسيين إلى الخليفة المأمون : " كتبت كتابى إلى أمير المؤمنين - أعزه الله - ومن قبلى من قواده وأجناده فى الطاعة والانقياد على أحسن ما يكون عليه طاعة جند تأخرت أرزاقهم واختلت أحوالهم ..." فقد أدمج طلبه أرزاق الجند ورواتبهم فى إخباره عن طاعتهم وانقيادهم للخليفة ، وأوضح أن فى تأخر تلك الأرزاق اختلالا لأحوال الجند .

وقد أعجب الخليفة بهذا التضمين ، وأخذ يردد النظر فى الكتاب قائلا لأحد الكتاب بحضرته : " ألا ترى إدماجه المسألة فى الإخبار ..." ؟

★ ★ ★

الاقتبـــــاس

هو أن يضمن المتكلم كلامه شيئا من القرآن الكريم أو الحديث الشـــريف دون أن يشعر بذلك بأن يقول : " قال تعـــالى " .. أو " قال الرسول صلى الله عليه وســـلم "... أو نحوه ، فـــإن أشعر بذلك أو صرح به فلا يكون اقتباسا ، بل يكـــون استشـــهادا أو استدلالا ... والاقتباس يكون فى الشعر كما يكون فى النثر ، ويجوز أن يحتفظ المقتبـــس بالنص القرآنى أو النبوى ، أو أن ينقله إلى معنى آخر ، كما يجوز له أن يغير فى الألفـــاظ المقتبسة تغييرا يسيرا ... وما من ريب فى أن الألفاظ المقتبسة من القرآن أو الحديث ، تزيد الكلام قوة وبلاغة كما تضفى عليه حسنا وجمالا ، إذ تبدو وسطه كالضيـــاء اللامـــع ، والنور المشرق .. والمتكلم عندما يقتبس يبنى كلامه على الالتئام والتلاحم ، وبهذا يبـــدو كلامه قويا بليغا .. ومن شواهده فى الشعر قول الحماسى :

إذا رمت عنها سلوة قـــال شـــافع — من الحب : ميعاد الســـلو المقـــابر

ستبقى لها فى مضمر القلب والحشا — سريرة ود يـــوم تبلـــى الســـرائر

فقد اقتبس فى الشطر الأخير من قوله تعالى : ﴿ **يوم تبلى السرائر فما له من قـــوة ولا ناصر ...**﴾ ومنه قوله أحد شعراء الأندلس :

حرف كمثـــل الصـــاد إلا أنهـــا — بعد السرى جاءت كحرف النـــون

كـــالبدر قـــدره الإلـــه منـــازلا — فى الأفق حتى عـــاد كـــالعرجون

فقد اقتبس من قوله تعـــالى : ﴿ **والقمر قدرناه منازل حتـــى عـــاد كـــالعرجون القـــديم** ﴾ ، وواضح أن الشاعر قد غـــير قليـــلا فـــى ألفـــاظ الآيـــة الكريمـــة ...

ومثله قول الآخر :

وحوشـــى أن يقـــال لهـــا عتـــابى — ومن ذا يسمع الصـــم الدعـــاء ؟

فقد اقتبس من قوله عز وجل : ﴿ **إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين** ﴾ ..

ومنه قول ابن منذر :

قد تقطع الرحم القريب وتكفر النعـــــ ـــمـــى ولا كتقـــارب القلبـــــين

يدنى الهوى ذا ويدنـــى ذا الهـــوى فإذا هـــم نفـــس تـــرى نفســـين

فقد اقتبس مع تغيير يسير فى الألفاظ من قول النبى : "إن الرحـــم تقطـــع وإن النعم تكفر ولن ترى مثل تقارب القلوب" ... ومنه نثرا قول ابن نباتة : " فيأيها الســـفلة المطرقون ، أما أنتم بهذا الحديث مصدقون مالكم لا تشفقون ؟ فورب الســـماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون"..وقول الحريرى : "فلما طال أمد الانتظار ولاحت الشمس فى الأطمار ، قلت لأصحابى : قد تناهينا فى المهلة وتمادينا فى الرحلة ، إلى أن أضعنـــا الزمان ، وبان أن الرجل قدمان ، فتأهبوا للظعن ، ولا تلووا على خضراء الدمن " .

فقد اقتبس الأول من القرآن ، واقتبس الثانى من قـــول الرســـول : " إيـــاكم وخضراء الدمن " ونلاحظ أن الحريرى قد نقل ما اقتبسه إلى معنى آخـــر ، فالمـــراد بخضراء الدمن فى الحديث : المرأة الحسناء فى المنبت السوء ، والمراد بها فى كلامه : سوء المخبر مع حسن المنظر مطلقـــا . ومثله شعر قول ابن الرومى مقتبسا من الآيـــة الكريمـــة **﴿ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع... ﴾** :

لئـــن أخطـــأت فـــى مـــد حك مـــا أخطـــأت فـــى منعـــى

لقـــد أنزلـــت حاجـــاتى بـــواد غـــير ذى زرع

فالمـــراد ، بواد غير ذى زرع ، فى الآيـــة مكة المكرمة وفى البيت : الرجل الذى لا نفع فيه . ولا يخفى علينا أن معرفة الاقتباس وتحديده تقتضى منا حفظ كتاب الله عـــز وجل وأحاديث النبى عليه الصلاة والسلام ، وحسن فهمهما وتدبر معانيهما ....

★ ★ ★

التضميـــــن

أما التضمين فيختلف عن الاقتباس بأنه لا يكون من القرآن ولا الحديث ، بل يكون من كلام آخـر غيرهما ، كما أنه لا يكون فى النثر ، بل فى الشعر خاصـة ... وقـد عرفوه بقولهم : أن يضمن الشاعر نظمه شيئا من نظم غيره ، مع التنبيه عليه إن لم يكن من الأشعار المشهورة ... كما فى قول القاضى الفاضل مادحا :

أيـا صالح الآمال كم قلت مثنيا إذا نحن أثنينـا عليـك بصـالح

فقد ضمن بيته شطرا من بيت أبى نواس :

إذا نحـن أثنينـا عليك بصـالح فأنت كما نثني وفوق الذى نثنى

ومثله قول الحريرى :

على أني سأنشـد عنـد بيعـى أضاعونى وأى فتـى أضـاعوا

فالمصراع الأخيرفى البيت مأخوذ من بيت العرجي :

أضاعونى وأى فتـى أضـاعوا ليـوم كريهـة وسـداد ثغـر

هذا وقد يقتضى اختلاف المعنى أن يبدل الشاعر ويغير تغييرا يسـيرا فـى ألفـاظ التضمين .. على نحو ما نرى فى قول أحدهم يصف يهوديا أقرع :

أقول لمعشـر غلطـوا وغضـوا عن الشيخ الرشـيد وأنكـروه

هو ابن جـلا وطـلاع الثنايـا متى يضـع العمامـة تعرفـوه

فالبيت الثانى من قول سحيم :

أنا ابن جـلا وطـلاع الثنايـا متى أضع العمامـة تعرفونـى

وقد غير فى ألفاظه تغييرا يسيرا - كما هو واضح - اقتضاه اختلاف المعنـى فـى البيتين ، إذ "جـلا" فى البيت الأول صفة للشعر ، يقـال : شـعر جـلا أى : زال وانمحى ، وفى الثانى صفة للرجل ، يقال : رجلا جلا بمعنى : كشف الأمور وأوضحهـا

وجلاهـا ، و "الثنايا" فى البيت الأول المراد بها : مقدم أسنانه ، لأنها كانت بـارزة ، وفى الثانى تعنى الطرق الصعبة ... " والعمامة" فى الأول ، عمامة الرأس متى وضعهـا عن رأسه بدا داء الثعلب أى القراع ... وفى الثانى : عمامة الحرب أى : البيضة . فهـو متى وضعها على رأسه عرفوا شجاعته ... وبهذا يتضح اختلاف معنى البيتـين ، وقـد اقتضى هذا الاختلاف تغييرا يسيرا فى ألفاظ التضمين كما ترى ...

والتضمين إذا قل بأن كان مصراعا فما دونه سمى رفوا أو إبداعـا ، وإن زاد عـن مصراع سمى استعانة ..

وقد يعمد الأديب إلى النص القرآنى أو إلى الحـديث النبوى أو إلى النـثر الجيـد فينظمه ، ويسمى هذا عقدا ، فإن كان العقد من القرآن أو الحديث فينبغى على الأديـب أن يغير فيهما تغييرا كثيرا ، أو يشـير إلى أنه منهما ، وإلا كان اقتباسا .. كما انه قـد يعمد إلى النظم فينثره نثرا جيدا ويسمى هذا حلا (١) ..

★ ★ ★

---

(١) ارجع إلى الإيضاح جـ٤ ص ١٣٨ وما بعدها .

التلميـــح

وعندما يذكر الاقتباس أو التضمين يتطرق إلى الذهن معنى " التلميح " فهو قريـــب منهما ... وقد عرفـــوه بقولهم " أن يشير الشاعر أو الناثر إلى قصة أو مثل أو شـــعر دون أن يورد ألفاظه " ... ومثاله قول ابن حزم الأندلسى :

لئن أصبحت مرتحـــلا بشـــخصى ... فروحـــى عندكـــم أبـــدا مقيـــم

ولكـــن للعيـــان لطيـــف معنـــى ... لـــه ســـأل المعاينـــة الكليـــم

فهو يشير إلى قول موسى عليه السلام فيما حكـــاه عنـــه رب العـــزة والجـــلال : ﴿ **رب أرنى أنظر إليك** ﴾ .. ومنه قول أبى تمام :

فردت علينا الشمس والليل راغـــم ... بشمس لهم من جانب الخدر تطلـــع

فو الله مـــا أدرى أأحـــلام نـــائم ... ألمت بنا أم كان فى الركب يوشـــع

فهو يشير إلى قصة يوشع بن نون فتى موسى - عليهما السلام - فقـــد روى أنـــه قاتل الجبارين يوم الجمعة ، فلما أدبرت الشمس خـــاف أن تغيب دون أن يفـــرغ مـــن قتالهم وعندئذ يدخل فى السبت فلا يحل له قتالهم ، فدعا ربه فرد له الشمس حتى فـــرغ من قتالهم ...

ومنه قول الآخر :

خذوا بدمى هـــذا الغـــزال فإنـــه ... رمانى بسهمى مقلتيه علـــى عمـــد

ولا تقتلـــوه إننـــى أنـــا عبـــده ... ولم أر حرا قـــط يقتـــل بـــالعبد

فقد أشار إلى الآية الكريمة : ﴿ **الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى** ﴾

ومنه نثرا قول الحريرى فى المقامة الساوية " آنست من قلبى القساوة ، حين حللت ســـاوة ، فأخـــذت بالخبر المأثور ، فى مداواتنها بزيارة القبور " فهو يشير إلى قول

الرسول - ﷺ - : " إن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد " ، قيل وما جلاؤها ؟ قال : تلاوة القرآن وزيارة القبور " ...

ومنه قوله أيضا : " بت بليلة نابغية " ، أشار بهذا إلى قول النابغة الذبياني :

فبت كأني ساورتني ضئيلة　　　من الرقش في أنيابها السم ناقع [١]

هذا و " التلميح أو التضمين " ، شأنهما شأن " الاقتباس " في أن كلا منهما يحتاج من الدارس إلى حفظ القرآن والسنة وفقههما ، وحفظ الكثير من الأدب شعره ونثره ، ومداومة القراءة والاطلاع في مختلف كتب الأدب وشتى ميادينه ...

آراء العلماء في الاقتباس من القرآن : اختلفت آراء الفقهاء والعلماء في جواز الاقتباس من القرآن الكريم ، فبعضهم منعه ، وبعضهم أجازه مطلقا ، وبعضهم أجازه بشرط ألا يتنافى مع مبادئ الدين وقيم الإسلام ، فلا يجوز الاقتباس في معرض الهزل والسخف ، ولا اقتباس ما نسبه الله عز وجل إلى نفسه ، كما روى أن أحد الولاة وقع على شكاية رفعت إليه : ﴿ **إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم** ﴾ ، ولا أخذ شئ من القرآن وجعله بيتا من الشعر ، كما في قول القائل :

كتب المحبوب سطرا　　　في كتاب الله موزون[١]

لن تنالوا البر حتى　　　تنفقوا مما تحبون

لأن هذا يتنافى مع نفي الشعر عن القرآن ... إلى غير ذلك مما يتناقض مع تعاليم الدين ، أما إذا لم يتعارض الاقتباس مع روح الدين وقيمه ومبادئه ، فلا غبار عليه ، وهذا الرأى هو ما نراه أولى بالقبول والترجيح على نحو ما مر بنا في شواهد الاقتباس ... أما الاقتباس من الحديث الشريف فلا خلاف في جوازه ، لأن الحديث تجوز روايته بالمعنى وهو ما لا يجوز في القرآن الكريم .

★ ★ ★

---

(١) ساورتني : أصابتني . والضئيلة : الحية الدقيقة والأفعى كلما كبرت صغر جسمها ..والرقش : مفردها رقشاء وهي الحية المنقطة بسواد وبياض ، والناقع : الشديد .

الانتهـــــاء

هذا هو الموضوع الثالث الذى ينبغى للمتكلم أن يتأنق فيه ؛ لأن الانتهاء آخر ما يعيه السـامع ويرتسم فى ذهنه فإذا جاء حسنا جبر ما يكون قد وقع قبله من تقصير وعـدم وفاء . وإن جاء سيئا فقد ينسى محاسن ما قبله .

حسن الانتهاء : وحسن الانتهاء يتم بمراعاة ما روعى فى حسن الابتداء من تخـير الألفاظ . والنظم الجيد وصحة المعنى ومطابقته لمقتضى الحال ... من ذلك قـول أبـى نواس :

فبقيت للعلم الـذى تهـدى لـه ... وتقاعست عـن يومـك الأيـام

فقد أنهى قصيدته وهى فى مدح المأمون ، نهاية حسنة حيث دعا له أن يبقى للعلـم هاديا ، وأن تتقاعس الأيام عن يومه ... ومنه قوله :

وإنى جديـر إذ بلغتـك بـالمنى ... وأنت بما أملـت منـك جديـر

فإن تولنى منك الجميـل فأهلـه ... وإلا فـإنى عـاذر وشـكور

فقد أنهى قصيدته وهى فى مدح الخصيب بن عبد الحميد المرادى ، نهاية جيـدة ، لأن الشكر وقبول العذر يقتضيان انقطاع الكلام وانتهاءه ..

ومنه قول أبى تمام فى خاتمة قصيدته فى مدح المعتصم وفتح عمورية :

إن كان بين صروف الدهر من رحم ... موصولة أو ذمام غـير مقتضـب

فبين أيامك اللاتـى نصـرت بهـا ... وبين أيام بـدر أقـرب النسـب

أبقيت بنى الأصفر المراض كاسمهم ... صفر الوجوه وجلت أوجه العرب(١)

فقد اختتم القصيدة ختما حسنا ، ويمكمن هذا الحسن فى تحقيق النصـر ونهايـة الفتح الذى يؤذن بانتهاء الكلام ...

---

(١)صروف الدهر : حوادثه والذمام : الحق ، والمقتضب : المقطوع . بنـى الأصفـر : الـروم . والممراض : صيغة مبالغة من المرض ، يعنى أن صفرتهم ناجمة عن مرض وليس خلقة فيهم .

براعة الانتهاء : إذا كان فى نهاية القصيدة بالإضافة للأمور المذكورة مـــا يشـــعر وينبئ بانتهاء الكلام ، سمى ذلك ببراعة الانتهاء ... كما فى قول المعرى :

بقيت بقاء الدهر يا كهـــف أهلـــه وهذا دعـــاء للبريـــة شـــامل[1]

فالدعاء للبرية يشعر بانتهاء الكلام ... ومثله قول المتنبى :

فلا حطمت لك الهيجـــاء ســـرحا ولا ذاقت لـــــك الدنيـــا فراقـــا

فدعاؤه لسيف الدولة يشعر وينبئ بانتهاء الكلام ... هذا وعندما نتأمل فواتـــح السور فى الذكر الحكيم وخواتمها والانتقال فيها من معنى لآخر نجد أن ذلك وارد علـــى أحسن وأتم وجوه البلاغة ... والمقام هنا لا يتسع لإبراز ذلك وإيضاحه ولذا فســـــنخصه بدراسة مستقلة إن شاء الله تعالى ..

★ ★ ★

(١) الكهف : الغار فى الجبل والمراد به هنا : الملجأ على سبيل الاستعارة .

الجنــــــاس

ورد الجناس كثيرا فى النظم الكريم ، وفى الحديث الشريف ، كما ورد فى الشعر والنثر قديمه وحديثه ... فمن شواهده فى القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ **ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة** ﴾[1] ، وقوله عز وجل : ﴿ **وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين** ﴾[2] ، ... ﴿ **فأقم وجهك للدين القيم ...** ﴾[3] ... ﴿ **وهم ينهون عنه وينأون عنه** ﴾[4]... ﴿ **ولقد أرسلنا فيهم منذرين . فانظر كيف كان عاقبة المنذرين ..** ﴾[5] ﴿ **و إذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ...** ﴾[6] ... وفى الحديث الشريف : " اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا .. " .. "اللهم كما حسنت خلقى فحسن خلقى" ... " الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة" ..

ومن أقوالهم قول امرئ القيس :

وإن كنت قد ساءتك منى خليقة　　　فسلى ثيابى من ثيابك تنسل

وقول زهير بن أبى سلمى :

كأن عينى وقد سال السليل بهم　　　وَعَبْرَةٌ ماهمُ لو أنهمْ أَمَمُ[7]

وقول النعمان بن بشير :

ألم تبتدر كم يوم بدر سيوفنا　　　وليلك عما ناب قومك نائم

---

(١) سورة الروم آية ٥٥ .

(٢) سورة النمل آية ٤٤ .

(٣) سورة الروم آية ٤٣ .

(٤) سورة الأنعام آية ٢٦ .

(٥) سورة الصافات آية ٧٢ .

(٦) سورة النساء آية ٨٣ .

(٧) السليل : واد .. وأمم : بين القرب والبعد .

وقول جرير في هجاء الفرزق :

فما زال معقولا عقال عن النـــدى   وما زال محبوسا عن المجد حابس[1]

وقول الفرزدق :

" خفاف" أخف الله عنـــه ســحابه   وأوسعه من كل ساف وحاصب[2]

والجناس – كغيره من ألوان البديع – إذا صدر عن طبع وجاء عفوا كان له وقعه وأثره في المعنى ، أما إذا تكلف وتصنع ، بدا ثقـيلا ورغبت عنه النفـوس وجـافته الأذواق ... يقول الإمام عبد القـاهر : " أما التجنيس فإنك لا تستحسن تجانس اللفظتين إلا إذا كان موقع معنيهما من العقل موقعا حميدا ، و لم يكن مرمى الجامع بينهما مرمـى بعيدا ، أتراك استضعفت تجنيس أبي تمام في قوله :

ذهبت بمذهبه الســماحة فـالتوت   فيه الظنون أمذهـب أم مذهـب

واستحسنت تجنيس القائل :

*** حتى نجا من جوفه وما نجا ***

وقول المحدث :

نــاظراه فيمـا جنـى نــاظراه   أو دعاني أمـت بمـا أودعـاني

لأمر يرجع إلى اللفظ ؟ ... أم لأنك رأيت الفائدة ضعفت عن الأول وقويت في الثاني ؟ ... ورأيتك لم يزدك بمذهب ومذهب على أن أسمعك حروفا مكررة ، تروم لهـا فائدة فلا تجدها إلا مجهولة منكرة ، ورأيت الآخر قد أعـاد عليك اللفظة كأنه يخدعـك عن الفائدة وقد أعطاها ، ويوهمك كأنه لم يزدك وقد أحسن الزياتدة ووفاها ...."[3] .

---

(١) عقال وحابس : من أجداد الفرزدق .

(٢) خفاف : اسم شخص . والسافي : الريح التي تسفي التراب . والحاصب : الريح الشـديدة التي تحمل التراب والحصباء أي : الحصى الصغار .

(٣) أسرار البلاغة ص ١٧ .

هذا وقد فطن العلماء منذ القدم إلى فن الجناس ، وكتبوا عنه وحاولوا تحديد مفهومه .. فقد أشار إليه الخليل بقوله : " الجنس لكل ضرب من الناس والطير والعروض والنحو ، فمنه ما تكون الكلمة تجانس الأخرى فى تأليف حروفها ومعناها وما يشتق منها مثل قول الشاعر :

*** يوم خلجت على الخليج نفوسهم (١) ***

أو يكون تجانسها فى تأليف الحروف دون المعنى مثل قوله تعالى : ﴿**وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين**﴾ (٢)....

وللأصمعى كتاب ينسب إليه يسمى : " كتاب الأجناس " .. وابن المعتز يعده من الفنون الأساسية للبديع (٣) ... ثم ما لبث أن نما الجناس وتشعبت فروعه وكثرت أنواعه وتعددت مصطلحاته ... ولعل ذلك يرجع إلى إسراف الشعراء وإكثار الكتاب من هذا اللون وتفننهم فى صنوفه وأشكاله وبخاصة فى العصور المتأخرة ... والذى يعنينا الآن أن نقف على مفهوم الجناس وأثره فى المعنى ، وأن نعرف أنواعه بعيدا عن التقسيمات المملة والتى يتداخل معظمها ، ولا يجد الدارس من الوقوف عليها كبير فائدة ..

تعريف الجناس : الجناس والتجنيس والمجانسة والتجانس كلها ألفاظ مشتقة من الجنس ، يقال : تجانس الشيئان إذا دخلا تحت جنس واحد ، ويقال : كلمتان متجانستان أى : شابهت إحداهما الأخرى ، فكأنه قد وقع بينهما مجانسة ، وحكى عن الخليل : هذا يجانسَ هذا أى : يشاكله ...

والجناس عند البلاغيين : تشابه اللفظتين فى النطق واختلافهما فى المعنى .. كما فى قوله تعالى : ﴿ **ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة** ﴾ ، فقد اتحد لفظ ﴿ **الساعة** ﴾ و ﴿ **ساعة** ﴾ نطقا واختلفا معنى ، إذ المراد بالساعة الأولى القيامة ، وبالثانية : المدة الزمانية ...

---

(١) خلجت نفوسهم : طعنتها بالرمح .

(٢) انظر كتاب البديع ص ٢٥ .

(٣) ارجع إلى القسم الأول .

أنواعـــــه : والجناس نوعان :

١ - جناس تمام ... ٢ - جناس غير تام ..

فالتام ما اتفق فيه اللفظان المتجانسان في أربعة أمور : نــوع الحــروف وعددهــا وهيآتها وترتيبها ... وغير التــام : ما اختلف فيه اللفظان المتجانسان في واحد أو أكــثر من الأمور المذكورة .

الجناس التام : وهذا النوع من الجناس ينقسم بدوره إلى ثلاثة أقسام : الممـــاثل .. والمستوفى .. وجناس التركيب ...

١- المماثل : وهو ما اتفقت فيه الكلمتان المتجانستان في نوع الأحرف وعددهــا وهيآتها وترتيبها ، وكانتا من نوع واحــد مــن أنــواع الكلمــة ، اسمــين أو فعلــين أو حرفين ... كما في قوله تعالى : ﴿ **ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غــير ساعة ..**﴾[1] ، فالجناس بين ﴿ **الساعة** ﴾ و ﴿ **ساعة** ﴾ وهما اسمان ، ومنه قولــه عــز وجل : ﴿ ... **يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار . يقلب الله الليل والنهار إن في ذلــك لعبرة لأولي الأبصار** ﴾[2] ، فالأبصار الأولى جمع بصر وهو النظر ، والثانية جمع البصــر وهو العقل .. فالكلمتان في كل آية اختلفتا معنى واتفقتا نطقــا فــي نــوع الحــروف وعددها وهيآتها وترتيبها ، وهما اسمان كما لا يخفى ....

ومن ذلك قول أبي تمام :

إذا الخيل جابت قســطل الحــرب   صــدور العــوالي فــي صــدور

فالمراد بصدور العوالي : أعــــالي الرمــاح ، وبصــدور الكتــائب : نحورهــا .

ومنه قول البحتري :

إذا العين راحت وهي عين على الهوى   فليس يسر مــا تســر الأضــالع

---

(١) سورة الروم الآية ٥٥ .

(٢) سورة النور الآية ٤٣ .

(٣) القسطل : الغبار . وصدعوا : أمالوا . والعوالي : جمع عالية وهي الرمح .

فالعين الأولى : العين الباصرة ، والثانية : الربيئة أو الجاسوس .

وقول المعرى :

تقول أنت امرؤ جاف مغالطـــة فقلت : لا هومت أجفان أجفانا[1]

فأجفان الأولى : جمع جفن وهو غطاء العين ، والثانية : اسم تفضيل بمعنى : أكثرنا جفاء ... وقول أبى نواس :

عباس عباس إذا احتدم الوغـــى والفضل فضـــل والربيـــع ربيـــع

فعباس الأولى ، والفضل والربيع أعلام ، وعباس الثانية من العبوس ، وفضـــل مـــن التفضل والزيادة ، وربيع : فصل الربيع وزمانه ...

ومن أمثلة الجناس المماثل بين فعلين ، قولهم : " فلان يضرب بالبيداء فـــلا يضـــل ، ويضرب بالهيجاء فلا يكل : ...

فالضرب الأول بمعنى : قطع المسافة ، والثانى بمعنى : الحمل علـــى الأعـــداء ... وقولهم : " قال فلان عندنا فقال لنا " ، قال الأولى من القيلولة والثانية من القول ... ومنه قول أبى محمد الخازن :

قوم لو أنهمُ ارتاضوا لما قرضوا أو أنهم شعروا بالنقص ما شعروا

فشعروا الأولى بمعنى : أحسوا ، والثانية بمعنى : نظموا الشعر ..

ومن أمثلة الجناس المماثل بين حرفين ، قولهم : " قد ينزل المطر شتاء وقـــد يـــنزل صيفا " ، فقد الأولى للتكثير والثانيـــة للتقليل . وقولهم : " من الناس مـــن يعمـــل مـــن الشروق إلى الغروب ... " ، فمن الأولى بمعنى : التبعيض ، ومن الثانية تفيد الابتداء ...

٢- المستوفى : وهو ما اتفقت فيه الكلمتان فى نوع الأحرف وعددها وهيآتهـــا وترتيبها واختلفتا فى نوع الكلمة ، بأن تكون إحداهما فعـــلا والأخرى اسما أو حرفا ، أو إحداهما اسما والأخرى حرفا ... فمن الجناس بين الاسم والفعل قول الشاعر :

---

(١) هومت : بفتح الواو المشددة : بمعنى تحركت .

وسميته يحيــى ليحيــا فلــم يكــن　　　إلى رد أمــر الله فيـــه ســـبيل

فيحيى الأولى اسم ، والثانية فعل ... ومنه قول الآخر :-

إذا رمــاك الدهــر فــى معشــر　　　وأجمــع النــاس علــى بغضهــم

فدارهم ما دمــت فــى دارهــم　　　وأرضهم ما دمت فـــى أرضهــم

فدارهم الأولى فعل من المداراة والثانية اسم ، وأرضهم الأولى فعل مـــن الإرضـــاء والثانية اسم ... ومنه قول المعرى :

لو زارنا طيف ذات الخال أحيانـــا　　　ونحن فى حفر الأجـــداث أحيانـــا

فأحيانا الأولى اسم بمعنى من وقت لآخر ، وأحيانا الثانية فعل بمعنى بعث فينا الحياة من جديد ... ومن الجناس بين الفعل والحرف ، قولهم : " قاتل فلان على جواده فعـــلا " فعلى الأولى حرف والثانية فعل ...

ومنه قول الشاعر :

علا نجمه فى عــالم الشــعر فجــأة　　　على أنه ما زال فى الشعر شــاديا

" فعلا " الأولى فعل بمعنى ارتفع و " على " الثانية حرف جر ..

ومنه قول الآخر :-

ولــو أن وصـــلا عللـــوه بقربـــه　　　لما أن من حمل الصبابـــة والجـــوى

فأن الأولى حرف توكيد ونصب ، وأن الثانية فعل ماض من الأنين ... ومن الجناس بين الحرف والاسم قولهم : " هويت فى حفرة فسقطت من فى أسنانى" ، ففـــى الأولى حرف جر ، والثانية اسم ...

٣- جناس التركيب : وهو ما كان كل لفظ من لفظيه مركبا أو أحدهما مركبـــا والآخر مفردا ... من ذلك قول البستى :

إلى حتفـــى ســـعى قدمـــى　　　أرى قدمـــى أراق دمـــى

فكل لفظ من لفظى الجناس مركب من كلمتين : " أرى قدمى " ، وأراق دمى"

ومثله قول الآخر :-

وكم لجباه الراغبين إليـــه مـــن مجال سجود فى مجـــالس جـــود

ومن ذلك قول البستى أيضا :-

إذا ملـــك لم يكـــن ذاهبـــة فدعــــه فدولتــــه ذاهبـــة

فاللفظ الأول مركب من مضاف ومضاف إليه والثانى مفرد بمعنى : زائلة فانية ...

ومنه قو الآخر :

طرقت الباب حتى كل متنـــى فلمـــا كـــل متنـــى كلمتنــــى

فالجناس بين كلمتني وكـــل متنـــى ، أحدهمـــا مفـــرد والآخـــر مركـــب ...

ومثله قول الآخر :

ناظراه فيمــــا جنـــى نـــاظراه أو دعانى أمت بمـــا أو دعهـــانى

فأو دعـــانى الأولى مكونة من " أو وفعل الأمر " والثـــانية فعل ماض ... هـــذا ولا يعد إسناد الفعل إلى الضمائر المتصلة أو إضافة الاسم إلى الضمـــير تركيبـــا ، ولـــذا فالجناس بين " ناظراه وناظراه " فى البيت جناس مفرد .

ومنه قول الآخر :

لا تعرضن على الرواة قصيـــدة مالم تبـــالغ بعـــد فـــى تهذيبهـــا
فمتى عرضت الشعر غير مهذب عدوه منك وساوسا تهذى بهـــا

فالجناس بين " تهذيبها وتهذى بها " الأولى مفردة والثانية مركبـــة مـــن الفعـــل " تهذى " والجار والمجرور "بهـــا " ...

ومثله قوله :

سل سبيلا إلى النجاة ودع دمـــ ع عينـــى يجـــرى سلســــبيلا

فالجناس بين " سل سبيلا وسلسبيلا " الأولى مركبة والثانية مفردة ..

ومن ذلك قول الحريرى :

والمكر مهما اسـطعت لا تأتـه لتقتنـى السـؤدد والمكرمـه

فاللفظ الأول مركب من كلمة : " المكر " والميم والهاء من " مهما " ، واللفظ الثانى مفرد " المكرمة " ... ومثله قوله أيضًا :

ولا تله عن تذكار ذنبك وابكـه بدمع يحاكى المزن حال مصابـه

ومثل لعينيـك الحمـام ووقعـه وروعة ملقـاه ومطعـم صابـه

فاللفظ الأول مفرد وهو " مصابه " ، والثانى مركب من الميم الأخيرة من " مطعم" وكلمة " صابه " ... وبهذا يتضح لنا أن الجناس المركب ، قد يكون كلا لفظيه مركبـا ويسمى هذا جناسـا ملفقا وقد يكون أحدهما مفردا والآخر مركبا من كلمـة وجـزء كلمة والبلاغيون يسمون هذا مرفـوا ... وقد يكون أحد اللفظين مفردا والثانى مكونـا من كلمتين ، فإن تشابها لفظا وخطا سماه البلاغيون : متشابها ، وإن تشابها لفظا واختلفا خطا سموه : مفروقا .. ولا أرى ضرورة للوقـوف علـى هـذه التسـميات أو تلـك المصطلحات ...

هذا وعلى الرغم من أن هذا النوع من الجناس - الجناس المركب - قد كثر فـى العصور المتأخـرة حتى غلب على كثير من الشعراء ، فإنا نرى شعر العصـور الأولى ، شعر الفطرة السليمة والطبع القويم قد خلا منه ، ويرجع السبب فى ذلـك إلى أن هـذا النوع من الجناس لا يخلـو من التكلف ، فأنت تلاحظ أن التكلف والتصنع باديان علـى ما أوردنا من شواهده وأمثلته ...

الجناس غير التام : وهو ما اختلف فيه اللفظان فى واحد أو أكثر مـن الأمـور الأربعة المذكورة وهى : نوع الأحرف وعددها وهيآتها وترتيبها ، ويأتى هذا الجنـاس على أنواع :-

١- الجناس المضارع أو اللاحق : وهو ما اختلفت فيـه الكلمتـان فـى نـوع الأحرف ، ويشترط ألا يقع الاختلاف بأكثر من حرف ، فإن كان الحرفان اللذان وقـع

فيهما الاختلاف متقاربين فى المخرج سمى الجناس مضارعا كما فى قوله عز وجل : ﴿ وهم ينهون عنه وينأون عنه ﴾[1] وقوله عليه الصلاة والسلام : " الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة " ... وقول الحريرى : " بينى وبين كنى ليل دامس وطريق طامس .." .. وإن كانا متباعدين فى المخرج سمى لاحقا " كما فى الآيات الكريمة : ﴿ ويل لكل همزة لمزة ﴾[2] ، ﴿ وجئتك من سبأ بنبأ يقين ﴾ [3] ، ﴿ ذلكم بما كنتم تفرحون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون ...﴾[4]، ﴿ وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به .. ﴾[5] ، ﴿إن الإنسان لربه لكنود وإنه على ذلك لشهيد وإنه لحب الخير لشديد ...﴾[6] ... ومن اقوالهم فى ذلك قول ابن هرمة :

وأطعن للقرن يوم الوغى   وأطعم فى الزمن الماحل

وقول البحترى :

هل لما فات من تلاق تلاف   أم لشاك من الصبابة شاف

وقول الحريرى : " لا أعطى زمامى لمن يخفر ذمامى ، ولا أغرس الأيادى فى بلاد الأعادى .." ... وقول الآخر :

إن المكارم فى المكا   ره والمغانم فى المغارم

٢ - الجناس الناقص : وهو ما اختلف فيه اللفظان فى عدد الأحرف ، وسمى ناقصا لأن أحد اللفظين ينقص عن الآخر حرفا أو حرفين ، ولا يكون النقصان بأكثر من ذلك ، فمما نقص فيه أحد اللفظين عن الآخر حرفا قوله تعالى : ﴿ والتفت الساق

---

(١) سورة الأنعام آية ٢٦ .
(٢) سورة الهمزة آية ١ .
(٣) سورة النمل آية ٢٢ .
(٤) سورة غافر آية ٧٥ .
(٥) سورة النساء آية ٨٣ .
(٦) سورة العاديات أية ٦ - ٨ .

بالساق إلى ربك يومئذ المساق ﴾[1] ، فالجناس بين ﴿ **الساق والمساق** ﴾ ، وقد نقصت الأولى عن الثانية حرفا ... ومنه قولهم : "جدى جهدى" ، و " من جد وجد "، والتشديد لا يعتد به فى الجناس الناقص ... وقولهم : سال من أحزانه سالم من زمانه ، حام لعرضه حامل لغرضه " ... ومنه قول أبى تمام :

يمدون من أيد عواص عواصم تصول بأسياف قواض قواضب[2]

وقول الآخر :

وسألتها بإشارة عن حالها وعلى فيها للوشاة عيون
فتنفست صعدا وقالت : ما الهوى إلا الهوان فزال عنه النون

وقول البهاء زهير :

أشكو وأشكر فعله فاعجب لشاك منه شاكر
طرفى وطرف النجم فيـ ـك كلاهما ساه وساهر

ومما زادت فى إحدى الكلمتين عن الأخرى حرفين قول حسان ابن ثابت – رضى الله عنه – :

وكنا متى يغز النبى قبيلة نصل جانبيه بالقنا والقنابل[3]

وقول الخنساء :

إن البكاء هو الشفا ء من الجوى بين الجوانح

ولا تكون هذه الزيادة أى : زيادة الحرفين إلا فى آخر الكلمة ، ولذا سماه بعض البلاغيين : مذيلا ، وسمو ما كانت الزيادة فيه بحرف واحد مطرفا ..[4]

---

(١) سورة القيامة الآية ٣٠ .

(٢) عواص : جمع عاصية ، من عصى بمعنى لم يطع أو من عصاه إذا ضربه بالعصا وعواصم : جمع عاصمة أى حافظات لأوليائها وقواض : حاكمات بالقتل . وقواضب : قاطعات .

(٣) القنا : الرماح . والقنابل : جمع قنبلة وقنبل بفتح القاف : الجماعة من الناس أو الخيل ما بين الثلاثين إلى الأربعين ونحوه ...

(٤) انظر بغية الإيضاح ٨٢/٤ .

ووجه حسن هذا النوع كما يقول عبد القاهر ، أنك تتوهم قبل أن يرد عليك آخر الكلمة ، كالميم من : ((عواصم)) والنون والحـاء من ((الجوانح)) أنها هي الكلمة التي مضت ، وقد أتي بها للتوكيد ، حتى إذا تمكن آخرها في نفسك ووعاه سمعك ، انصرف عنك ذلك التوهم ، وفي ذلك حصول الفائدة بعد أن يخالطك اليأس منها(١)...

٣- الجناس المحرف : وهو ما اختلف فيه اللفظان في هيآت الأحرف ، أي في الحركات والسكنات ، واتفقا فيما عدا ذلك من نوع الأحرف وعددها وترتيبها ...

من ذلك قوله تعالى : ﴿ **ولقد أرسلنا فيهم منذرين . فانظر كيف كان عاقبة المنذرين** ﴾ . وقول الرسول ﷺ " اللهم كما حسنت خلقي فحسن خلقي ..." ، ومنه قولهم : " لا تنال الغُرَر إلا بركوب الغَرَر " ، " جُبَّةُ البُرْد جُنَّة البَرْد " " البدعة شرك الشرك" (٢) . وقول المعري :

والحسن يظهر في بيتين رونقه ... بيت من الشَّعر أو بيت من الشِّعر(٣)

٤- جناس القلب : ويسميه بعضهم " جناس العكس " وهو ما اختلفت فيه الكلمتان في ترتيب الحروف ، وهو إما قلب الكل ، وذلك إذا جاء أحد اللفظين عكس الآخر في ترتيب حروفه كلها ، كما في قولهم " حسامه فتح لأوليائه حتف لأعدائه" ، وقول العباس بن الأحنف :

حسامك فيه للأحباب فتح ... ورمحك فيه للأعداء حتف

وقول الآخر :

حكاني بهار الروض حين ألفته ... وكل مشوق للبهار مصاحب

فقلت له : ما بال لونك شاحبا ... فقال لأني حين أقلب راهب

---

(١) انظر أسرار البلاغة صـ ٢٦ .

(٢) الغرر : بالضم جمع أغر وهو الحسن من كل شئ وبالفتح التعرض للتهلكة . والبرد : بضم الباء الثوب وبفتحها ضد الحر وبين جبة وجنة جناس لاحق . والشرك : الحبائل ..

(٣) الشعر : بالفتح القابل للصوف والوبر .

ففتح مقلوب حتف ، وراهب مقلوب بهار وهو نبت طيب الرائحة له زهر أصفر ينبت أيام الربيع ..

وإما قلب البعض : وهو ما اختلفت فيه الكلمتان فى ترتيب بعض الحروف .. كما فى قوله تعالى : ﴿ ... **إنى خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل** ...﴾(١) ، فالجناس فى كلمتى : ﴿ **بين و بنى** ﴾ ، وقد اختلفتا فى ترتيب الحرفين الأخيرين ... ومنه قول الرسول صلى اللهم عليه وسلم : " اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا " ، وقول بعضهم : " رحم الله امرأ أمسك ما بين فكيه وأطلق ما بين كفيه " ...

وقول أبى تمام :

بيض الصفائح لا سود الصحائف فى متونهن جلاء الشك والريب (٢)

وقول المتنبى :

ممنعة منعمة رداح يكلف لفظها الطير الوقوعا(٣)

فقد وقع التجانس بين : عوراتنا وروعاتنا .. وفكيه وكفيه .. والصفائح والصحائف .. وممنعة ومنعمة ... وكل كلمتين قد اختلفتا فى ترتيب بعض حروفهما كما ترى ...

هذا وقد أطلق بعض البلاغيين مصطلحات على جناس لا يخرج عن الأنواع المذكورة .... من ذلك :

١- الجناس المقلوب المجنح : إذا وقع أحد المتجانسين فى جناس القلب الكلى فى أول الكلام والآخر فى آخره سمى مقلوبا مجنحا ، كما فى قول الشاب الظريف :

---

(١) سورة طه الآية ٩٤ .

(٢) الصفائح : جمع صفيحة وهى السيف العريض ، والصحائف : جمع صحيفة والمراد بها كتب المنجمين ... والريب : الشك جمع ريبة ..

(٣) رداح : يقال امرأة رداح أى : ضخمة العجيزة ثقيلة الأوراك ..

أسكرني باللفظ والمقلة الـــــــ كحــلاء والوجنــة والكـــاس
ســاق يرينـــي قلبـــه قســـوة وكـــل ســاق قلبــه قـــاس

فالجناس بين " ساق " فى أول البيت و " قاس " فى آخره وقد قلبت حروفهما قلبا كليا ... ومثله قول الآخر :

لاح أنـــوار الهـــدى فى كفــه مــن كــل حــال

٢ - الجناس المزدوج : وإذا تتابعت الكلمتان المتجانستان من أى نوع من أنـــواع الجناس المذكورة ، سمى جناسا مزدوجا أو مكررا أو مرددا ، كما فـــى قولـــه تعـــالى : ﴿ **وجئتك من سبأ بنبأ يقين** ﴾[1] ، وما جاء فى الخبر : " المؤمنون هينـــون لينـــون " ، وقولهم : " من طلب وجد وجـــد ، و من قرع بابا ولج ولج ..." ، وقول أبى تمام :

يمدون من أيد عواص عواصـــم تصول بأسياف قواض قواضـــب

إلى غير ذلك من الشواهد التى مرت بك ..

٣- الجناس المصحف : ويقال له أيضا : الجناس المرسوم ، وهو أن تتماثل الكلمتان المتجانستان فى الخط والرسم ، وتختلفـــا فـــى النقـــط ، كمـــا فـــى قولـــه تعـــالى : ﴿ **قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا ، الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا** ﴾[2] ... ﴿ **فيحسبون ويحسنون** ﴾ ، متماثلان رســـــما وخطـــا مختلفان نقطا ... ومنه قوله عز وجل : ﴿ ... **والذى هـــو يطعمنـــى ويســـقين . وإذا مرضت فهو يشفين** ﴾[3] وقول على - كرم الله وجهه -: " قصر ثيابك فإنه أبقى وأتقى وأنقى .." ، وقولهم : " خلف الوعد خلق الوغد" ، ومنه شعرا قول أبى فراس الحمدانى :

مـــن بحـــر جـــودك أغـــترف وبفضـــل علمـــك أعـــترف

---

(١) سورة النمل الآية ٢٢ .
(٢) سورة الكهف الآيتان ١٠٣ ، ١٠٤ .
(٣) سورة الشعراء الآيتان ٧٩ ، ٨٠ .

وقول الآخر :

فإن حلوا فليس لهم مقر وإن رحلوا فليس لهم مفر[1]

وقول أبى تمام :

رب خفض تحت الثرى وغناء من عناء ونضرة من شحوب

وقول البحترى :

ولم يكن المغتر بالله إذا سرى ليعجز والمعتز بالله طالبه

ولا يخفى عليك أن هذا يرجع إلى الجناس المضارع أو اللاحق حيث اختلفت الكلمتان فى نوع الأحرف واتفقتا فيما عدا ذلك من عدد الأحرف وترتيبها وهيآتها ..

ما يلحق بالجناس : ألحق البلاغيون بالجناس أمرين :

الأمر الأول : أن يجمع اللفظين الاشتقاق ، بمعنى أن يرجع اللفظان إلى أصل واحد فى اللغة ، ويسمى هذا : "جناس الاشتقاق " .. وهذا النوع من الجناس يكثر فى كلام القدماء شعره ونثره ، وفى النظم الكريم والحديث الشريف كثير منه ، وهو الذى لفت نظر العلماء الأوائل الذين تحدثوا عن الجناس وفطنوا لشواهده، كالخليل والأصمعى وابن المعتز وغيرهم ، وقد كان الرمانى يسميه : " تجانس المناسبة " وعنى به الجناس الذى يدور فى المعانى التى يجمعها أصل واحد ترجع إليه ، وكشف عن أسرار بلاغته فى كثير من آى الذكر الحكيم ، فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ **ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم** ﴾[2] فقد جونس بالانصراف عن الذكر صرف القلب عن الخير ، والأصل فيه واحد وهو الذهاب عن الشئ ، أما هم فذهبوا عن الذكر وأما قلوبهم فذهب منها الخير ، وقد رتب صرف قلوبهم عن الخير على انصرافهم عما أنزل الله من الآيات ، وكأن انصرافهم ليس لهم وإنما هو عليهم..[3] .

---

(١) ولاحظ الجناس الناقص بين حلوا ورحلوا .

(٢) سورة التوبة الآية ١٢٧ .

(٣) انظر النكت للرمانى ص ١٠٠ .

ومنه قوله عز وجل : ﴿ **رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار** ﴾[1] ، فتتقلب والقلوب ترجعان إلى أصل واحد. وكذا القول فى الآيات الكريمة : ﴿ **فأقم وجهك للدين القيـــم** ﴾[2]... ﴿ **يمحق الله الربا ويربى الصدقات** ﴾[3] ، ﴿**فأما إن كان من المقربين فروح وريحـــان وجنة نعيم** ﴾[4].. فبين كل من ((أقم والقين)) .. ﴿ **والربـــا ويربـــى** ﴾ .. ﴿ **وروح وريحان** ﴾ ، جناس الاشتقاق ... ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : " الظلم ظلمات يــوم القيامة " وقول الشافعى رضى الله عنه وقد سئل عن النبيذ : " أجمع أهل الحرمين علـــى تحريمـــه " ... فالظلم والظلمات ، يرجعـــان إلى أصل واحد .. وكذلـــك " الحرمـــين وتحريمه " .....

ومن جناس الاشتقاق ما يجرى فى الأعلام كما فى قول النبى ﷺ : " أسلم سالمها الله وغفار غفر الله لها وعصية عصت الله ورسوله " فأسلم وغفار وعصية أسماء قبائل وهى ترجع وما ذكر معها من أفعال إلى أصل واحد فأسلم وسالم يرجعان إلى المسالمة ، وغفار وغفر إلى المغفرة وعصية وعصت إلى العصيان ... ، ومن ذلك ما يروى أن رجـــلا مـــن قريش قال لخالد ابن صفوان : ما اسمك ؟ قال : خالد بن صفوان الأهتم ، فقال الرجل : إن اسمك لكذب ما خلد أحد ، وإن أباك لصفوان وهو حجـــر ، وإن جـــدك لأهتـــم والصحيح خير من الأهتم ....

قال خالد : من أى قريش أنت ؟ قال : من بنى عبد الدار ، قال : فمثلك يشتم تميما فى عزها وحسبها، وقد هشمتك هاشم وأمتك أمية وجمحت بك جمح وخزمتك مخـــزوم وأقصتك قصى فجعلتك عبد دارهـــا وموضع شـــنارهـــا تفتح لهـــم الأبـــواب

---

(١) سورة النور الآية ٣٧ .

(٢) سورة الروم الآية ٤٣ .

(٣) سورة البقرة الآية ٢٧٦ .

(٤) سورة الواقعة الآيتان ٨٨ ، ٨٩ .

إذا دخلوا وتغلقها إذا خرجوا ...[1] ، فالقرشي وخالد قد اتخذا من كل اسم لفظا مشتقا من أصل مادته .. ومنه شعرا قول امرئ القيس :

لقد طمح الطماح من بعد أرضه ليلبسني من دائه ما تلبسا

وقول زهير :

كأن عيني وقد سال السليل بهم وعبرة ما هم لو أنهم أمم

وقول النعمان بن بشير :

ألم تبتدركم يوم بدر سيوفنا وليلك عما ناب قومك نائم

وقول الفرزدق :

خفاف أخف الله عنه سحابه وأوسعه من كل ساف وحاصب

وقول جرير :

فما زال معقولا عقال عن الندى وما زال محبوسا عن المجد حابس

وقول أبي تمام :

وأنجدتم من بعد إتهام داركم فيا دمع أنجدني على ساكني نجد[2]

وقول البحتري :

يعشى عن المجد الغبي ولن ترى في سؤدد أربا لغير أريب [3]

وقول ابن وهيب :

قسمت صروف الدهر بأسا ونائلا فمالك موتور وسيفك واتر[4]

---

(١) انظر الصناعتين ٣٣٢ .

(٢) أنجدتم : سكنتم نجدا . وإتهام : سكنى تهامة .

(٣) يعشى : يصاب بالعشى وهو عدم الإبصار ليلا أو ليلا ونهارا . والأرب : الحاجة ، والأريب : الماهر .

(٤) وتره : أصابه بمكروه أو بظلم ، ونلاحظ في البيت محسنا آخر وهو اللف والنشر غير المرتب ، فموتور يرجع لنائل " وواتر يرجع لبأس ..

ففى كل بيت كما ترى جناس اشتقاق بين : طمح الطماح ... سال السليل ... تبتدر وبدر ... خفاف أخف ... معقولا عقال ... محبوسا حابس ... أنجد ونجد ... أربا وأريب ... موتور وواتر ... وقد كثر هذا النوع من الجناس - كما قلنا - فى الشعر القديم ، ثم ازدادت كثرته لدى المتأخرين ، وكان فى القديم يصدر عن طبع ويأتى عفو الخاطر ، كما رأينا فى الشواهد ، أما المتأخرون كأبى تمام ، ومسلم بن الوليد ومن سار على نهجهما ، فقد خرجوا عن حد القصد والاعتدال فى كثير من الأحيان ...

الأمر الثانى : أن يجمع اللفظين ما شابه الاشتقاق ومعنى مشابهة الاشتقاق : أن يوجد فى اللفظ جميع ما فى الآخر من الحروف أو أكثرها ، ولكن لا يرجعان إلى أصل واحد كما فى الاشتقاق ولذا كان شبيها به وليس إياه .. من ذلك قوله تعالى : ﴿ **قال إنى لعملكم من القالين** ...﴾[1] ﴿ **فقال** ﴾ من القول ﴿ **وقالين**﴾ من القلى فهما - وإن تشابهت حروفهما - مختلفان لا يرجعان إلى أصل واحد .. ومثله قوله عز وجل : ﴿ **وجنى الجنتين دان** ...﴾[2] وقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة** ...﴾[3] وقوله جل وعلا : ﴿ **فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوأة أخيه** ....﴾[4] فمعنى الجنى غير معنى الجنة ، ومعنى الأرض غير معنى الرضا ، ومعنى الرؤية أو الإراءة غير معنى المواراة فاللفظان وإن تشابهت حروفهما لا يرجعان لأصل واحد ...

ومن ذلك قول البحترى :

وإذا ما رياح جودك هبت ... صار قول العذول فيها هباء

---

(١) سورة الشعراء الآية ١٦٨ .

(٢) سورة الرحمن الآية ٥٤ .

(٣) سورة التوبة الآية ٣٨ .

(٤) سورة المائدة الآية ٣١ .

" هبت " من الهبوب " ، " وهباء " من هبا يهبو ، فأصلهما مختلف وقد تشابهت حروفهما ...

هذا ولا أرى وجها لجعل البلاغيين هذين النوعين ملحقين بالجناس ، إذ لا فرق بينهما وبين الأنواع السابقة له ، إلا أن يقال : إن اللفظين فى "جناس الاشتقاق " ، يرجعان إلى أصل واحد ، وحد الجناس تشابه اللفظين نطقا واختلافهما معنى ، وذا غير مسلم لأن اللفظين وإن رجعا إلى أصل واحد ، فقد صار لكل منهما معنى يختلف عن معنى الآخر ، ولو سلم بهذا القول فى " جناس الاشتقاق " ، وعد به ملحقا بالجناس ، فماذا نقول فيما شابه الاشتقاق ، وقد رأينا أن لفظيه لا يرجعان لأصل واحد ؟ .... ولذا أرى أن يعد جناس الاشتقاق وما شابهه من أنواع الجناس وألا يجعلا ملحقين به ، كما ذكر البلاغيون ...

بلاغة الجناس : بعد أن وقفنا على مفهوم الجناس وعرفنا أنواعه المتعددة نعود فنقول : إن الجناس لا يقبل ولا يعد حسنا إلا إذا طلبه المعنى واستدعاه ، وجاء عفو الخاطر ، صادرا عن طبع لا عن تكلف وتصنع ... يقول عبد القاهر : " وعلى الجملة فإنك لا تجد تجنيسا مقبولا ، ولا سجعا حسنا ، حتى يكون المعنى هو الذى طلبه واستدعاه وساق نحوه ، وحتى تجده لا تبتغى به بدلا ولا تجد عنه حولا ، ومن هنا كان أحلى جناس نسمعه وأعلاه وأحقه بالحسن وأولاه ما وقع من غير قصد من المتكلم إلى اجتلابه ، وتأهب لطلبه ، أو ما هو لحسن ملاءمته - وإن كان مطلوبا - بهذه المنزلة وفى هذه الصورة ..." [(١)] ..

والجناس شأنه شأن فنون البديع الأخرى ، لا يحمد فيه الإسراف ، ولا يستحسن الإكثار ، " لذلك ذم الاستكثار منه والولوع به ، وذلك أن المعانى لا تدين فى كل موضع لما يجذبها التجنيس إليه ، إذ الألفاظ خدم للمعانى .." [(٢)] .

---

(١) أسرار البلاغة ص ٢٠ .

(٢) نفس المصدر ص ١٨ .

ونستطيع أن نقول إن بلاغة الجناس ترجع إلى الأمور الآتية :

١- التجاوب الموسيقى الصادر عن تماثل الكلمات تماثلا كاملا أو ناقصا تطرب له الأذن وتهتز له أوتار القلوب فتتجاوب فى تعاطف مع أصداء أبنيتها وهذا يؤكد بجلاء أهمية الجناس فى خلق الموسيقى الداخلية فى النص الأدبى وبناء ما بين ألفاظه من وشائج التنغيم ...

٢ - ما يحدثه الجناس من المفاجأة وخداع الأفكار واختلاب الأذهان ، إذ يتوهم السامع أن اللفظ مردد والمعنى مكرر وأنه لن يجنى منه سوى التطويل والسآمة ، وعندما يأتى اللفظ الثانى بمعنى يغاير ما سبقه ، تأخذه الدهشة لتلك المفاجأة غير المتوقعة ، فاللفظ المشترك إذا حمل على معنى ثم جاء والمراد به معنى آخر ، كان للنفس تشوف إليه وتطلع ، وعندئذ يقع منها أحسن موقع ، لأن المجنس يعيد اللفظة على السامع كأنه يخدعه عن الفائدة وقد أعطاها ، ويوهمه كأنه لم يزده وقد أحسن الزيادة ووفاها [١] ...

٣- لا يخرج الجناس عن نظرية : تداعى الألفاظ " و " تداعى المعانى " ، فى علم النفس ، وله أصله فى الدراسات النفسية فهناك ألفاظ متفقة كل الاتفاق أو بعضه فى الجرس وهناك ألفاظ متقاربة أو متشابكة فى المعنى بحيث تذكر الكلمة بأختها فى الجرس وأختها فى المعنى ، كما يولد المعنى الأول معنى ثانيا وثالثا ، وهذه الناحية النفسية هى التى تشرح لنا كيف يقع التجنيس للشاعر دون معاناة ، إذا كان ملما بلغته محسا بذوقها عالما بتصاريفها واشتقاقها .. فالدرامى يعرف لغة أن " الخرق " هو الصحراء الواسعة ويعرف لغة أن الناقة التى تخرق الأرض تسمى " خرقاء " وهذه المعرفة تدفعه إلى التجنيس فى لين وسهولة فيقول :

وأقطع الخرق بالخرقاء لاهية إذا الكواكب كانت فى الدنا سرجا

---

(١) انظر أسرار البلاغة ص ١٧ .

وجرير يعرف أسرة الفرزدق ، ويعرف أن من بين أجداده " عقال وحابس " ، ويعرف كذلك معنى الحبس والعقال فى اللغة، فيجرى لسانه بهذا الجناس هاجيا الفرزدق:

فما زال معقولا عقال عن الندى وما زال محبوسا عن المجد حابس

والفرزدق يعرف " خفاف " ويريد هجاءه فيذكر اسمه بالخفة ، لأنه يعلم أن خير السحب أثقلها ، وأن السحابة إذا خفت جفت ، ولذا يدعو عليه أن يخف الله سحابه وأن يبدله بها السافيات الحواصب إذ يقول :

خفاف أخف الله عنه سحابه وأوسعه من كل ساف وحاصب

والشعر يشاركه النثر فى هذه الملاحظة النفسية [1] ...

وارجع إلى شواهد الجناس التى مرت بك من آيات كريمة ، وأحاديث شريفة ، وشعر أو نثر صدر الجناس فيه عن طبع وجاء عفوا ، ثم استبدل الألفاظ المتجانسة بمرادفات لها ، وانظر بعد ذلك لترى كيف زال الحسن والجمال ، وذهب الرونق والبهاء ، ومضت بلاغة الجناس التى كنت تشعر بها فى تلك الشواهد ...

★ ★ ★

(١) انظر بلاغة أرسطو بين العرب واليونان ١١٧ ، وفنون بلاغية ٢٣٣ .

السجـــع

السجع فى اللغة :الكلام المقفى ، أو موالاة الكلام على روى واحـــد ، وجمعـه أسجاع وأساجيع ، وهو مأخوذ من سجع الحمام ، وسجع الحمام هو هديله وترجيعــه لصوته [١] .

وفى اصطلاح البلاغة : تواطؤ الفاصلتين أو الفواصل على حرف واحد أو علـى حرفين متقاربين أو حروف متقاربة ، ويقع فى الشعر كما يقع فى النثر ... فمما تواطأت فيه الفواصل على حـرف واحد قوله تعالى : ﴿ **والطور . وكتاب مسـطور فـى رق منشور . والبيت المعمور** ﴾[٢] ، وقوله عز وجل : ﴿ **والعاديات ضبحا . فالموريـات قدحا فالمغيرات صبحا** ﴾[٣] ... ومن التواطؤ على حـروف متقاربـة قولـه تعـالى : ﴿ **وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا سـاحر كذاب . أجعل الآلهـة إلها واحدا إن هذا لشئ عجاب . وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشئ يراد . ما سمعنا بهذا فى الملة الآخـرة إن هذا إلا اختـلاق** ﴾[٤] ، فالبـاء والدال والقاف حروف متقاربة ... وكذا قوله تعالى : ﴿ **ق . والقرآن المجيد بل عبجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شئ عجيب** ﴾[٥] ، فالدال والبـاء حرفـان متقاربان... ومن وقوعه فى الشعر قول أبى تمام :

تجلى به رشدى وأثرت به يدى ... وفاض به ثمدى وأورى به زنـدى

---

(١) انظر القاموس ولسان العرب مادة سجع والإتقان ٩٧/٢

(٢) سورة الطور آية ١-٤ .

(٣) سورة العاديات آية ١-٣ .

(٤) سورة ص آية ٤-٧ .

(٥) سورة ق آية ١ - ٢ .

وقول المتنبى :

فنحن فى جذل والروم فى وجل   والبر فى شغل والبحر فى خجل

هذا ويرى بعض البلاغيين كالسكاكى والخطيب أن السجع لا يكون إلا فى النثر ، وأنه لا يكون إلا بتواطؤ الفاصلتين أو الفواصل على حرف واحد ، فليس منه التواطؤ على حروف متقاربة .

يقول الخطيب : " السجع تواطؤ الفاصلتين من النثر على حرف واحد ، وهذا معنى قول السكاكى : الأسجاع فى النثر كالقوافى فى الشعر ..."[1] والأولى ما ذكرناه ، لأن السجع قد ورد فى الشعر كما ورد فى النثر ، ولأن معظم البلاغيين جعلوا منه التواطؤ على حروف متقاربة .

الفقرة والقرينة والفاصلة : هذه الكلمات تتردد كثيرا فى باب السجع وينبغ أن نعرف المراد بكل منها ، فالفاصلة هى الكلمة الأخيرة من الفقرة أو القرينة ، والفقرة أو القرينة بمعنى واحد وهى الجملة التى تنتهى بالفاصلة ، فمثلا قوله تعالى : ﴿ **اقتربت الساعة وانشق القمر . وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر** ﴾[2] الفاصلة كلمة ﴿ **القمر** ﴾ فى الآية الأولى ، و ﴿ **مستمر** ﴾ فى الآية الثانية والقرينة أو الفقرة : الآية كلها ، كل آية فقرة أو قرينة .

شروط حسن السجع : ذكر ابن الأثير شروطا أربعة ينبغى تحققها حتى يكون السجع حسنا ، فإذا فقدت أو فقدشرط منها لا يكون السجع حسنا ، وتلك الشروط هى:

١- أن تكون الألفاظ المسجوعة حلوة رنانة لاغثة ولا باردة .

---

(١) الإيضاح ٩٢/٤ .

(٢) سورة القمر آية ١ ، ٢

٢- أن تكون التراكيب أيضا صافية حسنة رائقة خالية من الغثاثة وذلك أن المفردات قد تكون حسنة ، ولكنها عند التركيب تفقد هذا الحسن ، ولذا شرط في التركيب ما شرط في المفرد ومعنى الغثاثة والبرودة التي ينبغي أن تخلو منها الألفاظ والتراكيب أن يهتم المتكلم بالسجع ويهمل الألفاظ والتراكيب فتأتي غثة باردة .

٣- أن يكون اللفظ فيه تابعا للمعنى ، لا أن يكون المعنى تابعا للفظ وإلا كان كظاهر مموه على باطن مشوه .

٤- أن تكون كل واحدة من الفقرتين المسجوعتين دالة على معنى غير المعنى الذي دلت عليه أختها ، فإذا كان المعنى فيهما سواء فذلك هو التطويل بعينه ؛ لأن التطويل إنما هو الدلالة على المعنى بألفاظ يمكن الدلالة عليه بدونها ....[(١)] .

وهذا الشرط الأخير لم يسلم لابن الأثير ، فقد فنده ابن أبي الحديد ذاكرا أن السجعة الثانية إذا كانت بمعنى الأولى فهي تؤكد معناها ، والتأكيد عمدة البيان ، ثم ذكر أن القرآن الكريم قد ورد فيه ذلك في كثير من مواضعه ، نحو قوله تعالى : ﴿ **قل أعوذ برب الناس . ملك الناس . إله الناس** ﴾ [(٢)] ، فالرب هنا والملك والإله بمعنى ، فكل سجعة من هذه السجعات قد أعطت معنى الأخرى....ومثله قوله عز وجل : ﴿ **وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا ، لنخرج به حبا ونباتا . وجنات ألفافا** ﴾[(٣)] ، فإن الجنات هي البساتين ولا معنى للبساتين إلا ما كان محتويا على الحب والنبات..وقوله تبارك وتعالى :﴿ **إنهم كانوا لا يرجون حسابا . وكذبوا بآياتنا**

---

(١) انظر المثل السائر ٢٧٦/١ - ١٧٩ .

(٢) سورة الناس آية ١ - ٣ .

(٣) سورة النبأ آية ١٤ - ١٦ .

كذابا ﴾[1] فإن عدم اعتقادهم فى الحساب هو تكذيبهم بالآيات ، ومثل هذا فى القرآن العزيز كثير جدا ... [2] .

والذى نراه أن السجعة الثانية عندما تأتى بمعنى الأولى ، فإن كانت مؤكدة لها أو مبينة وموضحة كما رأينا فى الآيات ، فذلك محمود ، لأنه إطناب والإطناب من البلاغة ... أما إذا كان تكرارها لا يزيد الأولى شيئا ، فذلك مذموم ، لأنه من التطويل والتطويل عى ، ومنه قول الصابى : " الحمد لله الذى لا تدركه العيو بألحاظها ، ولا تحده الألسن بألفاظها ، ولا تخلقه العصور بمرورها . ولا تهرمه الدهور بكرورها ، ثم الصلاة على النبى الذى لم ير للكفر أثرا إلا طمسه ومحاه ولا رسما إلا أزاله وعفاه "... فلا فرق هنا بين مرور العصور وكر الدهور ، ولا بين محو الأثر وعفاء الرسم ، فالسجعة الثانية مكررة وتكرارها لم يفد الأولى شيئا و لم يزد الكلام بهجة ولا أضفى عليه رونقا ، ولذا كان من التطويل المعيب .

أنواع السجع : وللسجع أنواع مختلفة بعضها يكون فى النثر والشعر ، وبعضها يختص بالشعر ، فأنواعه المشتركة بين النثر والشعر ثلاثة :

١- المطرف : وهو ما اختلفت فيه الفاصلتان أو الفواصل وزنا واتفقت رويا ، كما فى قوله تعالى : ﴿ **ما لكم لا ترجون لله وقارا . وقد خلقكم أطوارا** ﴾ [3] ، فوزن ﴿ **وقارا** ﴾ يختلف عن وزن ﴿ **أطوارا** ﴾ والروى واحد وهو حرف الراء .... ومنه شعرا قول أبى تمام :

تجلى به رشدى وأثرت به يدى   وفاض به ثمدى وأورى به زندى

---

(١) سورة النبأ آية ٢٧ ، ٢٨ .

(٢) انظر الفلك الدائر على المثل السائر ١٧٩/٤ .

(٣) سورة نوح آية ١٣ ، ١٤ .

فرشدى ويدى : مختلفان وزنا ، متفقان رويا ، أما " رشدى وثمدى وزنـــدى " فمتفقة فى الروى والوزن معا ، والمراد بالوزن هنا الوزن العروضى لا الصرفى .

٢ - المرصع : وهو أن يكون ما فى إحدى القرينتين من الألفاظ أو أكثره مثل ما يقابله من الأخرى وزنا وتقفية ... كما فى قوله تعالى : ﴿ **إن الأبرار لفى نعيم . وإن الفجار لفى جحيم** ﴾[١] ، فالأبرار مثل الفجار ، ونعيم مثل جحيم ، وزنا وتقفيـــة ... ومثله قوله سبحانه وتعالى : ﴿ **إن غلينا إيابهم . ثم إن علينا حسابهم** ﴾[٢] ، وقوله عز وجل : ﴿ **والعاديات ضبحا . فالموريات قدحا . فالمغيرات صبحا . فأثرن بــه نقعــا . فوسطن به جمعا** ﴾[٣] ... وقوله صلى اللهم عليه وسلم : " الله أعط منفقا خلفا وأعـــط ممسكا تلفا " ... ومنه قول الحريرى : " فهو يطبع الأسجاع بجواهــر لفظــه ، ويقــرع الأسماع بزواجر وعظه ... " .

ومنه شعرا قول أبى فراس الحمدانى :

وأفعـــالنا لـــلراغبين كرامـــة وأموالنـــا للطـــالبين نهـــاب

وقول الآخر :

فحريق جمرة ســـيفه للمعتـــدى ورحيق خمرة ســـبيه للمعتفـــى

٣- المتوازى : وهو ما اتفقت فيه الفاصلتان فقط وزنا وتقفية ، كما فى قوله تعـــالى : ﴿ **فيهـــا ســـرور مرفوعـــة وأكـــواب موضوعـــــة** ...﴾[٤] ؛ فـــإن ﴿ **مرفوعة** ﴾ و ﴿ **موضوعة** ﴾ متفقتان وزنا ورويا ... ومنه قوله صلـــى الله عليـــه

---

(١) سورة الانفطار آية ١٣ ، ١٤ .

(٢) سورة الغاشية آية ٢٥ - ٢٦ .

(٣) سورة العاديات آية ١ - ٥ .

(٤) سورة الغاشية آية ١٣ ، ١٤ .

وسلم : " اللهم إنى أدرأ بك فى نحورهم وأعوذ بك من شـــرورهم " ، " فنحورهــم وشرورهم " متفقتان وزنا وقافية ، .... ومنه شعرا قول المتنبى :

فنحن فى جذل والروم فى وجـــل   والبر فى شغل والبحر فى خجل [1]

فالشطر الأول مسجوع سجعا متوازيا ، والشطر الثانى من السجع المرصـــع . فـــإن اتفقت الفاصلتان فى الوزن دون القافية سمى هذا باسم " الموازنــــة " كقولـــه تعـــالى : ﴿ **ونمارق مصفوفة . وزرابى مبثوثة** ﴾ [2] ، فلفظا : " مصـــفوفة ومبثوثة " متفقان فى الوزن لا فى القافيـــة ، فالأولى عـــلى الفاء والثانيـــة على الثاء وهما حـــرفان متقاربان لا متفقان ... ومنه قوله تعالى : ﴿ **ألم تر أنا أرســـلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا . فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عدا** ﴾[3] ، "﴿ **فأزا وعدا** ﴾ اتفقتا وزنا واختلفتـــا قافية ... فإن كان ما فى إحدى القرينتين من الألفاظ أو أكثر ما فيهما مثل ما يقابلـــه من الأخرى فى الوزن دون القافية خص باسم المماثلة ، كقوله تعـــالى : ﴿ **وآتيناهمـــا الكتاب المستبين وهديناهما الصراط المستقيم** ﴾[4] ..

ومنه شعرا قول أبى تمام :

مها الوحش إلا أن هاتا أو انس   قنا الخـــط إلا أن تلـــك ذوابـــل

وقول البحترى :

فأحجم لما لم يجد فيك مطمعـــــا   وأقدم لما لم يجد عنـــك مهربـــا[5]

---

(١) الجذل : الفرح . والوجل : الخوف ، والمعنى : نحن فرحون بالنصر والروم فى خوف من غاراته ، والبر مشتغل بجيشه الممتد والبحر فى خجل من غزارة كرمه

(٢) سورة الغاشية آية ١٥ ، ١٦ .

(٣) سورة مريم آية ٨٣ ، ٨٤ .

(٤) سورة الصافات آية ١١٧ ، ١١٨ .

(٥) الضمير فى أحجم : يرجع للأسد الذى بارزه الممدوح والمعنى أن الأسد أحجم عنه لأنه لم يجد فيه مطمعا لقوته ، فلما عرف أنه لا ينجو منه أقدم دهشا إليه .

هذا وكما يقع السجع فى كلام شخص واحد ، فقد يقع فى كلام شخصين ، كما حكى أنه قيل لرجل : ما أحسن السجع ؟ قال : ما راق فى السمع ، قيل : مثل ماذا ؟ قال : مثل هذا .... ومنه ما روى أن النبى صلى الله عليه وسلم سأل عمن قتل أحد الكفرة فقالو له : "ابن الأكوع" ، فقال عليه الصلاة والسلام : " له سلبه أجمع " .

وأما أنواعه الخاصة بالشعر فهى :

١- التشطير: وهو أن يجعل كل شطر من شطرى البيت سجعتان بحيث تختلف سجعتا كل شطر عن سجعتى الشطر الآخر فى القافية ...

كما فى قول أبى تمام :

تدبير معتصم بالله منتقم   لله مرتقب فى الله مرتغب

٢- التصريع : وهو جعل كل شطر من شطرى البيت فقرة ، فتكون العروض مقفاة تقفية الضرب ، وهذا النوع يحسن فى أول أبيات القصيدة ، وعند الانتقال من غرض إلى آخر كالانتقال من النسيب إلى المديح ، وفيما عدا هذين الموضوعين ، يحسن ما قل منه دون ما كثر ...

ومن شواهده قول أبى فراس :

بأطراف المثقفة العوالى   تفردتا بأوساط المعالى

وقول امرئ القيس :

ألا عم صباحا أيها الطلل البالى   وهل ينعمن من كان فى العصر الخالى

وقوله فى مطلع معلقته :

قفا نبك من ذكرى حبيب   بسقط اللوى بين الدخول فحومل

وفى أثنائها :

أفاطم مهلا بعض هذا التدلــــل وإن كنت قد أزمعت صرمى فأجملى

وقول أبى العتاهية :

الفقـــر فيمــا جــاوز الكفافـــا مــن اتقـــى الله رجــا وخافـــا

٣- ان يكون غير مصروع ولا مشطور ... كما فى قول الخنساء :

حامى الحقيقـــة محمـــود الخليقـــة ـــدى الطريقة نفـــاع وضـــرار

وقول أبى تمام :

تجلى به رشدى وأثرت بـــه يـــدى وفاض به ثمدى وأورى به زنـــدى

بناء الأسجاع : وفواصل الأسجاع موضوعة على أن تكون ساكنة الأعجاز . موقوفا عليها ، إذ الغرض أن يزاوج بينها ولا يتم ذلك فى كل صورة إلا بالوقف والبنـــاء على السكون ... ففى قول قس بن ساعدة الإيادى : " من عاش مات ، ومـــــن مـــات فات ، وكل ما هو آت آت ...." وقول الآخر : " ما أبعد ما فات ، وما أقرب مـــاهو آت " لو لم نقف بالسكون لفات الغرض من السجع ، إذ التاء من "مات وفات " تصـــير مفتوحة ومن " آت " تصير مكسورة منونة ، وذلك حسب إجدراء حركات الإعـــراب أو البناء على آخر الفواصل ، وهذا الإجراء لا يحقق التزاوج بين الفواصــــل ، فوجــب الوقوف عليها وتسكين أعجازها .

السجع من حيث طول الفقر وقصرها : والسجع على اختـــلاف أنواعــه ينقسم من حيث طول فقره وقصرها إلى قسمين :

١- سجع قصير .

٢- سجع طويل .

فالقصير : ما كان مؤلفا من ألفاظ قليلة إذ يبدأ بكلمتين وينتهى إلى تسع كلمات أو عشر .... كما فى الآيات الكريمة : ﴿ **والمرسلات عرفا فالعاصفات عصفا ...**﴾[1] ، ﴿ **يا أيها المدثر . قم فأنذر وربك فكبر وثيابك فطهر والرجز فاهجر ...** ﴾[2] ، ﴿ **والنجم إذا هوى . ما ضل صاحبكم وما غوى . وما ينطق عن الهوى ...** ﴾[3] ، ﴿ **اقتربت الساعة وانشق القمر . وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر . وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر ...**﴾[4] .

والطويل : ما كان مؤلفا من ألفاظ طويلة ... وتتفاوت درجاته فى الطول ، إذ يبدأ من إحدى عشرة لفظة ، وينتهى إلى عشرين فما فوقها ، ومنه قوله تعالى : ﴿**ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور . ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عنى إنه لفرح فخور** ﴾[5] ، وقوله عز وجل : ﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم . فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم** ﴾[6]، وقوله تعالى : ﴿ **إذ يريكهم الله فى منامك قليلا ولو أراكهم كثيرا لفشلتم ولتنازعتم فى الأمر ولكن الله سلم إنه عليم بذات الصدور . وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلا ويقللكم فى أعينهم ليقضى الله أمرا كان مفعولا وإلى الله ترجع الأمور ...** ﴾[7] .

---

(١) سورة المرسلات آية ١ ، ٢ .

(٢) سورة المدثر الآية ١-٥ .

(٣) سورة النجم الآية ١-٣ .

(٤) سورة القمر الآية ١-٣ .

(٥) سورة هود الآية ٩ ، ١٠ .

(٦) سورة التوبة الآية ١٢٨ ، ١٢٩ .

(٧) سورة الأنفال الآية ٤٣ ، ٤٤ .

ويرى البعض أن السجع من حيث طول فقره وقصرها ثلاثة أقسام طويل ووسط وقصير ، فالقصير يبدأ بكلمتين وينتهى إلى أربع كلمات والوسط يبدأ من خمس إلى عشر والطويل مافوق ذلك ، ولا أرى فائدة لهذا الاختلاف ، كما لا أرى فائدة وراء هذه التقسيمات ، فالأولى أن يقال : إن السجع يبدأ بكلمتين وينتهى إلى العشرين أو ما قاربها ...

السجع من حيث تساوى فقره وعدم تساويها : والسجع قد تتساوى فقره كما فى قوله تعالى : ﴿ **فى سدر مخضود وطلح منضود وظل ممدود** ﴾[1] ، وقوله تعالى : ﴿ **فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر** ﴾[2] ، وقد تطول الفقرة الثانية طولا لا يخرج بها عن حد الاعتدال كقوله تعالى : ﴿ **والنجم إذا هوى ماضل صاحبكم وما غوى** ﴾[3] ، وقد تتساوى الأولى والثانية وتطول الثالثة كقوله تعالى : ﴿ **خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه ...**﴾[4] ، وقد تكون الثانية أقصر من الأولى قصرا يسيرا كقوله تعالى : ﴿ **ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ألم يجعل كيدهم فى تضليل** ﴾[5] ... وهذه الأنواع كلها حسنة وقد وردت فى أساليب القرآن الكريم - كما رأينا - ، ويذكر البعض أن أحسن السجع ما تساوت قرائنه ثم ما طالت قرينته الثانية ثم الثالثة ثم ما قصرت قرينته الثانية قصرا يسيرا .... ولا وجه لهذا التفضيل خاصة وأن الكل قد ورد فى النظم الكريم ، فالأولى أن يقال إن كل نوع منها حسن فى موضعه ... أما ما يستقبح فهو أن تطول الفقرة الثانية عن الأولى كثيرا بحيث يخرج بها هذا الطول عن حد

---

(١) سورة الواقعة آية ٢٨ - ٣٠ .

(٢) سورة الضحى آية ٩ ، ١٠ .

(٣) سورة النجم آية ١ ، ٢ .

(٤) سورة الحاقة آية ٣٠ ، ٣١ .

(٥) سورة الفيل آية ١ ، ٢ .

الاعتدال ، لأن هذا يفوت على السامع لذة الاستمتاع بالقافية لبعدها بعدا كثيرا ... كما يقبح أن تقصر الثانية عن الأولى قصرا كثيرا لأن السجع إذا استوفى أمده من الأولى لطولها ثم جاءت الثانية أقصر منها كثيرا ، كان ذلك كالشئ المبتور ، ويبقى السامع كمن يريد الانتهاء إلى غاية فيعثر دونها ... ولم يرد شئ من ذلك فى أساليب النظم الكريم ....

السجع عبر العصور : السجع مصطلح بلاغى عرف منذ العصر الجاهلى ، قبل أن توضع مصطلحات العلوم ، ومنذ معرفته فى ذلك العصر وحتى الآن ، ودلالته لم تتغير ولم تتبدل ، وعلى الرغم من أن بعض العلماء قد أطلقوا على هذا الأسلوب فى القرآن الكريم اسم " الفواصل " بدلا من السجع ، إلا أن دلالته ظلت باقية حتى الآن ... وكان للسجع منزلة سنية بين العرب فى الجاهلية فلقد كثر فى كلامهم ، وكان يصدر عن طبع سليم وسليقة قوية وفطرة واضحة ... من ذلك قول أوس بن حارثة موصيا ابنه : " يا مالك ، المنية ولا الدنية ، والعتاب قبل العقاب ، والتجلد لا التبلد ، واعلم أن القبر خير من الفقر ، وشر شارب المشتف ، وأقبح طاعم المقتف ، وذهاب البصر خير من كثير النظر ..."[(١)] ... وقول قس بن ساعدة الإيادى فى سوق عكاظ : " أيها الناس اسمعوا وعوا ، من عاش مات ومن مات فات ، وكل ماهو آت آت ، ليل داج ونهار ساج وسماء ذات أبراج ، ونجوم تزهر وبحار تزخر ...." ، وقول عبد المطلب بن هاشم يهنئ سيف بن ذى يزن باسترداد ملكه من الحبشة : " إن الله تعالى- أيها الملك - أحلك محلا رفيعا صعبا منيعا ، باذخا شامخا وأنبتك منبتا طابت أرومته ، وعزت جرثومته ، وثبت أصله ، وبسق فرعه ، فى أكرم معدن وأطيب موطن ..."[(٢)] ، ... وإلى جانب هذا السجع الفطرى ، وجد نوع آخر من السجع المتكلف وهو سجع الكهان ، كقول سطيح بن مازن وهو من كهان العرب ، فى تعبير رؤيا ربيعة بن نصر اللخمى أحد

---

(١) المشتف : المستقصى . والمقتف : العجول .

(٢) الباذخ : العالى . والأرومة وكذلك الجرثومة : الأصل .

ملوك اليمن: "أحلف بما بين الحرتين من حنش ليهبطن أرضكم الحبش ، وليملكن ما بين أبين إلى جرش "[١] .... وقول شق أنمار من كهان العرب في تعبير تلك الرؤيا : " أحلف بما بين الحرتين من إنسان لينزلن أرضكم السودان ، وليغلبن على كل طَفْلَة البنان وليملكن إلى ما بين أبين ونجران "[٢] ، وقول الكاهن الخزاعي في تنفير هاشم بن عبد مناف على أخيه أمية بن عبد شمس : " والقمر الباهر والكوكب الزاهر والغمام الماطر وما بالجو من طائر وما اهتدى بعلم مسافر من منجد أو غائر ، لقد سبق هاشم أمية إلى المآثر .. " .

وفي العصر الإسلامي ، نهى النبي ﷺ عن سجع الكهان ، فقد روى أنه ﷺ، قضى في جنين امرأة ضربتها أخرى فسقط ميتا ، بغرة أي : عبد أو أمة على عاقلة الضاربة ، فقال رجل منهم : كيف ندى من لا شرب ولا أكل ، ولا صاح فاستهل، ومثل ذلك دمه يطل "[٣] ، فقال صلى الله عليه وسلم : " إياكم وسجع الكهان ، أو أسجعا كسجع الكهان " ، وسبب نهيه عليه الصلاة والسلام عن سجع الكهان ، يرجع إلى ما فيه من التكلف والتصنع ، وما تضمنه من أحكام تخالف تعاليم الإسلام ، وما يقصد إليه الكاهن من التزييف وتزيين الباطل كي يعلو على الحق ... و لم يقصد عليه الصلاة والسلام - النهي عن السجع مطلقا ، بل قصد النهي عن هذا النوع منه وهو سجع الكهان .... ودليل ذلك أن أسلوب السجع قد ورد في النظم الكريم على نحو ما رأينا ..

كما ورد في أقواله صلى الله عليه وسلم ، من ذلك قوله : " يقول العبد : مالي مالي ، وإنما لك من مالك ما أكلت فأفنيت ، أو أعطيت فأمضيت أو لبست فأبليت ...." ، وقوله : " أيها الناس ، أفشوا السلام وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلوا بالليل

---

(١) الحرتان : تثنية حرة وهي أرض ذات حجارة نخرة سود ، والحنش : الذباب والحية وكل ما يصاد من الطير والهوام وحشرات الأرض ، وجرش : مخلاف باليمن .

(٢) طفلةالبنان : رخصة البنان أي ناعمته . بفتح الطاء واللام وسكون الفاء ..

(٣) يطل : أي يهدر ..

والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام " ... وفى أقوال أصحابه رضوان الله عليهم ... من ذلك قول عبد الله بن عباس فى وصف أبى بكر الصديق - رضى الله عنهم : " رحم الله أبا بكر كان والله للقرآن تاليا وعن المنكر ناهيا وبذنبه عارفا ومن الله لاخائفا وعن الشبهات زاجرا وبالمعروف آمرا ، وبالليل قائما وبالنهار صائما ، فاق أصحابه ورعا وكفافا ، وسادهم زهدا وعفافا " ....

وإذا كان سجع الكهان قد اختفى بمجئ الإسلام ، فقد ظهر نوع آخر من السجع أغرق منه فى الكذب والضلال ، وأكثر منه اضطرابا فى النظم وسماجة التركيب ، ألا وهو سجع مدعى النبوة الذين استخفوا قومهم فأطاعوهم .... من ذلك قول مسيلمة الكذاب : " يا ضفدع نقى نقى ،كم تنقين لا الماء تكدرين ولا الشراب تمنعين ..." ، وقوله : " سبح اسم ربك الأعلى الذى يسر على الحبلى ، فأخرج منها نسمة تسعى ، من بين أحشاء ومعى ، فمنهم من يموت ويدس فى الثرى ، ومنهم من يعيش ويبقى ، إلى أجل ومنتهى والله يعلم السر وأخفى ، ولا تخفى عليه الآخرة والأولى ..."(١) ، ... وإذا ما استثنينا هذا النوع وهو سجع مدعى النبوة ، نجد أن أسلوب السجع ظل قويا مطبوعا وبخاصة فى الوصايا والحكم والوعظ والأجوبة والنوادر وغير ذلك من فنون القول حتى أواسط القرن الرابع الهجرى حيث امتزج العجم بالعرب ، ودب الفساد فى اللغة ، وعدل القوم عن الأسلوب الفطرى المطبوع ، وتحولوا إلى الزخرف والزينة ، فكان الإسراف والإفراط ، وظهرت الصنعة والتكلف ، ليس فى السجع فقط ، بل فى مختلف الفنون البلاغية ....

آراء العلماء فى أسلوب السجع : ولا تفوتنا الإشارة بإيجاز إلى آراء العلماء فى أسلوب السجع من حيث الإباحة والحظر ومن حيث جواز إطلاقه على ما فى القرآن الكريم من فواصل وعدم الجواز فقد اختلفت آراء العلماء فى ذلك ، فمنهم من عاب أسلوب السجع وعده من الأساليب التى تقوم أكثر ما تقوم على الصنعة وعلى التكلف

---

(١) انظر نهاية الإيجاز ص ٣٤ وثمار القلوب ص ١١٥ .

والتعسف وهم يستدلون على وجهة نظرهم هذه بما آل إليه حال البيان العربى من تدهور وانحطاط فى العصور التى شاع فيها استعمال السجع ... ومنهم من استحسنه ودافع عنه محتجا بأنه لو كان مذموما لما ورد فى النظم الكريم ، حيث لا تكاد سورة تخلوه منه ، بل إن من سوره ما جاءت جميعها مسجوعة كسورة القمر وسورة الرحمن وغيرهما ... ومنهم من أجاز إطلاق السجع على ما فى القرآن الكريم .... ومنهم من منعه وأطلق عليه اسم " الفواصل " ....

وخلاصة الرأى فى هذا الخلاف ، أن منع إطلاق مصطلح السجع على ما فى القرآن الكريم ، إنما هو لرعاية الأدب فقط ، لأن السجع فى الأصل هديل الحمام ونحوه ، ولأنه قد شاع إطلاق هذا المصطلح على أقوال الكهان و لم يرد نص شرعى صريح يمنع من إطلاق السجع على ما فى القرآن الكريم ، أما نهى النبى عن السجع فهو مقيد بسجع الكهان ، وليس مطلقا ، وقد مر بنا سبب هذا النهى ....

والسجع كغيره من ألوان البلاغة إنما يستحسن ويستجاد إذا صدر عن طبع وجاء عفوا وقاد إليه المعنى ، أما إذا تكلف وتصنع ، وصار هو الذى يقود إلى المعنى ، فإنه يستقبح ويعاب ويرد على قائله .... يقول عبد القاهر : "ولن تجد أيمن طائرا ولا أحسن أولا وآخرا ، وأهدى إلى الإحسان وأجلب إلى الاستحسان ، من أن ترسل المعانى على سجيتها ، وتدعها تطلب لأنفسها الألفاظ ، فإنها إذا تركت وما تريد لم تكتس منها إلا ما يليق بها ، و لم تلبس من المعارض إلا ما يزينها ... فأما أن تضع فى نفسك أنك لابد من أن تجنس أو تسجع بلفظين مخصوصين ، فهو الذى أنت منه بعرض الاستكراه ، وعلى خطر من الخطأ والوقوع فى الذم ...."(١) .

<u>بلاغة السجع</u> : وترجع بلاغة السجع إلى أنه يؤثر فى النفوس تأثير السحر ويلعب بالأفهام لعب الريح بالهشيم ، لما يحدثه من النغمة المؤثرة والموسيقى القوية التى تطرب لها

---

(١) أسرار البلاغة ص ٢٣ .

الأذن وتهش لها النفس ، فتقبل على السماع من غير أن يداخلها ملل أو يخالطها فتور ، فيتمكن المعنى فى الأذهان ، ويقر فى الأفكار ، ويعز لدى العقول [1].. كما أن من مزايا السجع فى النظم الكريم شدة ارتباط الفاصلة وتماسكها بما قبلها من الكلام بحيث تنحدر على الأسماع انحدارا ، وكأن ما سبقها لم يكن إلا تمهيدا لها وبحيث لو حذفت لاختل معنى الكلام ، ولو سكت عنها لاستطاع السامع أن يختمه بها انسياقا مع الطبع والذوق السليم .. انظر إلى قوله تعالى : ﴿ **أفرأيتم اللات والعزى . ومناة الثالثة الأخرى . ألكم الذكر وله الأنثى . تلك إذا قسمة ضيزى** ﴾[2] ، تجد أن كلمة ﴿ **ضيزى** ﴾ الواقعة فى الفاصلة تتماسك مع المعنى وتنحدر على الأسماع وتنساق مع السياق انسياقا تاما ، وهى لفظة غريبة ولكن غرابتها من أشد الأشياء ملاءمة لغرابة تلك القسمة التى أنكرها النظم الكريم [3] ، وذلك هو شأن الفواصل فى جميع آى الذكر الحكيم ..

☆ ☆ ☆

---

(١) انظر الصيغ البديعى ٤٩٧ .

(٢) سورة النجم آية ٢٢ .

(٣) انظر إعجاز القرآن للرافعى ص ٢٦١

رد الأعجاز على الصدور

ورد العجز على الصدر أو الأعجاز على الصدور ، من الفنون البديعية التى فطن لها القدماء ، فقد جعله ابن المعتز أحد الفنون الخمسة الرئيسية للبديع وسماه : " رد أعجاز الكلام على ما تقدمها " وأشار إلى أنه يرد فى النثر كما يرد فى الشعر .... وقد عرفه المتأخرون من البلاغيين بأنه : " أن يجعل أحد اللفظين المكررين أو المتجانسين او الملحقين بهما فى أول الفقرة والآخر فى آخرها ، هذا فى النثر ، أما فى الشعر فهو أن يكون أحد اللفظين فى آخر البيت والآخر فى صدر المصراع الأول أو فى حشوه أو فى آخره أو فى صدر المصراع الثانى ."[١] ..

واللفظان المكرران هما المتفقان فى اللفظ والمعنى ، والمتجانسان هما المتشابهان فى اللفظ دون المعنى - كما مر بنا فى الجناس - وأما الملحقان بهما أى بالمتجانسين فهما اللفظان اللذان يجمعهما الاشتقاق أو شبهه .... من ذلك قوله تعالى : ﴿**وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ...**﴾[٢] وقوله عز وجل : ﴿ **فقلت أستغفروا ربكم إنه كان غفارا ...**﴾[٣] ، .... ﴿ **وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ....**﴾[٤] .... ﴿ **قال إنى لعملكم من القالين** ﴾[٥] ، ﴿ **فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين** ﴾[٦] ... ومن أقوالهم :

---

(١) انظر بغية الإيضاح ٨٧/٤ .

(٢) سورة الأحزاب آية ٣٧ .

(٣) سورة نوح آية ١٠ .

(٤) سورة آل عمران آية ٨ .

(٥) سورة الشعراء آية ١٦٨ .

(٦) سورة الأنبياء آية ٨٧ .

"القتل أنفى للقتل" ..."الحيلة ترك الحيلة " .... " سائل اللئيم يرجع ودمعه سائل " ....
ومنه شعرا قول الأقيشر الأسدى :

سريع إلى ابن العم يلطـــم وجهــه وليس إلى داعى الندى بســـريع

وقول الشافعى رضى الله عنه :

مشـــيناها خطـــى كتبـــت علينـــا ومن كتبت عليه خطى مشاها

وقول القاضى الأرجانى :

دعـــانى مـــن ملامكمـــا ســـفاها فداعى الشوق قبلكما دعانى

وقول امرئ القيس :

إذا المرء لم يخـــزن عليـــه لســـانه فليس على شئ سواه بخـــزان

وقول أبى الأسود الدؤلى :

وما كل ذى لب بمؤتيك نصحــــه ولا كل مؤت نصحه بلبيـــب

وقول الآخر :

إذا لم تســـتطع شـــيئا فدعـــه وجـــاوزه إلى مـــا تســـتطيع

وقول الحماسى :

تمتـــع مـــن شميـــم عَـــرَار نجـــد فما بعد العشية من عـــرار[1]

وقول جرير :

زعم الفرزدق أن ســـيقتل مربعـــا أبشر بطول سلامة يا مربـــع

---

(١) شميم : مصدر شم . والعرار : بهار ناعم أصفر طيب الرائحة ، أو النرجس البرى .

وقول الحريرى :

فمشــغوف بآيـــات المثـــانى ومفتون برنـــات المثـــانى[1]

وقول الآخر :

فدع الوعيد فما وعيدك ضـــائرى أطنين أجنحة الذباب يضـــير

وقول أبى تمام :

وقد كانت البيض القواضب فى الوغى بواتر فهى الآن من بعده بـــتر[2]

وقول الآخر :

نـــاظراه فيمـــا جنـــى نـــاظراه أو دعانى أمت بمـــا أو دعـــانى

وقول القاضى الأرجانى :

أملتهـــم ثـــم تـــأملتهم فلاح لى أن ليس فيهم فلاح[3]

هذا ولا يخفى عليك معرفة نوع اللفظين فى الشواهد المذكورة ، أهما مكرران أم متجانسان أم ملحقان .... كما لا يخفى عليك معرفة موضع اللفظ الأول المردود عليه فى الشواهد الشعرية أهو فى أول المصراع الأول أم فى حشوه أم فى آخره أم فـــى أول المصراع الثانى ....

ما الفرق بين الإرصاد وبين رد العجز على الصدر ؟ :

مر بنا أن الإرصاد هو أن تجعل قبل العجز ما يدل عليه إذا عرف الروى ، كقولـــه تعالى : ﴿**وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ...**﴾[4] .

---

(١) المثانى : الأولى آيات القرآن والثانية أوتار المزامير .

(٢) بواتر جمع باتر وهو القاطع ، وبتر بضم الباء وسكون التاء جمع أبتر وهو المقطوع .

(٣) أملت بفتح الميم المشددة : رجوت الخير وتأملت : نظرت فى أحوالهم .

وقول زهير بن أبى سلمى :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولا - لا أبالك - يسأم

وقول عدى بن الرقاع :

تزجي أغن كـأن إبـرة روقـه قلم أصاب من الـدواة مدادهـا

فقد دل قوله عز وجل : ﴿ **ليظلمهـم**﴾ علـى أن ختـام الآيـة الكريمـة : ﴿ **يظلمون** ﴾ ، ودل قول زهير : " سئمت " على أن عجز بيت : " يسأم " ودل قـول عدى : "قلم أصاب من الدواة " على أن عجز البيت : "مدادها" ....

وعندما نتأمل الشواهد فى رد الأعجاز على الصدور ، نجد أن الصدر المـردود عليه قد دل على العجز ، فما الفرق إذا بينه وبين الإرصاد ؟ .... الفرق بينهما هو أن رد الأعجاز على الصدور قد قيد بكون اللفظين إما مكررين أو متجانسين أو ملحقين بالمتجانسين ، أما الإرصاد فلم يقيد بذلك ، فالدال على العجز فى الإرصـاد قد يكـون هو نفس العجـز كما فى الآية الكريمـة وبيت زهير فيكون من التكرار وقـد يكـون مجانسا له أو ملحقا بالمتجانس ، وقد يكون غير ذلك كما فى بيت عـدى .... وبهـذا نستطيع أن نقول: إن الإرصاد أعم من رد الأعجاز على الصدور ....

بلاغة رد الأعجاز على الصدور : وترجع بلاغة هذا الفن إلى أمريـن : أولهمـا : دلالته على تأكيد المعانى وتقريرها، وذلك أن اللفظ عندما يكرر أو يذكر مجانسا للآخـر يتأكد معناه فى ذهن السامع ويتقرر .... انظر إلى قول القائل :

عميـد بنـى سـليم أقصدتـه سهام الموت وهى لـه سـهام

تجد أن تكرار السهام قد قرر المعنى وأكد المأساة، فهذا بطل شجاع ظل طوال حياته يقاتل ولا يحمل سوى سهام الموت التى يوجهها إلى أعدائه ، ثم إن تلك السهام لم

---

(٤) سورة العنكبوت الآية ٤٠ .

تغفل عنه فقد قصدته و لم تبق عليه ، فاعجب للموت ينزل به الموت والرجل يصاب بمثل سهمه ...

وتأمل قول الآخر :

وما كل ذى لب بمؤتيك نصحـــه ولا كل مؤت نصحـــه بلبيـــب

تجده يحذر من قبول نصيحة الناصح دون ترو فى قبولها وتأن فى أخذها ، ثـــم يؤكد ذلك بالمجانسة بين : لب ولبيب[١] فأنت أمام رجلين أحدهمـــا ذو لـــب بخيـــل بنصيحته ، والآخر جاهل يؤتى النصيحة عن جهل وحماقة ، وإذا كان الأمر كذلك فعليك بالتروى والتأنى فى قبول النصيحة ...

ثانيهما : دلالة أول الكلام على آخره ، وارتباط آخره بأوله ، وتلك هى البلاغة – كما أوضحنا فى حديثنا عن الإرصاد – فقد قال الخبراء بفن القول : البلاغة أن يكون أول كلامك دالا على آخره ، وآخره مرتبطا بأوله ... وقد كان صناع الكلام يفخرون بدلالة أول كلامهم على آخره ، وارتباط آخره بأوله كما كان النقاد يفطنون للكلام الجيد المتماسك ويدركون آخره عند سماعهم لأوله[٢] ...

* * *

---

(١) بين اللفظين جناس الاشتقاق .

(٢) انظر الإرصاد ص ١٦٠ من هذا القسم .

لزوم ما لا يلزم

لزوم ما لا يلزم – كما يقول ابن الأثير – من أشق هذه الصناعة أى : صناعة الكلام مذهبا وأبعدها مسلكا وذلك لأن مؤلفه يلتزم فيه بما لا يلزمه .. وقد عده ابن المعتز فى كتابه البديع من محاسن الكلام وسماه : إعنات الشاعر نفسه فى القوافى وتكلفه من ذلك ما ليس له .. وقد عرفه الخطيب القزوينى بقوله : " هو أن يجئ قبل حرف الروى أو ما فى معناه من الفاصلة ما ليس بلازم فى السجع "(١) فالشاعر أو الناثر قد يلتزم فى كلامه بحرف أو أكثر قبل حرف الروى ، وهذا يعد حسنا إذا صدر عن طبع وجاء عفوا أما إذا تكلف وتصنع كان قبيحا كما هو الشأن فى سائر ألوان البديع ...

ومن شواهده فى النظم الكريم قوله تعالى : ﴿ **فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر** ....﴾ (٢) ، وقوله تعالى: ﴿ **والطور وكتاب مسطور** ....﴾(٣) ، وقوله تعالى: ﴿ **والتفت الساق بالساق إلى ربك يومئذالمساق**.... ﴾(٤) ، وقوله : ﴿ **إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون . وإخوانهم يمدونهم فى الغي ثم لا يقصرون** ...﴾(٥) ، فقد التزم قبل حرف الروى فى تلك الآيات بحرف فى بعضها وبأكثر فى البعض الآخر ، ولا يخفى أن هذا غير مقصود فى الآيات الكريمة ، وقد اقتضاه المقام واستدعته المناسبة وجاء تابعا للمعنى ، وليس المعنى تابعا له ... ومن أقوالهم قول بديع الزمان الهمذانى : " هلموا إلى كلامه فهو بعيد الإشارات قليل

---

(١) انظر الإيضاح ٤ / ١٠٣ .

(٢) سورة الضحى الآية ٩ ، ١٠ .

(٣) سورة الطور الآية ١ ، ٢ .

(٤) سورة القيامة الآية ٢٩ ، ٣٠ .

(٥) سورة الأعراف الآية ٢٠٢ .

الاستعارات ، قريب العبارات ... " وقول الحريرى " ملت فى ريق زمانى الذى غبر ، إلى مجاورة أهل الوبر ، لآخذ أخـــذ نفوسهم الأبية وألسنتهم العربية ..." ، .. ومنه شـــعرا قول طرفة بن العبد :

ألم تـــر أن المـــال يكســـب أهلـــــه فضوحا إذا لم يعط منه نواســـبه

أرى كـــل مـــال لا محالـــة ذاهبـــا وأفضله يبقى وإن هان كاســـبه

وقول الفرزدق :

منـــع الحيـــاة مـــن الرجـــال ونفعهـــا حدق تقلبهـــا النســـاء مـــراض

وكـــأن أفئـــدة الرجـــال إذا رأوا حدق النســـاء لنبلهـــا أغـــراض

وقول الآخر :

سأشكر عمـــرا إن تراخـــت منيتـــى أيادى لم تمنن وإن هـــى جلـــت

فتى غير محجوب الغنى عـــن صديقـــه ولا مظهر الشكوى إذا النعل زلت

رأى خلتى من حيث يخفـــى مكانهـــا فكانت قذى عينيه حتى تجلـــت

وقول كثير عزة :

خليلـــى هـــذا ربـــع عـــزة فـــاعقلا قلو صيكما ثم احللا حيث حلت

وما كنت أدرى قبل عزة مـــا الهـــوى ولا موجعات الحزن حتى تولـــت

وقول ابن الرومى :

يقولون فـــى البســـتان للعـــين لـــذة وفى الخمر والماء الـــذى غـــير آســـن

إذا شئت أن تلقـــى المحاســـن كلهـــا ففى وجه من تهوى جميع المحاســـن

وقول أبى تمام :

خدم العـــلا فخدمتـــه وهـــى التـــى لا تخـــدم الأقـــوام مـــالم تخـــدم

فإذا ارتقى فـــى قلــة مـــن ســؤدد قالت له الأخرى : بلغت تقـــدم

وقول ابن أذينة :

إن الـــتى زعمـــت فـــؤادك ملهـــا خلقت هواك كما خلقت هوى لها

بيضـــاء باكرها النعـــيم فصاغها بلباقـــة فأدقهـــا وأجلهـــا

هذا والتزام ما لا يلزم لدى المتقدمين كما يبدو من شعرهم يأتى عفو الخـــاطر غير مقصود ولا متعمد ، ولذا لا ترى عليه أثرا للتكلف أو الصنعة ... أما المتأخرون فقد توسعوا فيه وأكثروا منه ومنهم من تعمده وقصد إليه قصدا ، وكأنما يريد أن يدل علـــى مقدرته فى النظم وسعة إحاطته بمفردات اللغة ... ومن هؤلاء أبو العلاء المعـــرى ، فلـــه ديوان يسمى باللزوميات أتى فيه بالجيد الذى يحمد وبالردئ الذى يذم ...

ومن جيده قوله :

أرى الدنيا ومـــا وصفـــت بـــبر إذا أغنـــت فقـــيرا أرهقتـــه

إذا خشـــيت لشـــر عجلتـــه وإن رجيـــت لخـــير عوقتـــه

حيـــاة كالحبالـــة ذات مكـــر ونفس المـــرء صيـــدا أعلقتـــه

فـــلا يخـــدع بحيلتهـــا أريـــب وإن هـــى ســـورته ونطقتـــه

أذاقتـــه شـــهيا مـــن جناهـــا وصـــدت فـــاه عمـــا ذوقتـــه

وكما يكون التزام ما لا يلزم فى الحرف يكون فى الحركة وحدها ، كما فـــى قول ابن الرومى :

لما تؤذن الدنيا به مـــن صروفهـــا يكون بكاء الطفل ساعة يولـــد

وإلا فمـــا يبكيـــه منهـــا وإنهـــا لأوسع مما كـــان فيـــه وأرغـــد

ومما تجدر الإشارة إليه أن هنالك فرقا بين لزوم ما يلزم ولزوم ما لا يلزم في القوافي ... فمن باب لزوم ما يلزم قول القائل :

في شعاب النسيان أفرد وحدى فعبرت الأيام حيا كميت

أجد الغدر والعقوق من النا س وألقى الظلام فى عقربيتى

فقد التزم الشاعر هنا حرف الياء الساكنة قبل القافية " التاء " والياء هنا ردف يجب عليه الالتزام به في جميع أبيات القصيدة فتركه يعد عيبا من عيوب القافية .... أما لزوم ما لا يلزم فلا يعد تركه عيبا ، بل يجوز للشاعر أن يلتزم به وأن يعدل عنه ...

وخلاصة القول أن لزوم ما لا يلزم يعد من محاسن الكلام إذا وفق فيه الأديب فجاء عفوا بلا تكلف ولا تعمل ، وكان المعنى هو الذى يقود إليه ويستدعيه ، وليس هو الذى يقود إلى المعنى ، وإلا عد من مساوئ الكلام وقبحه لا من محاسنه ...

★ ★ ★

السرقات الشعرية

أول من أشار إلى موضوع السرقات الشعرية هو الجاحظ وذلك في معرض حديثه عن التأثر والتأثير بين الشعراء ، إذ يقول : " لا يعلم في الأرض شاعر تقدم فـــي تشـــبيه مصيب تام ، وفي معنى غريب عجيب ، أو في معنى شريف كريم ، أو في بديع مخترع ، إلا وكل من جاء من الشعراء من بعده أو معـــه ، إنه هو لم يعد على لفظه فيسرق بعضه أو يدعيه بأسره ، فإنه لا يدع أن يستعين بالمعنى ويجعل نفسه شريكا فيه ، كالمعنى الذى تتنازعه الشعراء فتختلف ألفاظهم وأعاريض أشعارهم ، ولا يكون أحد منهم أحق بذلك المعنى من صاحبه ، أو لعله أن يجحد أنه سمع بذلك المعنى قط وقال : إنه خطر على بـــالى من غير سماع كما خطر على بال الأول [1] ...

ثم كثر الحديث بعد ذلك عن سرقات الشعراء ، وألفت فيها كتـــب ، فرأينـــا " سرقات الشعراء " لعبد الله بن المعتز ، و " سرقات أبى تمام " لأحمد بن أبى طاهر ، وأحمد ابن عمار ، و " سرقات البحترى من أبى تمام " لأبى الضياء بشر بن تميم ، كما كتـــب مهلهل بن يموت فى " سرقات أبى نواس " ...

وقد تعرض البلاغيون لهذا الموضوع ، وتناولوه بالدراسة والبحـــث ، فقـــرروا أن اتفاق الشاعرين فى الغرض العام كالوصف بالشجاعة والسخاء والفقر والثراء والبـــلادة والذكاء ، لا يعد سرقة ، لأن هذه أمور متقررة فى النفوس ، ومصورة أمـــام العقـــول ، يشترك فيها العامة والخاصة ... أما اتفاقهما فى وجه الدلالة على الغرض من تشبيه أو مجاز أو كناية أو حقيقة ، فإن كان مما يشترك الناس فى معرفته لاستقراره فى العقول وجريـــان العادة و العرف به ، كتشبيه الحسناء بالبدر والشمس ، والجواد بالغيث والبحر ، والبليـــد

---

(١) الحيوان ٢ - ١١٥ .

البطئ الفهم بالحجر والحمار ، والشجاع الماضى بالسيف والنـــار ، واســتعارة الأســد للشجاع ، والكناية عن الكرم بكثرة الرماد وهزال الفصيل ... وكوصف الجواد بـــالتهلل عند ورود العفاة ، والارتياح لرؤيتهم ، ووصف البخيل بالعبوس وقلة البشر ، ووصـــف الشجاع حال الحرب بالابتسام وسكون الجوارح ووضوح الوجه لعدم مبالاته بعدوه .... نحو قول القائل :

كـأن دنانــيرا علــى قســـــماتهم وإن كان قد شف الوجــوه لقــاء

فلا يعد اتفاقهما عندئذ سرقة ... وإن كان وجه الدلالة على الغرض مما لا ينال إلا بفكر وروية ، ولا يصل إليه كل أحد ، لكونه فى أصله خاصيا غريبا ، كقول عدى بـــن الرقاع :

تزجــى أغــن كــأن إبــرة روقـــه قلم أصاب من الـــدواة مدادهـــا

وقول أبى تمام فى مدح أحمد بن المعتصم :

إقــدام عمــرو فــى سماحــة حــاتم فى حلم أحنف فى ذكـــاء إيـــاس

فلما انتقد بأن الأمير أرفع وأعز من هؤلاء ، قال معتذرا :

لا تنكروا ضربـــى لــه مــن دونــه مثلا شرودا فى النـــدى والبـــاس
فـــالله قـــد ضـــرب الأقـــل لنـــوره مثـــلا مـــن المشـــكاة والنـــبراس

أو لكونه فى أصله عاميا مبتذلا وتصرف فيه بما يخرجه من العامية إلى الخاصيـــــة ، كقول على بن الجهم :

عشــية حيـــانى بـــــورد كأنـــه خدود أضيفت بعضهن إلى بعـــض

وقول المتنبى :

لم تلق هـــذا الوجــه شمـــس نهارنـــا إلا بوجــه ليـــس فيـــه حيـــاء

فتشبيه الخد بالورد أو الورد بالخد تشبيه عامى مبتذل ، وكذا تشبيه الوجه بالشمس ولكن الشاعرين تصرفا فيه بما أخرجه عن الابتذال حيث جعل على الخدود مضافا بعضها إلى بعض ، وجعل المتنبى للشمس وجها قد انتزع منه الحياء ... فمثل هذا هو الذى تقع فيه السرقة ، وإن اتفق فيه الشاعران يقال إن أحدهما قد سطا على الآخر وسرق منه وانتحل قوله ، أو أغار عليه ومسخ ، أو ألم به وسلخ إلى آخر ما ذكره البلاغيون فى وصف السرقة وتعداد أقسامها ...

أقسام السرقة : جعل البلاغيون السرقة قسمين ، سرقة ظاهرة ، وسرقة غير ظاهرة ، فالسرقة الظاهرة أنواع منها :

١- النسخ : ويقال له أيضا الانتحال ، وهو أخذ المعنى واللفظ معا أو أخذ المعنى ومعظم اللفظ من غير تغيير لنظمه ، وهو مذموم لأنه سرقة محضة ، من ذلك ما روى أن عبد الله بن الزبير دخل على معاوية فأنشده :

إذا أنت لم تنصف أخاك وجدته ... على طرف الهجران إن كان يعقل

ويركب حد السيف من أن تضيمه ... إذا لم يكن عن شفرة السيف مزحل(١)

ثم دخل معن بن أوس المزنى فأنشده قصيدته التى مطلعها :

لعمرك ما أدرى وإنى لأوجل ... على أينا تعدو المنية أول

حتى أتى عليها وفيها بيتا عبد الله فأقبل معاوية على عبد الله وقال له ، ألم تخبرنى أنهما لك ؟ ، فقال : المعنى لى واللفظ له ، وبعد فهو أخى من الرضاعة وأنا أحق بشعره .... وروى لأوس ولزهير هذا البيت :

إذا أنت لم تعرض عن الجهل والخنا ... أصبت حليما أو أصابك جاهل

---

(١) الضيم : الظلم . ومزحل بفتح الميم والحاء وسكون الزاى : مبعد

وروى للفرزدق :

أتعـــدل أحســـابا لئامـــا حماتهـــــا   بأحســـابنا إنـــى إلى الله راجـــــع

ولجرير :

أتعـــدل أحســـابا كرامـــا حماتهـــــا   بأحســـابكم إنـــى إلى الله راجـــع

وروى للأبيرد اليربوعى :

فتى يشـــترى حســـن الثنـــاء بمالـــه   إذا السنة الشهباء أعوزها القطر(١)

ولأبى نواس :

فتى يشـــترى حســـن الثنـــاء بمالـــه   ويعلـــم أن الدائـــرات تـــدور

وروى لأحد المتقدمين يمدح معبدا :

أجاد طُوَيْـــس والسُّـــرَيْحيُّ بعـــده   وما قصبـــات الســـبق إلا لمعبـــد

ولأبى تمام :

محاســـن أصنـــاف المغنـــين جمـــــة   وما قصبـــات الســـبق إلا لمعبـــد

وكقول امرئ القيس :

وقوفا بهـــا صحبـــى علـــى مطيهـــم   يقولون : لا تهلك أســـى وتجمـــل

وقول طرفة :

وقوفاً بهـــا صحبـــى علـــى مطيهـــم   يقولون : لا تهلك أســـى وتجلـــد

وكقول العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه :

وما الناس بالناس الذيـــن عهدتهـــم   ولا الدار بالدار التى كنت تعلم

وقول الفرزدق :

ومالنـــاس بالنـــاس الذيـــن عهدتهـــم   ولا الدار بالدار التى كنت تعرف

---

(١) السنة الشهباء : المجدبة . والقطر : المطر .

وكقول حسان بن ثابت رضى الله عنه فى مدح آل جفنة:

بيض الوجوه كريمة أحسابهم شم الأنوف من الطراز الأول

وقول بعضهم فى الهجاء :

سود الوجوه لئيمة أحسابهم فطس الأنوف من الطراز الآخر

٢- الإغارة أو المسخ : وهو أخذ المعنى واللفظ معا مع تغيير النظم أو أخذ المعنى وبعض اللفظ ... فإن كان الثانى " المأخوذ " أبلغ من الأول " المأخوذ منه " لاختصاصه بحسن النظم وقوة السبك أو الاختصار والإيضاح أو زيادة معنى فهو حسن مقبول .... من ذلك قول بشار :

من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

وقول سلم الخاسر :

من راقب الناس مات غما وفاز باللذة الجسور

فالمعنى فى البيتين واحد ، وبيت سلم أجود سبكا وأخصر لفظا وقد شهد بشار لتلميذه " سلم " بهذا فقال : " ذهب والله بيتى فهو - أى بيت سلم - أخف منه وأعذب ....." .

وإن كان الثانى " المأخوذ " دون الأول "المأخوذ منه" فى البلاغة فهو مذموم مردود ، كقول أبى تمام :

هيهات لا يأتى الزمان بمثله إن الزمان بمثله لبخيل

وقول أبى الطيب :

أعدى الزمان سخاؤه فسخا به ولقد يكون به الزمان بخيلا

فمصراع بيت أبى تمام أحسن سبكا من مصراع بيت أبى الطيب ، لأنه أراد أن يقول : كان الزمان به بخيلا ، فعدل عن الماضى إلى المضارع للوزن ... وإن كان

الثانى مثل الأول ، فالخطب فيه أهون ، وصاحب الثانى أبعد عن المذمة ، والفضل لصاحب الأول ، من ذلك قول بشار :

يا قوم أذنى لبعض الحى عاشقة والأذن تعشق قبل العين أحيانا

وقول الآخر :

وإنى امرؤ أحببتكم لمكارم سمعت بها والأذن كالعين تعشق

وكقول أبى تمام :

لو حار مرتاد المنية لم يجد إلا الفراق على النفوس دليلا

وقول أبى الطيب :

لولا مفارقة الأحباب ما وجدت لها المنايا إلى أرواحنا سبلا

٣- الإلمام أو السلخ : وهو أخذ المعنى وحده دون اللفظ ، وهذا أدق أنواع السرقات مذهبا وأحسنها صورة ، ويأتى على ثلاثة ألوان .... أولها : أن يكون الثانى أبلغ من الأول لحسن نظمه وجودة سبكه . كما فى قول البحترى :

تصد حياء أن تراك بأوجه أتى الذنب عاصيها فليم مطيعها(١)

وقول أبى الطيب :

وجرم جره سفهاء قوم وحل بغير جارمه العذاب

فبيت المتنبى أجود سبكا وأحسن وصفا ، وكأنه قد اقتبسه من قوله تعالى : ﴿ **أتهلكنا بما فعل السفهاء منا..**﴾(٢).

---

(١) تصد : بمعنى تصرف وفاعله ضمير مستتر يعود على تغلب ، والخطاب فى : تراك للخليفة المتوكل .

(٢) سورة الأعراف الآية ١٥٥ .

وكقول القائل :

ولست بنظار إلى جانب الغنى إذا كانت العلياء فى جانب الفقر

وقول أبى تمام بعده :

يصد عن الدنيا إذا عن سؤدد ولو برزت فى زى عذراء ناهد

فبيت أبى تمام أخصر وأبلغ ، لأن الصد عن الدنيا أبلغ من نفى النظر إليها ، ولأن قوله : "ولو برزت فى زى عذراء ناهد" زيادة حسنة وتخييل بديع ...

وكقول أبى تمام :

جذلان من ظفر حران أن رجعت مخضوبة منكم أظفاره بدم

أخذه البحترى فأحسن سبكه فقال :

إذا احتربت يوما ففاضت دماؤها تذكرت القربى ففاضت دموعها

وكقول أبى تمام :

هو الصنع إن يعجل فخير وإن يرث فللريث فى بعض المواضع أنفع

وقول المتنبى :

ومن الخير بطء سيبك عنى أسرع السحب فى المسير الجهام[1]

فبيت أبى الطيب أبلغ لاشتماله على زيادة بيان ، إذ علله بكون السحاب الجهام أسرع مسيرا ، وأن أبطأ السحب أثقلها ، فكأنه دعوى بدليلها بخلاف بيت أبى تمام فقد خلا من ذلك .

ثانيا : أن يكون الثانى دون الأول فى البلاغة وجودة السبك ..

---

(١) الجهام : بفتح الجيم : السحاب الذى لا ماء فيه .

كقول بعض الأعراب :

وريحها أطيب من طيبها والطيب فيه المسك والعنبر

وقول بشار :

وإذا أدنيت منها بصلا غلب المسك على ريح البصل

فبيت الأعرابى أبلغ وأجود : لأن بشارا جعل الغلبة للمسك لا لرائحتها ، كما أن إدناء البصل منها مما يقبح فعله ، ولا يحسن ذكره ... وكقول الخنساء :

وما بلغ المهدون للناس مدحة وإن أطنبوا إلا وما فيك أفضل

فهو أجود نظما من قول أشجع :

وما ترك المداح فيك مقالة ولا قال – إلا دون ما فيك – قائل

لما فى مصراعه الثانى من التعقيد اللفظى ....

ثالثها : أن يكون الثانى مثل الأول فى البلاغة وجودة السبك وعندئذ يكون الفضل لصاحب الأول .... كقول الأعرابى :

ولم يك أكثر الفتيان مالا ولكن كان أرحبهم ذراعا

وقول أشجع :

وليس بأوسعهم فى الغنى ولكن معروفه أوسع

فالبيتان متساويان فى البلاغة وجودة النظم .... وقيل بيت الأعرابى أجود لدلالته على السخاء بطريق الكناية "أرحبهم ذراعا" ، والكناية أبلغ من الحقيقة .... وكقول بكر بن النطاح :

كأنك عند الكر فى حومة الوغى تفر من الصف الذى من ورائكما

وقول أبي الطيب المتنبى :

فكأنـه والطعـن مـن قدامـه — متخوف مـن خلفـه أن يطعنـا

فالبيتان سواء فى المعنى و النظم .....

وكقول العتبى فى رثاء ابن له :

والصبر يحمد فـي المواطـن كلهـا — إلا عليـك فإنـه مذمـوم

وقول أبى تمام بعده :

وقدكان يدعى لابس الصبر حازمـا — فأصبح يدعى حازما حين يجـزع

فالبيتان سواء ، وقيل بيت أبى تمام أبلغ ، لأن فى قوله : " لابس الصبر " استعارة بالكناية والاستعارة أبلغ من الحقيقة .....

<u>السرقة غير الظاهرة</u> : أما السرقة غير الظاهرة فهى مقبولة بجميع أنواعها لما فيها من حسن التصرف وخفاء الأخذ ، وكلما كان الأخذ أشد خفاء كانت أولى قبولا ، لأنها عندئذ تخرج من سبيل الأخذ والاتباع إلى حيز الاختراع والابتداع .... وهى عدة أنواع منها :

١- أن يتشابه معنى الأول ومعنى الثانى ، دون نقل للمعنى إلى محل آخر .... كقول الطرماح :

لقد زادنـي حبـا لنفسـي أننـي — بغيض إلى كل امرئ غير طـائل

وقول أبى الطيب :

وإذا أتتـك مذمتـي مـن نـاقص — فهي الشـهادة لى بـأنى كـامل

فإن ذم الناقص أبا الطيب كبغض الذى هو غير طائل الطرمـاح ، وشهادة ذم الناقص لأبى الطيب بالكمال ، كزيادة حب الطرماح لنفسه بسبب بغض غير الطائل له ... ومعرفة أن هذا المعنى أصله من ذلك المعنى خفى غامض ، لا يعرفه إلا من مـارس

الأشعار ، ولا يتبين إلا لمن أغرق وغاص في استخراج المعاني ... ومن ذلك قول أبي العلاء المعري في مرثيته :

وما كلفة البدر المنير قديمة ... ولكنها في وجهه أثر اللطم(١)

وقول ابن القيسراني :

أهوى الذي أهوى له البدر ساجدا ... ألست ترى في وجهه أثر الترب(٢)

فالشطر الثاني من هذا البيت يشبه الشطر الثاني من البيت الأول ، إذ كلاهما يشير إلى كلفة البدر ، ولكنها في الأول من أثر اللطم ، وفي الثاني من أثر السجود .... وأوضح من ذلك قول جرير :

إذا ما كنت ملتمسا نكاحا ... فلا تعدل بجمع بني ضرار

فلا يمنعك من أَرَب لحَاهم ... سواء ذو العمامة والخمار

وقول أبي الطيب المتنبي :

ومن في كفه منهم قناة ... كمن في كفه منهم خضاب

فبيت المتنبي يشبه بيت جرير الثاني ، ولكن الأخذ هنا واضح وليس خفيا ، فالأولى أن يكون من السرقة الظاهرة ...

٢- النقل : وهو أن ينقل معنى الأول إلى غير محله ، كما في قول البحتري :

سُلبُوا وأشرقت الدماء عليهم ... محمرة فكأنهم لم يسلبوا

---

(١) الكلفة بضم الكاف وسكون اللام وفتح الفاء : حمرة يخالطها سواد ، يريد أن كلفة البدر من لطمه على من يرثيه لشدة حزنه عليه ...

(٢) أهوى الأولى بمعنى أحب والثانية بمعنى سقط فبينهما جناس تام . والترب بضم التاء المشددة وسكون الراء : التراب .

أخذه المتنبى ونقله إلى السيف فقال :

يبس النجيـــع عليـه وهـو مجـرد عن غمده فكأنما هـو مغمـد[1]

وكقول أبى تمام :

رعته الفيـافي بعدمـا كـان حقبـة رعاها وماء الروض ينهـلّ سـاكبه

أخذه البحترى ونقله من الجمل إلى شيخين كبيرين قد هرما فقال :

ركبا القنا من بعد مـا حمـلا القنـا في عسكر متحـامل فـى عسـكر

٣- أن يكون معنى الثانى أشمل من معنى الأول ، كقول جرير :

إذا غضبـت عليـك بنـو تميـم وجـدت النـاس كلهـم غضابـا

وقول أبى نواسٍ :

ليـس علـى الله بمسـتنكر أن يجمـع العـالم فـى واحـد

فبيت أبى نواس أشمل ، لأن العالم يشمل الإنـس وغـيرهم كالملائكـة والجـن وغيرهما ....

٤- القلب : وهو أن يكون معنى الثانى نقيض معنى الأول ، سمى بالقلب لأن الشاعر يأخذ المعنى ويقلبه إلى نقيضه .... كما فى قول أبى الشيص :

أجـد الملامـة فـى هـواك لذيـذة حبـا لذكـرك فليلمنـى اللـوم

أخذ أبو الطيب هذا المعنى وعكسه فقال :

أأحبـه وأحـب فيـه ملامـة إن الملامـة فيـه مـن أعدائـه

---

(١) النجيع : الدم المائل إلى سواد .

فأبو الشيص جعل الملامة محبوبة لأنها تذكره بالحبيب ، والمتنبى أنكرها وكرهها ، لأنه لا يستطيع أن يحبه ويحب أعداءه، إذ الملامة لا تكون إلا من أعدائه .... وكقـــول أبى تمام :

كريم متى أمدحه أمدحــــه والــورى معى وإذا مــا لمتــه لمتــه وحــدى

أخذه ابن طاهر وقلبه فقال :

يشـــترك العـــالم فــــى ذمــــه لكننــــى أمدحــــه وحــــدى

٥- أن يؤخذ بعض المعنى ويضاف إليه زيادة تحسنه وتجملـــه ، كقـــول الأفـــوه الأودى :

وتــرى الطــير علــــى آثارنـــا رأى عــين ثقــــة أن ســـتمار(١)

وقول أبى تمام :

وقد ظُلِّلَتْ عقْبانُ أعلامـــه ضُحًـى بعقبان طير فــى الدمــاء نواهــل

أقامت مع الرايـــات حتــى كأنهــا من الجيـــش إلا أنهــا لا تقــاتل(٢)

فأبو تمام قد جعل الطيور " فى الدماء نواهل " وتلك زيادة حسنت المعنى وقررته ، فطيور الأفوه واثقة بأنها ستطعم ، أما طيور أبى تمام فإنها تنهل من دماء الأعداء .... ثم جعلها قائمة مع الرايات حتى كأنها من الجيش إلا أنها لا تقاتل ، لأن مهمتها أن تنهـــل من الدماء ، وتلك زيادة أخرى ازداد بها المعنى حسنا وبهاء .

---

(١) ستمار : بمعنى ستطعم ، يعنى أنها تتبعهم عند خروجهم للحرب واثقة بذلك

(٢) عقبان الأعلام : جمع عقاب بكسر العين وهو الراية الضخمة من إضافة الخاص للعام وعقبان الطير : جمع عقاب بضم العين وهو طائر جارح معروف وبينهما جناس تام .. ونواهل : جمع ناهلة اسم فاعل من نهل بمعنى روى ....

هذا ويذكر البلاغيون والنقاد تسميات وألقابا أخرى للسرقات الشعرية غير ما ذكرنا ، كما يضيفون أنواعا جديدة إذا تأملتها لن تجدها ذات بال .... من ذلك الاصطراف والاجتلاب والاهتدام والمرافدة والاستلحاق . فالاصطراف : أن يعجب الشاعر ببيت من الشعر فيصرفه إلى نفسه ، فإن صرفه إليه على جملة المثل فهو اجتلاب واستلحاق ، وإن ادعاه جملة فهو انتحال ، وإن كان الشعر لشاعر أخذ منه غلبة فتلك إغارة وغصب ، فإن أخذه هبة فتلك مرافدة أو استرفاد ، فإن كانت السرقة فيما دون البيت فهى اهتدام أو نسخ ، فإن تساوى المعنيان دون اللفظ ، وخفى الأخذ ، فذلك النظر والملاحظة و كذا إن تضادا ودل أحدهما على الآخر ، فإن حول المعنى من نسيب إلى مدح فذاك اختلاس ، فإن صح أن الشاعر لم يسمع بقول الآخر فتلك موارده [1] ...

رأينا فى السرقات الشعرية :

وأرى أن الأمر لا يعدو أن يكون تأثيرا ، وتأثرا بين الشعراء ، وتوارد خواطر ، فمن الطبيعى أن يتأثر اللاحق بالسابق ، وأن يؤثر السابق فى اللاحق ، يقول عنترة :

ما أرانا نقول إلا معارا أو معادا من قولنا مكرورا

ويقول أيضًا :

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم

ولذا لا ينبغى أن يتهم أحد بالسرقة دون أن تكون هنالك القرائن والدلائل التى تدل على ذلك ... يقول الخطيب : " هذا كله[2] إذا علم أن الثانى أخذ من الأول ، وهذا لا يعلم إلا أن يعلم أنه كان يحفظ قول الأول حين نظم قوله ، أو بأن يخبر هو عن نفسه أنه أخذه منه ، لجواز أن يكون الاتفاق من قبيل توارد الخواطر ، أى مجيئه

(١) انظر العمدة ٢/٢١٥ ، ٢١٦ .

(٢) يشير إلى أنواع السرقات المذكورة ...

على سبيل الاتفاق من غير قصد إلى الأخذ أوالسرقة كما يحكى عن ابن ميادة أنه أنشد لنفسه :

مفيد ومتلاف إذا ما أتيته تهلل واهتز اهتزاز المهند

فقيل له : أين يذهب بك ؟ هذا للحطيئة ، فقال : الآن علمت أنى شاعر ، إذ وافقته على قوله و لم أسمعه ، ولهذا لا ينبغى لأحد بت الحكم على شاعر بالسرقة ما لم يعلم الحال ، وإلا فالذى ينبغى أن يقال : قال فلان كذا وقد سبقه إليه فلان فقال كذا ، فيغنم به فضيلة الصدق، ويسلم من دعوى العلم بالغيب ونسبة النقص إلى الغير ....[(١)]، والله أعلم ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحابته أجمعين ..

فى ٢٧ رمضان سنة ١٤٠٦ هـ
الموافق ١٩٨٦/٦/٤ م
بحى المطار – عنيزة – القصيم
المملكة العربية السعودية

د/ بسيونى عبد الفتاح بسيونى
المدرس بقسم البلاغة والنقد
كلية اللغة العربية – جامعة الأزهر
بالقاهرة

---

(١) الإيضاح ١٢٩/٤ .

أهم مراجع الكتاب

١ - الإتقان في علوم القرآن للسيوطي طبعة الحلبي سنة ١٣٩٨هـ .

٢ - أثر القرآن في تطور البلاغة العربية للأستاذ / كامل الخولي . ط : الأنوار سنة ١٣٨١هـ .

٣ - أسرار البلاغة لعبد القاهر . ط : صبيح سنة ١٣٩٧هـ . ت : محمد عبد العزيز النجار .

٤ - إعجاز القرآن للباقلاني . ط : دار المعارف سنة ١٩٧٧م . ت : السيد صقر .

٥ - إعجاز القرآن بين النظرية والتطبيق . د / حفني شرف . ط : الأهرام سنة ١٩٧٠م .

٦ - الأغاني للأصفهاني . ط : الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٤م .

٧ - الأقصى القريب للتنوخي . مطبعة دار السعادة سنة ١٣٣٧هـ .

٨ - الإيضاح للقزويني وبهامشه البغية . ط : صبيح سنة ١٣٩٢هـ .

٩ - بديع القرآن لابن أبي الإصبع . ط : الرسالة سنة ١٣٧٧ هـ . ت : حفني شرف .

١٠ - البديع لابن المعتز نشر إناطيوس كراتشوفسكي لندن سنة ١٩٣٥م .

١١ - بغية الوعاة للسيوطي . ط : المطبعة الميمنية بمصر سنة ١٣٠٦هـ .

١٢ - البلاغة تطور وتاريخ لشوقي ضيف . ط : دار المعارف سنة ١٩٧٧م .

١٣ - البلاغة القرآنية في تفسير الكشاف للأستاذ / محمد أبو موسى . ط : دار الفكر العربي .

١٤ - البلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها لأمين الخولي . ط : مجلة كلية الآداب سنة ١٣٤٩ هـ .

١٥ - البيان والتبيين للجاحظ . ط : الخانجي . ت : عبد السلام هارون .

١٦ - تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة . ط : الحلبي سنة ١٣٧٣هـ .

١٧ - تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة . ط : الحلبي سنة ١٣٧٣هـ .

١٨ - تحرير التحبير لابن أبي الأصبع . ط : المجلس الأعلى سنة ١٣٨٣هـ . ت : حفني شرف .
١٩ - تلخيص المفتاح للقزويني .
٢٠ - تنزيه القرآن عن المطاعن لعبد الجبار . ط : دار النهضة ببيروت .
٢١ - ثلاث رسائل في إعجاز القرآن . ط : دار المعارف سنة ١٩٧٦م .
٢٢ - جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي . ط : جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية . ت : د / محمد الهاشمي .
٢٣ - الحيوان للجاحظ . ط : الساسي سنة ١٩٥٠م .
٢٤ - خزانة الأدب للحموي . ط : المطبعة الخيرية سنة ١٣٠٤هـ .
٢٥ - دفاع عن البلاغة لأحمد حسن الزيات . ط : عالم الكتب سنة ١٩٦٧م .
٢٦ - دلائل الإعجاز لعبد القاهر . ط : الفجالة . ت : د / عبد المنعم خفاجى .
٢٧ - دلالات التراكيب للأستاذ / محمد أبو موسى . ط : دار المعلم سنة ١٣٩٩هـ .
٢٨ - سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى . ط : الخانجي . ت : علي فودة .
٢٩ - شروح التلخيص .
٣٠ - الشعر والشعراء لابن قتيبة . ط : دار المعارف سنة ١٩٦٧م . ت : الأستاذ أحمد شاكر .
٣١ - الصبغ البديعي للأستاذ / أحمد موسى . ط : دار الكاتب العربي سنة ١٣٨٨هـ .
٣٢ - الصاحبي لأحمد بن فارس . ط : المؤيد سنة ١٣١٨هـ .
٣٣ - الصناعتين لأبي هلال العسكري . ط : الحلبي سنة ١٩٧١م .
٣٤ - طبقات فحول الشعراء للجمحي . ط : المدني . ت : محمود شاكر .
٣٥ - الطراز للعلوي . ط : المقتطف سنة ١٣٣٢هـ .

٣٦ - طراز الحلة وشفاء الغلة لأبي جعفر الغرناطي وهو شرح لبديعية ابن جابر الأندلسي . مخطوط بالأزهر رقم ٦٣ خ بلاغة .
٣٧ - العمدة لابن رشيق القيرواني . ط : دار الجيل . ت : محمد محيى الدين .
٣٨ - عيار الشعر لابن طباطبا : ط : شركة فن الطباعة سنة ١٩٥٦م .
٣٩ - الفهرست لابن النديم . ط : الاستقامة .
٤٠ - قواعد الشعر لثعلب . ط : دار المعارف سنة ١٩٦٦م . ت : د / رمضان عبد التواب .
٤١ - الكامل للمبرد . ط : نهضة مصر سنة ١٩٥٦م . ت : محمد أبو الفضل .
٤٢ - الكتاب لسيبويه . ط : الهيئة المصرية سنة ١٩٧٧م . ت : عبد السلام هارون .
٤٣ - الكشاف للزمخشري . ط : الحلبي سنة ١٣٨٩هـ .
٤٤ - اللزوميات لأبي العلاء المعري . ط : بيروت سنة ١٣٨١هـ .
٤٥ - لسان العرب لابن منظور . ط : دار المعارف .
٤٦ - المثل السائر لابن الأثير . ط : الحلبي . ت : محمد محيى الدين .
٤٧ - مجاز القرآن لأبي عبيدة . ط : الخانجي . ت : محمد فؤاد .
٤٨ - معجم الأدباء لياقوت . ط : فريد رفاعي سنة ١٩٣٦م .
٤٩ - معاني القرآن للفراء . ط : الهيئة المصرية للكتاب سنة ١٩٨٠م .
٥٠ - المطول لسعد الدين التفتازاني .
٥١ - المغني للقاضي عبد الجبار جـ ١٦ في إعجاز القرآن . ط : وزارة الثقافة والإرشاد .
٥٢ - مفتاح العلوم للسكاكي . ط : الحلبي سنة ١٣٥٦هـ .
٥٣ - المقتضب للمبرد . ط : المجلس الأعلى سنة ١٣٨٦هـ .

٥٤ – مناهج تجديد لأمين الخولي . ط : دار المعرفة سنة ١٩٦١م .
٥٥ – الموازنة للآمدي . ط : دار المعارف سنة ١٣٨٠هـ . ت : السيد صقر .
٥٦ – نزهة الألباء في طبقات الأدباء لابن الأنباري ط : جمعية إحياء تراث العلماء .
٥٧ – نقد الشعر لقدامة . ط : مطبعة أنصار السنة المحمدية سنة ١٩٤٩م . ت : كمال مصطفى .
٥٨ – نقد النثر [البرهان في وجوه البيان] لابن وهب . ط : مطبعة مصر سنة ١٩٣٩م . ت : طه حسين ، وعبد الحميد العبادي .
٥٩ – النقد المنهجي عند العرب د/ محمد مندور . ط : نهضة مصر سنة ١٩٧٢م
٦٠ – نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للرازي مطبعة الآداب سنة ١٣١٧هـ .
٦١ – الوساطة بين المتنبي وخصومه لعلي بن عبد العزيز الجرجاني . ط : الحلبي ت : محمد أبو الفضل إبراهيم .
٦٢ – وفيات الأعيان لابن خلكان . ط : نشر فريد رفاعي .
٦٣ – يتيمة الدهر للثعالبي . ط : الصاوي سنة ١٩٣٤ .

★ ★ ★

محتويات الكتاب

القسم الأول

القسم الثانى

دار الأمين للطباعة

٨ ش أبو المعالي (العجوزة) الجيزة - ت/فاكس ٣٤٧٣٦٩١

٤ ش سوهاج من ش الزقازيق - الهرم - ت/فاكس : ٥٦٣٤١٩٩

